أحمد علي حسن

التصوّف جدلية وانتماء



دراسات ومناقشات، في أصول
التصوّف ومعارفه وفنونه

التصوف جدلية وانتماء

أحمد علي حسن

التصوّف جدلية وانتماء

دراسات ومناقشات، في أصول
التصوّف ومعارفه وفنونه

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٠

• تصميم الغلاف: أنور الرحبي

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ.

« قرآن كريم »

مَن قرضَ شعرًا أو وَضع كتابًا، فقد استُهدِفَ للخصوم، واستشرف للألسن، إلا من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى وقليل ما هُم

« العتابي »

من حق الإنسان أن يَطلبَ المعرفة
وَأول هذه المعرفة حَقيقة ما يَعبُد.

« بلوتارخوس »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . سئل ابن الجلاء : ما معنى صوفي ؟ فقال : ليس نعرفه في شرط العلم ، ولكن نعرفه فقيراً مجرداً من الأسباب ، كان مع الله بلا مكان ، ولا يمنعه الحق سبحانه من علم كل مكان ، فسمي صوفياً ..

وقال أبو الحسين النوري : ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ، ولكنه أخلاق ..

★ ★ ★

الفهرس

تقديم وجيز

منذ مطلع القرن العشرين ، لوحظ أنه نشط الاهتمام بالصوفية نشاطاً متميزاً ، فتزايد الباحثون بها ، وتكاثر المهتمون بفلسفتها وأفكارها والسائرون وراء غاياتها وأغراضها ، والمستكشفون مقاصدها وأهدافها، وذهبوا في تعريفها وتفسيرات أغراضها ، مذاهب مختلفة ، ووضعوا لها التأويلات البعيدة والقريبة بغية التوصل الى سر غايتها ، وحقيقة معرفة علاقتها بالتاريخ القديم ، وأواصر صلتها في التاريخ الحديث ، والظروف التي أوحت بها ، وهيأت لها مع تطور الزمن والأجيال والأشخاص والسلطة ..

واهتموا بوسائل الربط القائمة بين ماضيها وحاضرها ، وملتقى الغاية الواحدة منها ، مع تعداد مذاهبها ، وتنوع مشاربها ، معتمدين بذلك على الروافد التي تمدها ، والأصول التي تتفرع منها ، وتتلاقى في مصبها من مصادر العرب وغير العرب .

ومرد ذلك كله إلى ما يتداخل فيها من سلبيات الحياة وايجابياتها وعوامل الاستكشاف فيها ، فهل باستطاعة الفكر والحالة هذه ، أن يكشف عما اذا كانت السلبيات ، هي الطريق المؤدي الى الايجابيات بأغرائها المصور في عالم الغيب ، عالم ما وراء الحياة المنظورة ، الذي بشرت به الكتب الألهامية ، والرسالات السماوية ، وعما إذا كان ازدراء

الحياة الدنيا يتيح للمريد الحياة الأخرى ، وهل الموصوف بالغيب ، يمكن أن يُرى بالتخلي عن عالم الغيب لأهل الشهادة بالتجلي ..[1] .

وأكثر ما كانت انطلاقاً هذه الفكرة عندما بدأ النبيون وأصحاب الرسالات يتحدثون بوسائلهم الألهامية عن ذات الله ، وعظمة جلالها وجمالها وسلطانها القاهر ، ورحمتها الواسعة ، وديموميتها الخالدة وذاتها الثابتة التي لا يطرأ عليها التغيير بين سائر المتغيرات ، وما هو ممكن من رؤيتها بالحاسة البصرية ، وما هو غير ممكن ، وما هو ممكن من مخاطبتها باللسان اللافظ ، وما هو غير ممكن ، واذا صح امكان شيء من هذا كله ، فهل يتم فعلاً عن طريق المجاهدة النفسية التي كان يطبقها على أنفسهم أصحاب الرسالات ، وبالصبر والتحمل على هذه المجاهدة ..

واذا كان موسى قد اتخذ من جبل الطور مكاناً لطلب الرؤية بالتجلي الذي تتم به صورة التلاقي مع الذات الألهية ، ولكن بعد جهد موعود ورفض حازم مشروط ، تسنى له ذلك، وأخذ تعاليمه منها بدون واسطة وبالخطاب المباشر .

وموسى ــ كما يحدثنا التاريخ ــ إنسان نشأ بين الناس وجرى عليه كل ما يمكن أن يجري على الناس ، ولكنه قد استطاع أن يمتاز عليهم بما حصل عليه من هذه المميزات التي انفرد بها في مجاهداته واغراقه وصبره ..

وعيسى ، الذي بشر العالم بملكوت أبيه السماوي إذا هم اتفقوا على (المحبة) وترك الشر ، وأكد لهم أن الله (محبة) واستطاع

---

(١) الشيخ محي الدين بن عربي يقول : (لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا) وهذا معناه أنه لا يشاهد الا من وراء حجاب المادة.

بأسلوبه المحكم ، وبحكمه الفريدة أن يُدخل في قناعة الناس ، أنه ابن الله ، جاء للخلاص والأنقاذ من أم بشرية ، وأب ملكوتي ..

ويحدثنا التاريخ ، انه ولد بين الناس ، ونشأ معهم بصرف النظر عن كيفية هذه الولادة ، وأسلوب هذا المنشأ الفريد الغريب ، ولكنه حصل على ما حصل عليه من تفوق مميز على الناس جميعاً ، إنه جاهد نفسه واعتزل الناس منقطعاً إلى أبيه السماوي في جبل الجليل وفي البرية سحابة خمسة عشر عاماً ، حتى سيطر عليه الأغراق والتفكير في عظمة أبيه السماوي الذي أرسله فصار على بصيرة من أمره ، وعلى علم مما يراد منه ، فهو رسول أبيه الذي في السماء الى أبنائه في الأرض، وقد جسد فيه صورة أبيه ، فقال للذين يطلبون رؤية أبيه : (من رآني فقد رأى الأب) ..

وجاء محمد بن عبد الله (ص) ، وهو يتيم من قريش ، عاش بكفالة عمه أبي طالب ، وبثقة خديجة ابنة خويلد في أعمالها التجارية فقد اصطفاه الله لتأدية رسالته، وحملهاالى العالم الأسود منه والأبيض، ولكن كل ذلك قد تم له بعد مجاهداته الطويلة وصبره وانقطاعه في غار حراء ، واغراقه المغيّب في التأملات الروحية ، وكان من أبرز ظواهر رسالته أنه بقي بين الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وانه لم يُعرض عما تقتضيه الحياة إعراض المتزمت الزاهد ، ولم يقبل عليها إقبال المستزيد الطامع ولم يك ملحاً في طلب الرؤية ، ولكن الله سبحانه قد أكرمه بتعجيل الرؤية ، فرأى ربه ليلة المعراج في أحسن صورة ..

هذه النماذج من الأحوال الخارقة ، ومن أشخاص تحولوا الى غير عاديين ، كانت كلها حوافز عملية لخلق جيل من الناس ، زيَّن له حب التجربة ، التشبه بهؤلاء ، وبأمثالهم من أصحاب الخوارق والمعجزات .

والنجربة كما هو معروف ، لا تتم الا بالمجاهدة ، والمجاهدة لا تتم الا بالصبر على قهر ارادة الجسد ، وطرح رغبات النفس المادية ، لأن الانسان محجوب عن ذات الله بحجاب الجسد وكثافته ولأن الذات الألهية لا مادة لها تحجبها وجوهر النفس المصفاة متصل بجوهرها ، وقد جاء في القرآن الكريم : (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ولم يقل محتجب عنهم ، وعلى هذا تتم الرؤية بزوال الحجاب ...

ومن هنا كان الجنيد يدعو ربه قائلا : اللهم ان عذبتني بشيء ، فلا تعذبني بذل الحجاب) .

ولهذا كان يقول (النّفري)[1] ولئن هتك الحجاب ذهلت معرفة العارفين ، فتتكسى في الذهول نوراً تجمل به ما بدا بعد هتك الحجاب . ولعل هذا هو المقصود بجواب أبي الحسن عليه السلام لكميل بن زياد : (هتك الستر لغلبة السر) .

بقي العمل على معرفة (الكيف) التي بها زوال الحجاب ، هل هي بمزاولة التكليف الشرعي ، كما يراه التنزيليون ؟! أم بمعرفة الأسرار التي هي وراء التكليف الشرعي كما يراه التأويليون ؟! أم بالانصراف الكلي عما تتعلق به النفس من شهوات ورغبات ..

من هنا بدأ الصوفيون يختلفون ، ويطلقون العبارات المتباينة ، والنظريات المختلفة والمتناقضة في تعريف الصوفية وأحوالها ونزعاتها وعلميتها ، ومذهبيتها ، وحركيتها ، وطرائقيتها ، ويطرحون التساؤلات الجادة فيها : ما هو التصوف ، ومن هو المتصوف ، وكيف يتم الحصول على الخرقة أو المرقعة ..

---

(١) النفري ، هو محمد بن عبد الجبار من بلدة نفر أو نيبور بجوار بابل أو الكوفة وهو صاحب كتاب (المواقف) توفي عام ٣٥٤ هـ .

هل يتم بالتضييق على النفس فعلاً بكسر رغباتها ؟ أم يتم بمعرفة خلال الشرع وحرامه والوقوف عندهما مع الالتزام بالأوامر الشرعية المفروضة أم بفلسفتها المعقدة التي يراها ابن عربي بسريان الحقيقة المطلقة في الجزئيات ، أو العام والخاص ، وما هي هذه الحقيقة ؟ أم بالقفز من فوق مراصد العقل كما فعل الغزالي أبو حامد • أم بالرقص والسماع والموسيقى كما يراه جلال الدين الرومي ؟! وهل التصوف بعد هذا كله ، هو علم ، أم طريقة ؟ أم حركة ؟ أم مذهب ؟

هذه الخلافات المتشعبة التي رأيناها ، ونراها في مسالك ومسارات الصوفيين هي التي حدت بنا وخلقت فينا الرغبة الى مناقشة آرائهم وتحليل تصرفاتهم وأحوالهم في هذا الكتاب ، لعلنا نتوصل الى معرفة شيء عن الأسباب الحقيقية التي هيأت جيلاً من الناس ، وفريقاً من أهل الفكر سعي إلى قهر السعادة ورفضها في سبيل الحصول على السعادة ، واستعجل الفناء ليسعد في البقاء ، واستخدم العمل بدلاً من العلم اختصاراً للزمن •

ولعلنا نستطلع شيئاً جديداً فيما قيل في هؤلاء القوم ومن هؤلاء القوم ؛ من أسباب وانتماءات وجدليات ، ليست عديمة الجدوى •

أحمد علي حسن

★ ★ ★

التصوف وسبب هذه التسمية

التصوف وسبب هذه التسمية

قال صاحب الرسالة القشيرية في باب التصوف ، قال الأستاذ (ابو علي الدقاق) :

الصفاء محمود بكل لسان ضده الكدورة ، وهي مذمومة . .

وأسناده الخبر عن أبي جحيفة قال :

قال: خرج رسول الله (ص) متغير اللون، فقال : ذهب صفو الدنيا، وبقي الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم . .

قال الأستاذ (يعني الدقاق) : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل الى ذلك يقال له: متصوف ، وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربيـة ، قياس ، ولا اشتقاق ، والا ظهر فيه كاللقب .

فأما قول من قال : انه من الصوف ، وتصوف ، اذا لبس الصوف كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه" . .

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله (ص) فالنسبة إلى الصفة ، لا تجيء على نحو الصوفي ، ومن قال : إنه من الصفاء ، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ، وقول

من قال، : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة الى الصف ، ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم الى قياس لفظ ، واستحقاق اشتقاق ..

هذا ما خلص اليه صاحب القشيرية في رسالته !!

فهو لم يطمئن الى كل هذه الأسباب ولا إلى كل هذه الأقوال الواردة من حيث القياس والاشتقاق ، وهو أيضاً ، لم يأخذ بيد القارىء الى الاطمئنان ، فمن أين أتت هذه التسمية يا ترى ؟!

وإذا كان هذا قول صاحب القشيرية ، فما هو رأي شارحها شيخ الاسلام زكريا الأنصاري ..

قال زكريا الأنصاري :

التصوف : هو ترك الاختيار ، ويقال : هو حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك ..

ويقال : هو الجد في السلوك ، الى ملك الملوك .

ويقال : هو الأكباب على العمل ، والاعراض عن العلل ..

ويقال غير ذلك .

وتقدم بعضه في ذكر مشاريخ هذه الطريقة ، وهو ممدوح ومطلوب" ، لأنه مأخوذ من الصفاء ، وقد بينه بقوله : الصفاء محمود .. الخ ..

هذا القول قول زكريا الأنصاري، وقد ركز على تعريف التصوف سلوكاً وعملاً ، واغفل سبب التسمية ، وقياساتها واشتقاقاتها خلافاً

لشيخه صاحب القشيرية ، الذي ركز على سبب التسمية ، وخرج منها وهو غير قانع بها ..

ويبدو أن الأنصاري يرجح أخذ هذه التسمية من الصفاء اعتماداً على قول الأستاذ (الدقاق) .

وعرّف الأنصاري التصوف في مكان آخر في تعليقه على رسالة شيخه القشيري فقال :

التصوف هو علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية .

يتبدى هنا تعريفان في قول الأنصاري لمعرّف واحد ، هو التصوف ففي التعريف الأول ، قال : هو ترك الاختيار ، وحفظ الحواس ، ومراعاة الأنفاس ، وغير ذلك مما أثبتناه آنفاً ..

وفي التعريف الثاني ، ذكر أنه علم" ، والعلم يضاف الى غيره من العلوم التي لها قواعد ، ومبادىء ، وأصول ، متفق عليها .

أما التصوف ، كما عرفنا عنه في بدايته ، فهو اختيار طوعي عند المتصوف ، إن شاء التزم به ، وان شاء رفضه ، وليس في رفضه أو الالتزام به تأثير على الحياة الذهنية ، بعكس العلم الذي يعتبر رفضه نقصاً على الفكر ، وتخلفاً به ، وتضييعاً له ..

وبهذا يكون قد خرج عن حد كونه علماً ، لأن العلم كما هو معروف لا بد له من متعلمين ــ أي طلاب علم ــ تضطرهم الحياة إليه ليكونوا عوناً لهم في نيل أسبابها .

أما التصوف كظاهرة من ظواهر الحياة في المجتمع ، لا يقوم على خدمة الانسان فيها ، وانما يقوم على مخالفتها وطرح أسبابها من حيث هو اتجاه سلبي فيها ، ورفض حازم لكل غواياتها وحلاواتها .

لقد استمعنا فيما مر على رأي صاحب القشيرية في رسالته وعلى رأي شارحها ، شيخ الاسلام زكريا الأنصاري ، وكل منهما طرح رأياً بقي مجرداً لا يقوم على المرتكزات الأصيلة ..

ولا يفوتنا أن نقول : أن القشيري ، هو من علماء القرن الرابع الهجري ، حيث قال شارحُ رسالته .. ان ميلاده كان في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثماية للهجرة ..

كان هذا رأي صاحب القشيرية ، ورأى شارحها كما أشرنا آنفاً ، أما ابن الجوزي فقد استعاض في الباب العاشر من كتابه تلبيس ابليس في تعليل أسباب التسمية وفي تغليط آخرين فيما ذهب إليه من أسباب ، وانتهى الى القول : ان هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مايتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها : أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ..

وإذا أجرينا مقارنة بسيطة بين تعريفات ابن الجوزي وبين تعريفات القشيري وزكريا الأنصاري نلاحظ أن كلا من هؤلاء قد قال ما يتلاءم مع تصوره لمعنى الصوفية مما استخلصوه بطريق الاشتقاق أو النسبة لهذه التسمية ولكنهم جميعاً غلطوا أسانيد هذه التسميات ، وغلطوا رواتها ، لأن ليس فيها ما يستند الى مصادر صحيحة أو عبارة مقنعة ... ومما يدعو للاستغراب أن صاحب القشيرية ، الذي هو أقرب عهداً من زمن ظهور التصوف ، لا يعرف كيف أتت هذه التسمية ، ويتردد في قبول أي استنتاج ، أو سبب بنيت عليه ..

وإذا عدنا إلى أوائل القرن الثاني للهجرة ، نرى أن أول من أظهر التصوف والتزم به هو أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور

من كورة بلخ المتوفى سنة ٥٦١ هجرية ، ويوردون السبب الذي تصوّف الرجل من أجله ، وهو كما يلي .. إنه ـ أي ابراهيم بن أدهم ـ كان من أبناء الملوك ، فخرج يوماً متصيداً ، فأثار ثعلباً أو أرنباً ، وهو في طلبه فهتف به هاتف ، يا ابراهيم ، ألهذا خلقت ؟؟ أم بهذا أمرت ؟! ثم هتف به أيضاً من قربوس سرجه ، والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته ، وصادف راعياً لأبيه فأخذ جبة الراعي وهي من صوف ولبسها ، وأعطاه فرسه وما معه ، ثم أنه دخل البادية . هذه هي حكاية كيفية تصوف ابراهيم بن الأدهم كما يرويها المؤرخون ..[1] .

واذا كان كما يقول ابن الجوزي ، هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين للهجرة ، ففي هذا اشارة الى حادثة ابن الأدهم المتوفى في النصف الثاني من عام المائتين ، وهو من أوائل الصوفيين في التاريخ الأسلامي ، وهو أيضاً أول من استعمل جبة الصوف بحسب الروايات والأخبار عنه ، وكل من جاء بعده أو أثر طريق الزهد سلوكاً شبه به ..

والأقرب الى التصديق في الأذهان، أن تكون هذه النسبة جميعها تعود إلى تلك الجبة التي كانت أول شعار لاول متزهد .. وإذا كان صاحب القشيرية يتردد في قبول ذلك ، فليس معناه أنه لا يجوز الخروج عليه ، ورفضه اشتقاق كلمة (صوفي) من الصوف ، ملزم له وليس ملزماً لغيره ، وحجته أن القوم لم يختصوا بلبس الصوف غير قائمة على منطق الحجة ، لأنه أيضاً ليس كل من لبس الصوف صار صوفياً ، والعبرة في ذلك على السلوك والصفات أكثر منها على

(١) حكاية ابن الأدهم هنا لها شبيه في التصوف المسيحي حكاية يواكيم الفلوداني (راجع بحث صلة التصوف الاسلامي بالتصوف المسيحي في هذا الكتاب) .

اللباس والثياب يؤيد ذلك ما قرره أبو العلاء المعري عندما رفض بعض مظاهر التصوف ، التي هي الفقر وليس الصوف على الجسد ، قال :

ما الزهد صوم" يذوب الصائمون له
ولا افتقار" ولا صوف على الجسدِ
وانما الزهد ترك الشر مطرحاً
ونفضك الصدر من غِل ومن حسدِ

ونورد هذه الطرفة من العقد الفريد لابن عبد ربه لأن فيها ما يشير إلى أن الصوف هو لباس المتزهدين المتفق عليه والذي أصبح سمة لهم لا يعرفون بها ..

قال صاحب العقد :

عن وهب بن منبه قال : نصب رجل من بني اسرائيل فخاً ، فجاءت عصفورة ، فوقفت عليه ، فقالت : مالي أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتي انحنيت ، فقالت : ما لي أراك بادياً عظامك ؟ فقال : لكثرة صيامي بدت عظامي ، فقالت : مالي أرى هذا الصوف عليك ؟ ، قال : لزهادتي في الدنيا لبست الصوف ..

هذه الحكاية على ما فيها من طرافة الحوار بين الرجل الاسرائيلي والعصفورة فيها ما يشير على أن لباس الصوف هو شعار المتزهدين وان العباد الزهاد لابسي الصوف هم الذين يطلق عليهم اسم الصوفية .

★ ★ ★

النسبة والانتماء في الطريقة الصّوفية

برأي الحسن بن محمد النيسابوري

النسبة والانتماء في الطريقة الصّوفية
برأي الحسن بن محمد النيسابوري

جاء في كتاب (منهج العلم والبيان ، ونزهة السمع والعيان) للأمير علي بن عيسى كوبج أحد أبناء المعز لدين اللـه الفاطمي ، في الباب الثالث منه ، وهو كتاب مخطوط ، خبر" عن النسبة والانتماء في الطريقة الصوفية وعن تلقي هذه الطريقة من شيخ إلى آخر ، هذا الخبر حديث صادر عن الحسن بن محمد النيسابوري ، جرى بتاريخ العاشر من جمادى الأخره سنة ٤٤٣ هجرية ، وصاحب الحديث هذا من مشيخة الصوفية ، ومن أصحاب الحديث ..

قال النيسابوري :

ان أبا بكر الشبلي رحمه الله ، أخذ التصوف عن أبي القاسم الجنيد بن محمد القواريري المتوفي سنة ٢٩٨ هجرية ..

وان الجنيد ، أخذ عن سري بن المفلس السقطي ، وهو خاله وان سري بن المفلس السقطي ، أخذ عن أبي محفوظ ، معروف بن فيروز الكرخي ، وكان مجوسياً ، وأسلم على يد مولانا الرضا ، وصحبه ، وأخذ التصوف عنه ، له في التصوف طريقنان الأولى : عن مولانا الرضا، كما ورد آنفاً .

الثانية : عِن داود الطائي ، عن حبيب العجمي ، عن الحسن بن بشار ، وهو أبو الحسن البصري ، عن أمير المؤمنين (١) .

حديث النيسابوري هذا حمل الينا تسلسل تلقي هذه الطريقة من شيخ إلى آخر ، ولكن الذي نقف عنده من كلام النيسابوري هو كلمة (أخذ) .

فالأخذ ـ كما هو معلوم عند أصحاب التعبير ـ هو جواب للعطاء ، ولا تتم التسمية للعطاء ، إلا بعد التناول والأخذ ، فكيف كان هذا الأخذ ، وكيف كان هذا العطاء ، وما هي الشروط المطلوبة في مثل هذه الأمور ؟!

فإذا كان التصوف علماً ـ كما سماه زكريا الأنصاري ـ ، فهو يؤخذ عن العلماء ، والعلماء ، لهم مدارسهم الخاصة التي يطلب فيها العلم ، وتقصد من أجل ذلك ..

---

(١) قال الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه ((الصلة بين التصوف والتشيع) نقلا عن كتاب روضات الجنان : وترد عن علي أحاديث غنوصية مليئة بالمصطلحات الصوفية ، كهذا الحديث الذي يدور بين كميل بن زياد الزاهد الشيعي المشهور المقتول سنة ٨٣ هجرية ، وعلي بن أبي طالب ، قال علي : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة ، قال كميل : زدني بياناً ، قال : محو الموهوم ، وصحو المعلوم ، فقال كميل : زدني بياناً ، قال : هتك الستر لغلبة السر ، فقال كميل : زدني بياناً ، قال : نور يشرق من صبح الأول ، فيلوح على هياكل التوحيد بأثاره ، فقال كميل : زدني بياناً ، فقال : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح . وقال صاحب حقائق أسرار الدين بالاسناد عن أبي جعفر ((لقد أضل الحسن البصري من هذه الآية أكثر مما أضل السامري في قومه) واذا كان كذلك فكيف اخذ عنه معروف الكرخي ؟

وإذا كان اختياراً لمزايا معينة ، كما عرفه القشيري ، فليس هناك أخذ ولا عطاء ، فهو رغبة صادقة في النفس وذوق ومواجيد فيها ذات حرارة معينة ...

وهنا ينبغي أن نتأمل حديث النيسابوري ، ونتساءل عن كيفية هذا الأخذ ، من رجل إلى رجل ، حتى انتهى بنا المطاف عند أمير المؤمنين ، وقبله عند علي الرضا ..

فهل تحديده لمقامات الصبر العشرة التي تحدث فيها الصوفيون فيما بعد ، كان دليلاً على تصوفه !![1] .

والذي نعرفه : أن كلمة (التصوف) لم ترد على لسان أمير المؤمنين(ع) ولا على لسان علي الرضا ، فهل يا ترى كان التصوف عندهم من الأسرار ، التي يختارون لها الرجال ، وهي غير مباحة للعامة، وإذا كان ذلك كذلك فهل كان محظوراً حتى ورود ذكرها في أحاديثهم وأقوالهم ؟!

إن الذي ظهر لنا من خلال معرفة تاريخ الصوفية وأخبارها أنهم لم يأخذوا معارفهم أخذاً ، وانما ألهموها الهاماً كما جرى لابن الأدهم وغيره من أوائل المتصوفة ..

كما لوحظ أن تطبيقاتهم التصوفية كانت تختلف من شخص إلى آخر ، ومفهوم التصوف كان عندهم مختلفاً أيضاً ..

---

(١) أحد أهل الكوفة سأل الامام أبي الحسن (ع) عن حقيقة الايمان فقال : الايمان على أربع دعائم : الصبر واليقين والعدل والجهاد، والصبر على عشر مقامات ، فكان أول متحدث عن المقامات التي تحدث عنها الصوفية فيما بعد .

التصوف ليس علماً

ولنثبت أن التصوف لم يكن علماً كما زعم الأنصاري ، نورد أسماء فريق من أقطاب الصوفية الذين تصوفوا بأسباب الهامية لا علمية !!

فمن هؤلاء :

١ ـ أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن المنصور من كورة بلخ ، الذي تصوف بسبب غريب أثناء قيامه بالصيد في البادية ، وهو لم يدخل في زمرة الذين أخذوا ، ولا في زمرة الذين أعطوا ، ولم يعرف من هو شيخه ، توفي سنة ١٦١ هجرية .

٢ ـ ثوبان بن ابراهيم ، أبو العفيف ، وهو ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية ، وكان أبوه نوبياً ، لم يذكر التاريخ أنه أخذ ولا أعطى ، وكان سبب تصوفه أنه رأى تيسير الرزق لقبرة عمياء في الصحراء فتزهد وتاب . فأين هو العلم في هذه الحالة ..

٣ ـ الفضل بن عياض ، من مرو، بخراسان المتوفى سنة ١٨٧ هجرية، وكان من قطاع الطرق ، وأحب جارية ، فارتقى الجدران إليها، فسمع تالياً يتلو : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فتاب وتصوف ، فأين هو العلم ، وأين هو الأخذ والعطاء عند هذا الرجل !!

فإذا كان هؤلاء ، وهم من كبار شيوخ الصوفية ، كان تصوفهم قد جرى بأسباب هتفت بهم من الداخل ، فكيف نزعم أن التصوف علم وأن له رجالاً يأخذونه ويعطونه !!

سئل الجنيد : من أين استفاد المعارف الصوفية ؟ فقال : إنه تلقاها من الله مباشرة •

وسئل : كيف تلقاها من الله مباشرة ؟ فقال : من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلى أسفل درجة في داره • توفي الجنيد سنة ٢٩٨ هجرية •

قول الجنيد هذا يتناقض مع ما قاله عنه صاحب (منهج العلم والبيان) الذين أسلفنا ذكره ، من أنه أخذ عن سرّي بن المغلس السقطي ، وهو خاله ، فأي القولين أحرى أن يؤخذ به ؟ •

إن الجنيد عندما قال : انه تلقاها من الله مباشرة ، يعني أنه تلقاها بمجاهدته وصبره ، وليس بالأخذ عن غيره ، فهو بتأمله واغراقه ثلاثين سنة ، وصل إلى ما وصل إليه •

وهنا نجد أن الأسباب غير واضحة في منظور واحد ، وان الانتساءات التي يشار إليها ، يحددها المتصوف لنفسه ••

ويتلاقى القشيري برسالته ، مع صاحب منهج العلم والبيان في تسلسل أخذ الطريقة ، ولكن ليس بالاتفاق على الأشخاص •

يروي القشيري : أن الأستاذ أبو علي ، أخذ عن النصراباذي وهذا أخذ عن الشبلي ، والشبلي عن الجنيد ، والجنيد عن السري ، والسري عن معروف الكرخي ، ومعروف الكرخي عن داود الطائي ، عن التابعين •

والقشيري ايضاً ، تناقض قوله مع قول الجنيد عن نفسه كما تناقض معه صاحب المنهج ، فمن أين ندرك الحقيقة وبأي القولين نأخذ وكلاهما يستند في روايته على ثقة ، لعل في الآراء التي نستعرضها في هذا الكتاب

لطائفة من أهل الرأي ، ما يكشف لنا جانباً من جوانب الغموض الذي يكتنف هذا البحث ، ويزيل شيئاً من الالتباس المحيق به .

كل هذا يبعد رائحة العلم عن (التصوف) ويتركه لمريديه اختيارا شخصياً لنمط معين من السلوك الشخصي في الروحانيات .

وحول كلمة (علم) أورد سلامة موسى في كتابه التثقيف الذاتي ، أن مجلة نيتشر التي تتخصص لنشر العلوم ترفض استعمال هذه الكلمة فتقول : ان هناك موضوعات الدراسة ، مثل علم البيولوجيا ، أو علم السيكولوجية ، ولكن ليس هناك علم مطلق ..

★ ★ ★

موقف رافض
في مجلة «العربي» الكويتية

موقف رافض

في مجلة « العربي » الكويتية

جاء في العدد رقم \٨٥\ لعام ١٩٦٦ من مجلة العربي التي تصدر في الكويت بعنوان : (أحرقوا هذه الكتب وانقذوا سمعة الدين) ما يلي :

قال المشرف على باب بريد القراء السيد عبد الوارث كبير :

((قرات في باب بريد القراء مقالا عنوانه (هذه فلسفة وليست اسلاماً) تضمن حملة عنيفة على التصوف ، فاسفت لذلك كثيرا ، لأن التصوف علم ، يعرف به الانسان ، كيف يحكم العمل بالكتاب والسنة ، ليكون عند الله مقبولا(١) وما أنكر المنكرون على الصوفية ، الفاظهم وعباراتهم ، الا لقصور فهمهم عن ادراك معاني كلامهم ..

اما لماذا لم يعرف هذا الاسم في عهد الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم جميعاً ، فان هؤلاء ، كانوا في قمة التصوف ، وما اشبه علم الصوفية بعلم النحو ، فالعرب كانوا يتكلمون العربية بالسليقة ، ولم تكن هناك قواعد يتعلمونها في مدارسهم ، فلما خيف على اللغة العربية من الضياع امر سيدنا علي (ص) ابا الأسود الدؤلي بوضع قواعد اللغة العربية .

---

(١) لعله يريد المعاني الثلاثة التي ذكرها السقطي واشرنا اليها في هذا الكتاب تحت اسم التصوف . ونتوقف عند عبارة (التصوف علم) فنحن لا نؤيد ذلك !.

وكذلك التصوف ، فإن الصحابة ، رضوان الله عليهم ، كانوا يستمدون من النبي ، فتتزكى نفوسهم ، ثم انتقل الرسول الأعظم الى الرفيق الأعلى ، فأصبح الناس يستمدون من الصحابة ، وهي دون دائرة الرسول ، ثم من التابعين ، وهكذا ، فلما خيف على النفوس أن لا تزكى ، وضع الصوفيون قواعد وأحكاماً ، ووجد مربون يعلمون الناس ، ويرشدونهم الى تزكية النفوس ، واخراج الأحقاد والأضغان والكبر من القلوب ، فيتقربون بذلك إلى علام الغيوب ..

أما القول عن الشريعة والحقيقة ، فقد عرفهما تعالى بقوله (هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن) .

فامتثال أمر الظاهر ، يوجب علينا اقامة الشريعة على الجوارح وامتثال أمر الشريعة يوجب علينا أوامر الشريعة على الباطن وهو القلب ، وتصفية القلب من الرذائل ، وتحليته بالفضائل هي (الطريقة) أما الحقيقة ، فهي ثمرة المجاهدة في الظاهر والباطن .

أما ألفاظ الصوفية التي يعترض عليها المعترضون ، كالفناء ، والمحبة ، والبقاء ، وغيرها ، فمعناها جميعاً صحيح ، فهم يقصدون بالفناء ، فناء الانسان ، عن هوى نفسه ، فمن فني عن هوى نفسه ، بقي بربه ، أي بقي مطيعاً لأوامر ربه .

والفناء لا يكون إلا بالمجاهدة ، وقد أمرنا النبي (ص) بها فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس والهوى..

أما قولهم : من لا شيخ له ، فشيخه الشيطان ، فمرجعه الحديث (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، فمن لم يسترشد بمرشد ، أكله ذئب المعاصي ، التي هي الطريق إلى النار) . انتهى . المقال هذا هو بتوقيع المحامي محمد سليم شراباتي من دمشق وهو أستاذ في العلوم » .

أما الأستاذ عبد الوارث كبير فمن هنا يبدأ تعليقه على المقال المنوه به قال :

« أستميح الأستاذ شراباتي عذراً في أنني اقتطعت من مقالـه بعض فقرات التعريف بالصوفية ورجالها ، فذلك ما لا يتسع له هـذا الباب ، ثم أحب أن أقول له : إن الذين يحملون عـلى الصوفيـة معذورون ، إلى حد كبير ، فهم لا ريب قد قرأوا كتب التصوف ، مثل (فصوص الحكم) و (مواقع النجوم) و (ترجمان الأشواق) وكلها لابن عربي ، الذي يسميه الصوفية : الشيخ الأكبر ، والكبريت الأحمر ، وقرأوا « الانسان الكامل (للجيلى) » العارف الرباني ، والمعـدن العمداني، كما يزعمون، و (ديوان الفارض) الملقب بسلطان العاشقين، و (الطبقات) للشعراني ، وغيرها ••

أفتعرف يا سيدي ما في باطن هذه الكتب ؟؟

يقول ابن عربي في الفصوص :

إن الله سبحانه ، يتجلى أعظم ما يتجلى في صورة المرأة ، وانه يرى ، أن الله يكون وقت اتصال الرجل بالمرأة في مظاهر ثلاثة فاعل ومنفعل ، ثم فاعل ومنفعل معاً في وقت واحد •

ثم يمضي الشيخ الأكبر ، والكبريت الأحمر ، في شرح نظريته بكلام يعف القلم ، أن يكتبه ، الى أن ينتهي من شرحه بقوله :

ولهذا أحب (ص) النساء لكمال شهود الحق فيهن ، إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً ••

ولا يكتفي الشيخ الأكبر ، بأن الله يتجلى في المرأة وحدهـا ، وانما يقول : يتجلى في الحجر ، والشجر ، والحيوان، حتى الكلاب••

يقول بهاء الدين البيطار في كتابه النفحات الأقدسية :

(وما الكلب والخنزير إلا إلهنـا
وما الله إلا راهب في كنيســة)

وأما ابن الفارض سلطان العاشقين ، فلا فرق عنده بين نفسه وبين ربه ، فهو الخالق والمخلوق ، إذا دعا ابن الفارض أجاب لأنهما اثنان في واحد ، أو واحد في اثنين لا أدري ...

وهو الآخر كابن عربي ، يتحدث عن الله سبحانه في قصيدته التائية وكأن ذاته الالهية لا تتجلى إلا في الأنوثة ..

وتظهر للعشـاق في كل مظهـر
من اللبس في أشكال حسن بديعة

ففي مرة (لبنى) وأخرى (بثينة)
وآونـة تدعى (بعـزة) عزت

ولسن سواها ، لا ولا كن غيرها
وما إن لها في حسنها من شريكة

ويقول الجيلي ، بعد أن صيَّر نفسه الحق :

لي الملـك في الداريـن لـم ار فيهمـا
سـواي ، فأرجـو فضلـه او فاخشـاه

وقـد حـزت انـواع الكمـال ، واننـي
جمـال جـلال الكـل ، ما انـا الا هـو

فارنـي ذاك الكـل والكـل شـهدي
انـا المتجـلي في حقيقتـه ، لا هـو

وانــي ربٌ للأنـــام ، وســـيدٌ

جميـع الورى اســمي ، وذاتي مسماه

ويتحدث الشعراني في الطبقات الكبرى عن أئمة الصوفية ، مثل الرحمانيين ، وهم ثلاثة ، يجلسون عند الدجى ، عرايا على حجر مليح، ويسمعون الوحي ، ويفهمون المراد •

وعن الشيخ ابراهيم العريان فيقول :

كان يصعد المنبر عرياناً ، ويخطب الناس ، فيقول :

السلطان ، ودمياط ، باب اللوق ، وبين الصورين ، وجامع ابن طولون والحمد لله رب العالمين ، فيحصل للناس بسط عظيم ••

وليس الذي ذكرت إلا قطرة مـن بحر ، مما تفيض بـه كتب الصوفية ، من أشياء غير معقولة ، فأن سألتهم عنها ، قالوا : كنايـات باطنية ، لا يفهم معناها إلا الراسخون في العلم ، والواصلون الـى الذات العقلية ••

أفلا يكون المخالفون من المسلمين معذورين، إذا ما تشكك منهم متشكك في أهداف الصوفية ، وعقيدتها ••

ثم أليس أجدى بمتصوفة هذا العصر ، ومنهم علماء أجلاء أن يبرؤوا من هذه الكتب ، ومؤلفيها ، أو على الأقل أن يقرروا أنهـا مدسوسة على شيوخهم الكبار ، بما دُس على تفسير القرآن مـن الاسرائيليات ، وأن يعودوا الى كتاب الله وسنة رسوله بغير كناية ولا تأويل ، ألا ليتهم يعقلون •• » انتهى •

فيما مر رأينا دفاعاً ، ورأينا هجوماً ، وإذا شئنا أن نستقرىء الحاصل من هذا الدفاع ، نخرج منه بنتائج غير مجزيـة ، فالمحامي

السيد شراباتي يترائى له أن التصوف علم ، له قواعده وأصولياته كغيره من العلوم ، وضرب مثلاً على ذلك ، علم اللغة ، وكيف كانت قبل الاسلام لغة السليقة ، وكيف صارت مع الاسلام لغة القواعد ، بما أملاه علي بن أبي طالب ، على أبي الأسود الدؤلي ، ولكن هـذا الزعم الذي ذهب إليه السيد شراباتي ، بقي مجرداً ، لا يحتمل الأخذ به ، فلا نجد للتصوف قواعد وأصولاً ، كبقية العلوم ، وانما هـو نزوع شخصي في المتصوف ، وقد مر معنا هذا القول ، في مناقشة قول زكريا الأنصاري •

بقي أن نناقش قول السيد شراباتي : إن التصوف كان في عهد الرسول والصحابة بطريق السليقة[1] ، كما كانت اللغة ، فهذا قول عز عليه أن يجد دليله واضحـاً ، أو افتراضه مقنعـاً لأن الرسول والصحابة ، كانوا يعملون للحياة ، كمن يعيش أبداً ، وكانوا يعملون للآخرة ، كمن يموت غداً ، وهذا هو شعارهم الذي أطلقوه ، وعلموه للنـاس •

أما الصوفيون ، فقد فرغوا قلوبهم ، من كل شيء تقتضيه الحياة وتشغله ، وزهدوا ، وهاموا ، وتلذذوا بالألم ، ألم الجوع والعري ، والفقر ، والذل ، وذهبوا مع لغة الشطح المخالفة للقواعد العلمية ، والخالية من آداب الشريعة ، كالرجل الذي سمعه النوري يؤذن ، فقال له : (طعنه وسم الموت) ، وسمع كلباً ينبح ، فقال له : (لبيك وسعديك) ، فهل يستطيع السيد شراباتي أن يقول : إن مثل هـذا كان يجري في عهد الرسول ، والصحابة والتابعين ؟!

---

(1) من كتاب الوسائل : عن النبي (ص) عن عثمان بن مظعون ، قال : قلت الرسول (الله ص) ، ان نفسي تحدثني بالسياحة ، وان الحق الجبال ، فقال : يا عثمان لا تفعل ، فان سياحة أمتي في الغزو والجهاد) فأين التصوف في هذا الجواب !!

هذا ما أردنا مناقشة السيد شرباتي به ،

بقي علينا أن نعرّج على هجوم السيد عبد الوارث كبير ..

إن عبد الوارث كبير ، لم يكن مخطئاً في تصديه للانحرافات في المتصوفين ، لأن هؤلاء القوم ، ما زالوا يتخبطون حتى انزلقوا ، أما التصوف كطريقة ، لها تأويلاتها وتفسيراتها العقلية والذهنية فقد بقيت له حسناته ، كدعوة مخلصة الى ترك الغرور في هذه الحياة ، التي هي متاعه ، فاذا كنا نوافقه على رفض الكثير من جموح آراء المتصوفين ، فلا يعني أن ليس فيهم من يؤخذ بآدابه .

ونحن نلاحظ ، أن المتصوفين ، فيهم المعتدل ، وفيهم المتطرف .

فهذا أبو الحسن ، سري بن المغلس السقطي ، خال الجنيد وأستاذه ، وتلميذ معروف الكرخي ، كان يقول : التصوف اسم لثلاثة معان ، وهو الذي لا يطفىء نور معرفته ، نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله ..

ويقيني ، لو أخذ الصوفيون ، بهذه المبادىء الثلاثة ، لما وجد الطاعنون اليهم سبيلا ، ولكن المتأخرين منهم أخذوا بهذا الاغراب في الشطح ، وذهبوا في معارفهم المذاهب المغايرة ، فكانت سبباً في بلبلة الأفكار ، ومبررا لهجمات الخصوم .

ولو لا هذا الاغراب في الشطح ، وهذا الذهاب المفرط في التاويل ، لما كنا سمعنا مثل هذه الدعوة (احرقوا هذه الكتب ، وانقذوا سمعة الدين) .

★ ★ ★

في مجلة «عالم الفكر» الكويتية..

موقف آخر من التصوّف

موقف آخر من التصوّف

في مجلة «عالم الفكر» الكويتية..

من الملاحظ أن معظم حركات التجديد الاسلامي في العصر الحديث قد اتخذت موقفاً مناهضاً للتصوف ، وعدته مسئولاً عما ران على عقول المسلمين ، من غيبيات ، أدت إلى تخلفهم عن مسايرة ركب الحضارة ولا يرجى لهم نهوض إلا بالتخلص من التصوف •

ولا تقتصر ادانة التصوف على أصحاب النزعة السلفية ، وانما شملت مجددين ، يمكن اعتبار أكثرهم ، منتسبين ، إلى مذاهب ، كانت ، وما زالت ، لا تتهم التصوف ، ان لم تكن متعاطفة معه ، كالمذهب الأشعري ، مذهب الخلف من أهل السنة ، الذي يدين به جمهور كبير من المسلمين ••

من هؤلاء المجددين :

جمال الدين الأفغاني المتوفى سنة ١٣١٤ هجرية = ١٨٩٧ م

في المجلد السادس ـ العدد الثاني ـ يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٥ ، من مجلة عالم الفكر ، التي تصدر عن وزارة الاعلام في الكويت نشر مقال ، بقلم الدكتور ، احمد محمود صبحي ، أستاذ الفلسفة الآسلامية المساعد بكلية الآداب ، بجامعة الاسكندرية موضوعه ، (التصوف ، ايجابياته ، وسلبياته) جاء فيه ما هو مثبت أعلاه •

فقد اعتبر التصوف مسؤولاً عن روح التواكل بين المسلمين ، واعتقادهم الجبر ، باسم القضاء والقدر ، انهم يتخذون الايمان بالقضاء والقدر سبيلاً إلى القعود عن طلب الرزق ، مع أن الايمان بالقدرة الالهية ليس حائلاً دون حرية ارادة الانسان ، إن الايمان بالقضاء هو الذي مكن المسلمين الأوائل من الفتوحات، إن هؤلاء الذين لا يفهمون من التواكل إلا معنى التواكل ، يستحب إزالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم ، لأن آراءهم ليست على وفاق مع الدين ..

هكذا اقترنت حركة جمال الدين الأفغاني التجديدية بالحملة على التصوف ، بصرف النظر ، عن كون حياته الشخصية تنطوي على صفتين على الأقل من صفات الصوفية :

١ ـ الزهد ، إلى حد ، أن لا يمتلك الواحد من جلباب إلا ما يرتديه .

٢ ـ السياحة إلى حد ، أن أصبح شريداً لا وطن له ، اذ لا يكاد يستقر في بلد ، حتى ينفى إلى غيره .

وذكر صاحب المقال إلى جانب الأفغاني كلا من الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م . وذكر عنه أنه بعد أن كاد يهجر العلم في سن مبكرة ليشتغل مع أبيه في الزراعة ، فإنه قد تأثر بجمال الدين الأفغاني واتخذ من التصوف موقفاً ألب عليه مشايخ الطرق الصوفية في مصر ..

وذكر أيضاً من المجددين الشاعر الفيلسوف محمد اقبال المتوفى سنة ١٩٣٨ م وذكر عنه أنه قد نشأ من أسرة متصوفة ، وظل طوال حياته متأثراً معجباً بشاعر الفرس الصوفي ، جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ولكنه مع ذلك لم يجد للتجديد سبيلاً إلا بالتخلص من التصوف ، فقد أنكر على التصوف أموراً ثلاثة :

١ ــ الرهبانية : وهي دعوة مسيحية ، استنكرها الاسلام ، لأنها تبعد المرء عن العمل ..

٢ ــ شطحات الصوفية : إن حالة السكر التي يقول بها الصوفية عندما يتجلى الله على أحد من عباده ، تتعارض مع روح الاسلام الذي يطلب الصحو لا السكر ، فالاسلام يريد أمة صاحية مجاهدة ، تخرّج كما خرجت جيلاً من الصحابة ، من أمثال أبي بكر وعمر وليس من الاسلام تفضيل العشق الالهي على الجهاد ، إذ نسبب إلى بعض الصوفية القول : يسلك المجاهد كل سبيل من أجل الشهادة، ولا يدري أن شهيد العشق أفضل منه ، كيف يستوى هذا وذاك يوم القيامة ، هذا قتيل العدو ، وذاك قتيل الحبيب ؟! وتعليق اقبال على ذلك : إن هذا القول جميل في الشعر ولكنه في الواقع خداع للأبطال ، مثبط للجهاد ، وانها لأفكار تشيع الذلة والخنوع ، واعتبر اقبال هذا التصوف غريباً عن روح الاسلام وتعاليمه ..

وذكر صاحب المقال من المجددين أيضاً ، عبد الحميد بن باديس المتوفى سنة ١٩٤٠ م في الجزائر ، أن عبد الحميد اتهم مشايخ الطرق الصوفية بالتواطؤ مع المستعمرين عن قصد ، أو عن غفله . واعتبر الشعب الجزائري مصاباً بالاستعمار الفرنسي كعدو دخيل ، وبالطرق الصوفية كمرض عقيم ..

ورأى صاحب المقال أن ما قاله هؤلاء المجددون أو المعارضون عن الصوفية يمكن أن ينسب إلى التصوف في طوره المتأخر ، ورأى : أنه يمكن أن يدفع عن التصوف دعوى مسؤوليته عن تأخر المسلمين بأنه كان قائماً إبان ازدهار الحضارة الاسلامية منذ القرن الثاني وما بعده ، ثم تخلص إلى القول : أن كثيراً من موضوعات التصوف ، انما يحكمها ذلك الاستقطاب القائم بين مناصرين ومعارضين . وانتهى

إلى القول : انه لا يوجد علم يشغل البحث في اشتقاق اسمه ومعناه بمثل ما يشغله التصوف •

هل يرد اللفظ إلى الصفاء ؟! أو إلى الصف ؟! أو إلى الصفة ؟! أو إلى شخص في الجاهلية ، اسمه (صوفة) ؟ أو إلى نبتة في الصحراء اسمها (صوفانة) ؟ أو إلى (الصوف) ؟ أو إلى اللفظ اليوناني (سوفيا) الذي يعني الحكمة •••

إن هذا التردد في التركيز على صحة اشتقاق هذا الاسم وصحة نسبته جعل الباحثين ينقسمون إلى فريقين • أحدهما يريده اسلامياً، فيرد هذا اللظ إلى الصفاء ، أو الى الوقوف في الصف الأول بين يدي الله ، أو إلى أهل الصفة من فقراء المهاجرين ، الذين اتخذوا صفة مسجد رسول الله لهم مقاماً أو الى الصوف لباس الزاهدين والمتقشفين •

وثانيهما الذي يريده غريباً عن الاسلام ، دخيلاً عليه ، يردون اللفظ إلى (سوفيا) اليونانية أو (جيمنو) زي الرهبان ••

ويلاحظ أنه مثل ما اختلف على اشتقاق الاسم ، اختلف على أول من لقب صوفياً ، فمن المؤرخين من قال :

إن أول من لقب بالصوفي ، أبو هاشم الكوفي الشيعي[1] ، أو جابر بن حيان ، أو عبدك الصوفي ••

وتنازعت الشيعة والسنة في هذا الموضوع •

---

(١) ابو هاشم الكوفي هو ابو هاشم عثمان بن شريك المتوفي سنة ١٥٠ هجرية ، وهو برواية صاحب البيان والتبيين من النساك الذين كانوا يجيدون الكلام .

فالمصادر الشيعية تصل التصوف بالتشيع اعتزازاً .

والمصادر السنية المعادية للتصوف تصله بالتشيع أو احدى الفرق الباطنية استهجاناً ، وأن تجعل منبته الكوفة التي منها نشأت في رأي خصوم الشيعة ، الأهواء والبدع لكثرة ما كان فيها من ملل ونحل ..

ويرى أحمد بن حنبل : أن في كلام الصوفية عن التقشف وشدة السلوك ما لم يرد به شرع ، ومن التدقيق في محاسبة النفس ما لم يأت به أمر" ..

وما منع أحمد بن حنبل اعجابه برجال الصوفية ، وبحقائقهم من أن ينصح صاحبه اسماعيل بن اسحاق السراج أن لا يصحبهم .

ونلاحظ أن معارضي التصوف قسمان :

قسم" يتهمه بالخروج على الشريعة وهم المتقدمون كالقشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية فهو يقول :

مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع ، وطوي بساطه ، واشتد الطمع ، وقوي رباطه ، وارتحلت من القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام واستخفوا بإداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ، وركبوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان .

ويضيف القشيري قائـلاً :

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى

أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وانهم قائسون بالحق ، تجري عليهم أحكامه وهم محو" وليس معه عليهم ، فيما يؤثرونه ، أو يقررونه عتب ، ولا لوم ، وانهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار العمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم ، فيما تصرفوا أو صرفوا •• وإذا كان القشيري قد توفي سنة ٤٦٥ هجرية ، فإن الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هجرية ، أي قبل القشيري بـ /١٦٨/ عاماً قال أحد جلسائه : إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى •• فيرد الجنيد : إن هذا قول قوم يقولون باسقاط الأعمال ، وهذه عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً ممن يقول هذا ••

ويلاحظ أن ابن تيمية لم يستطع تخليص التصوف من ادعيائه ولا عزل هؤلاء عن الصوفية الخالصين بين المخلصين لطريقتهم بتقسيمه إياهم إلى طرائق ثلاثة :

١ ـ صوفية الحقائق : وهم المتبعون للشريعة المقتفون خطى الأوائل •

٢ ـ صوفية الأرزاق ، وهم الذين وقفت لهم الأوقاف والتكايا •

٣ ـ صوفية الرسم ، المقتصرون على النسبة همهم لبس الخرقة ••

كما أن اختلاف كبار الصوفية على الحلاج يحبط هذه الخطة •

يستفاد من ذلك أن أبحاث التصوف ليست شيئاً عارضاً ، وهي شيء كامن فيه ••

وتنازع نشأة التصوف باحثان : باحث رد التصوف إلى صميم الاسلام من الكتاب والسنة ، وسيرة الصحابة ، وآخر عده دخيلاً غريباً عن الاسلام ، لأنه لم يكن في الصدر الأول من تاريخ الاسلام •

ويدافع صاحب المقال عن الرأي الثاني فيقول : إن تأخر ظهور التصوف لا يعني بالضرورة أنه بدعة مستحدثة وانه من شر الأمور ، وانه يكفي التصوف أن يكون من نتاج فكر مسلمين !! وهي حجة من صاحب المقال ليست قاطعة ، لأن ليس كل ما هو من نتاج فكر مسلمين هو من صميم العقيدة الاسلامية .

ويرى صاحب المقال خرقاً بين ما هو من صميم الاسلام كعقيدة وبين ما هو من نتاج فكر مسلمين ، ويرى أن انبثاق التصوف في ظروف حضارية منذ القرن الثاني الهجري كان أمراً حتمياً ، نتيجة هذه الظروف التي يمكن حصرها فيما يأتي :

١ ـ التصوف ، رد فعل ، لتيار الحياة المادية الذي غلب على كثير من المسلمين منذ قيام الدولة الأموية .

٢ ـ التصوف ، استكمال لقصور علماء الرسوم في الفقه وفي التفسير .

٣ ـ التصوف ، رد فعل لتصور المتكلمين للعقيدة ..

وفي مجال التعبير المصطلحي يورد صاحب المقال الآيات التي وجد فيها الصوفيون ، منطقاً خصباً للتعبير عن معانيهم الباطنية في غير تكلف :

١ ـ آيـة النور :

آ ـ الآيات التي يرد فيها ذكر مصطلحات القوم ، أو مقاماتهم وأحوالهم ، كالصبر ، والرضى ، والقبض ، والبسط ، أو آية المعراج الروحي للرسول في سورة النجم ، أو درجات النفس : كالنفس اللوامة والنفس المطمئنة ..

الآيات التي فيها اشارات دقيقة :

(ومن يتولى الله ، ورسوله ، والذين آمنوا ، فـإن حزب الله هم الغالبون) .

المائدة /٦٥/

(وهو يتولى الصالحين) الأعراف /١٩٦/

(فرق" بين ولايتين .. عبد يتولى الله ، وعبد يتولاه الله ،

الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب)

الشورى /١٣/

الناس قسمان :

قوم" وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله ، وهؤلاء قد اجتباهـم وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله ، وهؤلاء قد هداهم ..

(التنوير لابن عطاء الله السكندري)

(إني جاعل" في الأرض خليفة) البقرة /٣٠/

(لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين)

التين /٤ ــ ٥ /

لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم (روحاً وعقلاً) ثم رددناه أسفل سافلين (نفساً وهوى) ..

إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (بقرة كل انسان نفسه ، والله أمرك بذبحها) ..

وما تلك بيمينك يا موسى .. الخ .

العصا : هي الدنيا ، والغنم أعضاء الانسان ، وألقائها الكشف عن حقيقتها ..

قالوا : سمعنا فتىً يذكرهم ، يقال له : ابراهيم .

الأنبياء /٦٠/

سمي إبراهيم فتى ، لأنه كسر الأصنام ، وكل انسان له أصنام معنوية فإن كسرها كان فتى ، وهي : النفس ، والهوى ، والشهوة ، والدنيا ..

فاخلع نعليك ، إنك بالوادي المقدس طوى .

هذه الآية وجد لها وجوهٌ كثيرة مباينة للتأويلات الصوفية ، استقوها من تعبير خلع النعلين ، الوادي المقدس . وهي ، يقول السهروردي :

التجرد من أغراض الأحوال ، هو من خلع نعلي النفس والقلب .

وعند الغزالي: خلع النعلين، اطّراح الكونين،أي تجرد موسى لله غير طالب حظاً من الدارين ، دنيا وآخرة ..

وعند ابن عربي : فلكي يعقل ما يُوحى إليه ، فيما حظي به من التجلي الالهي ، عليه أن يتخلى عن ثلاثة موانع ، إذ ، لمّا كان النعلان من جلد حمار ميت ، فقد وجب أن يتخلى عن الظاهر ، وهو المراد بالجلد ، وعن البلادة المقصود من الحمار ، وعن الجهل ، الذي هو الموت ، لأن العلم انما يكون للكائن الحي ..

وأصحاب الفيل :

أبرهة ، هو النفس الجبشية المظلمة ، التي قصدت إلى تخريب كعبة القلب الذي هو بيت الله على الحقيقة (ما وسعتني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن) حديث قدسي ..

آيات التأويل :

سبحان الله وتعالى عما يشركون / القصص ٦٨ /

من ادعى الاختيار مع الله فهو مشرك ، مدعٍ للربوبية بلسان حاله ، وان تبرأ من ذلك بما قاله ..

وآتوا البيوت من أبوابها / البقرة ١٨٩ /

باب التدبير من الله ، هو اسقاط التدبير منك لنفسك ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة / التوبة ١١١) لا ينبغي لعبد بعد المبايعة ، تدبير" ولا منازعة ، لأن ما بعته وجب عليك تسليمه ، وعدم المنازعة فيه ، فالتدبير نقض" لعهد البيعة .

(ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين) / الأعراف ٢٠ /

أتى ابليس" آدم من تفكيره في التدبير لنفسه ، أن يكون إلى جوار الحبيب ..

وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون (الذاريات ٥٦)

العبودية ، هي ترك الاختيار ، وعدم منازعة الأقدار .

ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم / محمد ٩ /

قال ابن عطاء الله : إن خصلة واحدة ، تحبط الأعمال ، وهي تحط العبد على قضاء الله ..

أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير" ، اهبطوا مصر ، فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة (البقرة ٦١)

أتستبدلون مرادكم لأنفسكم ، بمراد الله لكم ، اهبطوا مصر ، فإن ما اشتهيتموه ، لا يكون إلا في الأمصار ، اهبطوا من سماء التفويض وحسن التدبير منا لكم ، إلى أرض التدبير والاختيار منكم لأنفسكم موصوفين بالذلة والمسكنة ، لاختياركم مع الله ، وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله ..

الفناء بالله :

ثم إليه ترجعون (البقرة /٢٨/) إنا لله وإنا إليه راجعون (البقرة /١٥٦/) وإليه ترجعون (يونس ٥٦) (هود ٣٤) وإليه تقلبون (العنكبوت ٢١) وإن إلى ربك المنتهى (النجم ٢١) .

وحدة الوجود عند ابن عربي :

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّارا (نوح ٢)

ليس ذلك دعاء" عليهم بالهلاك ، وانما دعوة من نوح لقومه ، يحررهم الله من قيود الوثنية التي تحصر الحق في مجال واحد مادي محدود ، فدعا عليهم بالفناء الصوفي ، لا بالهلاك والدمار ..

ولله المشرق والمغرب ، فأينما توليتم ، فثم وجه الله (البقرة ١١) الدلالة على وحدة الأديان ، فليس على الانسان أن يتقيد بعقد معين ويكفر بما سواه ..

عند الخلائق في الإله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ثم يشير صاحب المقال إلى تفسيرات متأثرة بأصول أجنبية :

المستشرق جولد نسيهر :

يرد التفسير الرمزي الصوفي للقرآن إلى التأثر بما قام به كل من (فيلون) و (أوريجين) بالنسبة للكتاب المقدس ، وقصص العهد

القديم ، على الخصوص ، ولا نوافقه على ذلك ، ربما كانت الدواعي متماثلة ..

وهناك تأويلات لا يمكن انكـار أثر الأفكـار ذات الأصول الأجنبية ، منها الأثر الأفلاطوني، وقد تلقاه كثير" من المتصوفة، ومنهم الغزالي وابن عربي .

حصر أفلاطون الرباعي للفضائل الأصلية ، العفة والشجاعـة والحكمة والعدالة ، والتي ارتبطت بقوى النفس الثلاث ، الشهوانية، والغضبية والعاقلة ..

شاعت هذه الأفكار في كتب الأخلاق الاسلامية ، كما لو كانت جزءاً من العقيدة الاسلامية ، وقد حملها ابن عربي على خصال المؤمنين المتقين من سورة البقرة (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخـر والملائكة والنبيين ، وآتى المال على حبه ، ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة) إنها العفة كمال القوة الشهوانية ، والموفون بعهد الله إذا عاهدوا ، إنها العدالة عن توازن القوى الثلاث ، وسعادة الحكمة، كمال القوى الناطقة ، والصابرين في السراء والضراء وحين البأس ، وهي الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية ..

أسرار الأعداد والحروف لعبت دورا في بعض التفسيرات الصوفية. وأشارات الصوفية وتفسيراتهم تقوم على قاعدتين :

الأولى : ان وراء الألفاظ الظاهرة ، يحتجب المعنى الباطني ..

الثانية : إنها لا تحل محل التفسير المأثور ، ولا تتعارض معه ، فهي ليست احالة للظاهر عن ظاهره ، ذلك ما أكدوه ليفترقوا عـن الباطنية ولا بد أن يكون بين المعنى الظاهر والمحتوى الاشاري صلـة ومناسبة .

موازين هذا البحث
وإسقاطاته

مَوازين هذا البَحث وإسقاطاته

بعد هذه المقاطع الطويلة الملخصة من مقال الدكتور أحمد محمود صبحي ، والتي كانت أضواءً يحتاج إليها كل من يريـد المسير في ليالي الصوفية المظلمة ، ويتطلع إليهـا كل من يهمه معرفة غاياتهـا ومنطلقاتها ومراحل تطورهـا ، وشطوحات مشايخهـا ، واستلهام المتأولين فيها ، واستنباط حقائقها من المفهـوم القرآني ، واستظهار معانيها من الدلالات الشرعية .

بعد هذا كله ، وبعد اعجابنا بالبحث المنسق المرتب ، لا بد لنا من مناقشة أمور ، وقفنا عندها في محطات البحث واستراحاته ، منها:

١ ـ أسباب ظهور التصوف في أوائل القرن الثاني الهجري ، لم أرها عولجت عند هذا الكاتب ولا عند غيره ؛ ممن كتبوا عن الصوفية، المعالجة التي تترك أثرها المقنع عند الراغبين بمعرفتها ..

لقد اجمع المؤرخون ، على أن القرن الثاني الهجري ، هو الـذي ظهرت فيه هذه الحركة ، واتفق جميعهم على أن ابراهيم بن الأدهم توفي سنة ١٦١ هجرية وأنه هو الزاهد الأول الذي خلع أعباء الملك ، وسلم جواده وسلاح صيده لراعيه في البادية ، وانتزع منه جبة الصوف .

وقبل الاسترسال بسيرة هذا الرجل ، لا بد من الوقوف عند السبب الذي من أجله خلع الملك ورضي بالزهد ، وارتدى جبة الراعي الصوفية ؟!

هل كان الهاتف الذي ناداه في قلب الصحراء ، وهو يقوم بهوايته في الصيد : ما لأجل هذا خلقت يا ابراهيم ؟! هل كان هذا فعلاً سبب تخليه عن الملك ؟!

ولماذا فسر ابراهيم بن الأدهم ، هذا النداء ، بهذا التفسير الذي حمله فوراً على نمط تغيير حياته ؟!

لماذا لم يفسره تفسيراً آخر ، حيث يراد منه ترك الاهتمام بالرعية والاهتمام بالصيد ؟! يعني أنه ما خلق بهذه الصفة للاهتمام بالصيد ، وانما للاهتمام بأحوال الرعية ، هل كان ابراهيم ، وهو يمارس الصيد ، يفكر بأشياء أخرى ، وإذا كانت هذه الأشياء الأخرى، هي أن الملك عواقبه مزعجة فقد كان باستطاعته التخلي عنه ، والاعتكاف في بيته ، بدلاً من تشرده ، وهيامه في البادية ، معرضاً نفسه للأخطار التي هي أشد قسوة ، من أخطار الملك .

وليت هذا التشرد صان نفسه من المذلة والهوان ، فقد يروي مؤرخو سيرته ، أنه كان يعمل ، ويكد في سبيل تأمين لقمة العيش ، وانه اشتغل حارساً عند أحدهم لأحد البساتين وأنه عمل في الحقل ، وانه ، وانه ، مما يجعل سيرته هذه قابلة للتردد في قبول صحتها ، وصادرة عن معلومات صاحبها لا يجيد تصوير الوقائع عند قوم يعقلون ..

واني أستبعد في هذا المجال ، أن يكون أبو هاشم الصوفي أول من لقب صوفياً ، كصاحب طريقة كالتي نبحث بشأنها الآن ، خلافاً لرأي

المؤرخين الذين أشاروا الى ذلك ، أو أن يكون جابر بن حيان أو عبدك الصوفي، وهذان الأخيران قلما أشير إليهم بين مشاهر الصوفيين ..

ونلاحظ أن ابن الأدهم وأبو هاشم عثمان بن شريك ، هما ابنا فترة واحدة من الزمن ، فابن الأدهم يشير المؤرخون أنه توفي سنة ١٦١ هجرية وأبو هاشم توفي سنة ١٥٠ هجرية أي قبل ابن الأدهم بأحد عشر سنة فقط ، غير أن ابن الأدهم هو الذي لفت أنظار المؤرخين .

واعتماداً على ما تتصف به هذه الملاحظات من معقولية نستنير بضوئها ، فأنني أرجح ، أن ابن الأدهم ، هو الصوفي الأول بالنسبة إلى هذه الطريقة في التاريخ الاسلامي ، ولم تعرف كلمة (صوفي) قبله لسببين :

الأول : هو أنه ، إذا صح ، أن الزهد في الدنيا ، وهوان شأنها الذي نوه به القرآن ، هو أحد أسس التصوف ، فان ابراهيم ابن الأدهم ، هو المتزهد الأول ، الذي طبق على نفسه هذا المبدأ بتركه الملك ، واحتقاره له وتخليه عنه ..

الثاني : إنه هو الزاهد الأول الذي افتتح حياته المتزهده بلبس الصوف ـ وهي جبة الراعي في البادية ، الذي كان يرعى له غنمه أو غنم أبيه . فيكون على هذا الأساس ، هو الصوفي الأول ، الذي فضل الزهد واختار لباس الصوف ، وكل من جاء بعده كان متشبهاً به ، فلقب بالصوفي ، أي شبيهاً بابراهيم بن الأدهم ..

وإذا سلمنا بهذا فنكون قد فصلنا في البحث باشتقاقات كلمة صوفي وقياساتها ، لأنها من هنا تبدأ ، ونتغاضى عن كل الاستنتاجات والتقولات المتعلقة بها ..

إلا أن كلّ هذا لا يعفينا من البحث عن السبب الحقيقي الذي من أجله تزهدّ وتصوّف .

ثم لا بد لنا، ونحن نعتبر أن جيل ابن الأدهم بدايةانطلاقة جديدة في مفهوم جديد ، لانسان ذلك الجيل ، ولتغيير أسلوب الحياة ، من أن نشير ، إلى أن القرن الثاني الهجري ، كان فاصلاً بين عهدين :

العهد الأموي الذي انطوى مع بداية ذلك القرن •

والعهد العباسي ، الذي أطل مع بداية تلك البداية ••

ولماذا كان عهد الأمويين ، حقلا تجاربياً ، لأفكار أهل الكلام ، وامتنع به الجنوح إلى الصوفية ، وكان العهد العباسي مرتعاً خصباً له بالرغم من المعارضة الشديدة ، التي حصلت له ، من قبل رجال الدين •

ولا يسعنا إلا أن نتساءل ، ما هو موقف الخلفاء في ذلك الحين من أبناء هذه الطريقة ، إن هذا تكاد تصمت عنه المصادر التاريخية •

وأكثر ما يلفت الانتباه ، أنه لماذا كانت بغداد بالذات هي عاصمة شيوخ هذه الطريقة ، ومنها انطلقت ، وفيها ترعرعت ، وشبت ، وشاخت • فقد جمعت بغداد بهذه الصفة الفكر الفقهي ، والفكر السياسي •

ولماذا لم تتفجر هذه الطريقة في القاهرة ودمشق ، وغيرهما من عواصم العرب والمسلمين ••

ولماذا لم تكن معروفة في البلاد العربية قبل الاسلام ؟

كل هذا يوحي لنا أنه لا بد لنا من القول : ان الفتح الاسلامي في فارس ، هيأ كل الظروف المواتية ، لنشر هذه الأفكار ، وتعيين هذه الطريقة •

وإلا فأي معنى لوجود طريقة ، أغفلها عهد الرسول ، وعهد الصحابة والتابعين ، ولو كان بعضهم يعيدها إليه تعسفاً ••

هذه نقطة من النقاط ، التي لم تستوف حقها من البحث ، في مقال الدكتور صبحي •

النقطة الثانية : هي موقفه من الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي نعى على التصوف تأثيره بتأخر أحوال المسلمين ، وتلميحه بأن الشيخ ، كان متناقضاً مع نفسه ، فهو رغم موقفه الجافي من الصوفية، كان يعيشها ، فقد كان يعيش على جبة واحدة وكان مشرداً من بلد إلى بلد ••

إن الشيخ جمال الدين الأفغاني ، كان يعيش حياة الفقر ، لأنه كان منفياً ، لا لأنه كان صوفياً ، وحياة الفقر المفروضة لا تمنعه من استنكار شيء يفرضه الانسان على نفسه •

وإذا كان الأفغاني ، قد انتقد الصوفية في بعض منطلقاتها فلأنها كانت تهتم بغير شؤون الملة ، وكانت تعيش التواكل والانطواء والذل، وعلى رأي الأفغاني ، بهذا سقطت الأمة العربية تحت وطأة الدول المعادية الطامعة •

النقطة الثالثة : موقف صاحب المقال ، من خصوم الصوفية الذين عدوها دخيلة غريبة عن الاسلام ، لأنها لم تكن في الصدر الأول، من تاريخ الاسلام ، وانما في القرن الثاني وما بعده ، وهو برأيه لا يعتبر تأخر ظهور التصوف بدعة مستحدثة ، وان التصوف يظل نتاج فكر مسلمين •

هنا عند هذه العبارات ، نتفق قليلاً ، ونختلف كثيراً ، لأن تعريف البدعة ، هو ما لا أصل له •

وإذا كانت الصوفية ، لم تكن عند أساتذة المسلمين في عصر الاسلام الأول ، وانما استحدثت بعدهم بأكثر من مائة سنة ، فلماذا لم تتوجس من اطلاق كلمة بدعة عليها ••

وما دمنا نتوخى من خلال البحث ، تنوير الحقيقة ، واستجلاءها فماذا يمنعنا من التصريح ، بما هو معقول ومقبـول ، حتى يثبت بطلانه ..

أنا على مثل اليقين ، أن أنصار الصوفية ، ما لجأوا الى تعليـل آيات القرآن بما يصح أن يكون منطلقاً لها ، إلا لصرف كلمة (بدعة) عنها .

وإذا سلمنا بوجود ما يصح أن يكون منطلقاً لها في القرآن فهل كان الرسول والصحابة ، لا يعرفون ذلك ، ولهذا لم يشيروا إليه ويظل ما ذهب إليه الأستاذ شراباتي الدمشقي فيما أثبتناه في موضع من هذا الكتاب ، تعليلاً عليلاً ، من حيث هو فطرة وسليقة تحولت إلى عـلم وقواعـد .

هذا من جهة ما نختلف معه عليه ..

أما من جهة ما نتفق عليه معه ، هو ، ولو أنه جاء متأخراً ، فقد حصل على موافقة الكثيرين من رجالات الفكر الاسلامي ـ السني والشيعي ـ وان اختلاف هذين على تبنيه ـ أي السنة والشيعة ـ هو الذي خلق حول هذه الاشكالات ، فعندما جعلت الشيعة مصدره عن أئمتهم استنكره الفريق الآخر واستهجنه ، ولولا هذا ، لم يتصد له ابن الجوزي ولا القشيري ولا غيرهما ، ممن لا يرضيهم نسبته إلى غير أصحابهم .

وعندي : إن التصوف ، لـو بقي كما كان عليه أيـام الجنيد والسري ، والكرخي ـ شيوخه الأوائل ، الذين لم يذهبوا في معارفه خارج حدود السلوك والتهذيب ، والمعاني التي لا تحجبهـا الألفاظ المريبـة ، لبقيت له مدرسته وتعاليمه وحياتـه المفضلة ، ونتائجـه الايجابيـة ..

وكلمة الحلاج (استعجلني ربي) عندما مر به الجنيد وعاتبه على البوح بالأسرار ، دليل على أن الاغراق في كشف أسراره ، أدى إلى التنكر له ، وإلى اتخاذ القرار بإعدامه خوفاً من تأثيره على العقول التي لا ترتقي إلى معرفته .

ونضرب مثلاً على عدم مراعاة مستوى العقول التناقض والتعارض الحاصل بين ابن عربي وبين المكزون السنجاري وكلاهما متصوف ..

نظر ابن عربي إلى العقائد من حيث غايتها ، فرأى أنها في النتيجة تهدف إلى غاية واحدة ، هي : الايمان بالله ، وان اختلفت السبل والأساليب ، فقال :

(عند الخلائق في الإله عقائد" وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه)

هذه الشمولية المفرطة عند ابن عربي جعلت من المكزون السنجاري شاعراً لا ينساق مع الآخرين وانما الآخرون ينساقون معه ، وانه هو القدوة بدلاً من أن يكون هو المقتدي ، وبذلك حدد رأيه في هذا الموضوع فقال :

(فلا ارى في الكون شخصاً واحداً
يهوى هوى إلا وبي فيه اقتدا)

إن المكزون جعل من نفسه قدوة لغيره ، لأن عقيدته التوحيد وهواه الايمان بعقيدة التوحيد التي هي القول بوحدانية الاله لا بوحدة الوجود .

أما قول ابن عربي بالاعتقاد في جميع ما عند الخلائق من العقائد فهذا قول اطلاقه غير جائز ، وهو منكور عليه ، لأن عند الخلائق عقائد وثنية ، وعقائد مخالفته للتوحيد ، لا يجوز الاعتقاد بها وان كان يقول بوحدة الوجود وهنا يتبدى اختلال الموازين ، وظهور الاسقاطات .

ما هُوَ التصوّف ؟!

هَل هو عِلم كما يقولون ؟

ما هُوَ التصوّف ؟!

هَل هو عِلم كما يقولون ؟

كنا أشرنا فيما سبق ، إلى أن زكريا الأنصاري ، شارح رسالة القشيري، قال عن التصوف : هو علم" تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية .

والآن نستطلع رأي ابن خلدون بذلك ، وهو من علماء القرن الثامن الهجري .

ابن خلدون يقول في الفصل الحادي عشر من المقدمة :

هذا العلم ــ يعني التصوف ــ من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله : إن طريقة هؤلاء القوم ، لم تزل عند سلف الأمة ، وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذةٍ ومالٍ وجاهٍ ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف .

فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني ، وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

هذا هو رأي ابن خلدون ، فقد اعتبر التصوف علماً من العلـوم الشرعية الحادثة في الملة ، ووصفه بانه طريقة الحق والهداية عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن أبرز مظاهر هذه الطريقـة العكوف على العبادة ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهـد فيما يقبل عليه الجمهور من لـذة ومال وجاه والانفراد عن الخلـق في الخلوة للعبادة ، طبقاً لما كان عاماً في الصحابة والسلف ..

ويمضي ابن خلدون في هذا الرأي وكأنـه من المسلمات ، ولا يعتبر حدوث هذا العلم في الملة شيئاً منكراً ، وحتى يقطع الطريق على معارضي هذا الرأي اعتبره مستمداً مما كان عليه الصحابة والسلف.

ويعزو تحويل اسم هذا العلم الشرعي ، من علم شرعي ، كما سماه هو دون غيره في القرن الثاني وما بعده ، إلى صوفية ومتصوفة ، لما فشا بين الناس من الاقبال على الدنيا ، وجنوح الناس إلى مخالطتها وهو رأي أيضاً بقي في حدود تصوره الخاص .

إن رأي ابن خلدون في هذا الموضوع قابل للمناقشة ، لأنه لا يملك الحجة الكافية للدلالة على صحة نظريته ، لا سيما بتسميته التصوف علماً شرعياً حادثاً في الملـة ، لأن الاستحداث مرفوض في الشرع وإذا كان ابن خلـدون من علمـاء القرن الثامـن الهجري فالقشيري هو من علماء القرن الرابع الهجري وبالرغم من قرب عهده بحدوث هذا العلم لم يشر إلى ذلك . بل اكتفى بمناقشة من يقولون باشتقاق هذا الاسم من الأسماء العربية كالصفا والصفة ، لأن ذلك من وجهة نظره بعيد من جهة القياس اللغوي ، ولا يرتاح إلى نسبته للصوف ، لأن القوم لم يختصوا بلبسه .

والقشيري خلافاً لابن خلدون سماه مذهباً ولم يسمه علماً ، وهو يميل إلى نسبته إلى الصوف ، لأن الصوفيين في الغالب مختصون بلبسه ، عزوفاً عن فاخر الثياب .

إن تسمية التصوف مذهباً باعتباره يختص بالزهد والانفراد عن الخلق بالعبادة يكاد يكون مقنعاً أكثر من تسميته علماً، وتعليل القشيري بأن هؤلاء اختصوا بمأخذ مدركه ، عندما اختصوا بمذهب الزهد ، وذلك أن الانسان ، بما هو انسان ، إنما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك ، وادراكه نوعان :

١ ــ ادراك للعلوم والمعارف ، من اليقين والظن ، والشك والوهم .

٢ ــ وادراك للأحوال القائمة ، من الفرح والحزن ، والقبض والبسط والرضا والغضب ، والصبر والشكر .

وبعد الحديث عن أحوال التصوف زهداً وعبادة ، وتخلياً عن الدنيا نلاحظ أن البحث فيه أخذ شكلاً آخر ، هو المعرفة عند الصوفيين .

الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض ، ذكر في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح ، قال :

إن صدور الوجود عن الفاعل ، وترتيبه ، إن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية ، التي هي مظهر الأحدية ، وهما معاً صادران عن الذات الكريمة ، التي هي عين الوحدة لا غير ، ويسمون هذا الصدور بالتجلي ..

وأول مراتب التجليات عندهم ، تجلي الذات على نفسه ، وهو يتضمن الكمال ، بإفاضة الإيجاد والظهور ، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه (كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفوني) وهذا الكمال في الايجاد ، المتنزل في الوجود ، وتفصيل الحقائق ، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية ، والحقيقة

المحمدية ، وفيها حقائق الصفات ، واللوح والقلم ، وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية ، وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ..

ويصدر عن هذه الحقائق ، حقائق أخرى في الحضرة (الهبائية)، وهي مرتبة المثال ، ثم عنها العرش ، ثم الكرسي ، ثم الأفلاك ، ثم عنها العرش ، ثم الكرسي ، ثم الأفلاك ، ثم عالم العناصر ، ثم عالم التركيب ..

هذا في عالم الرتق ، فاذا تجلت ، فهي في عالم الفتق ، ويسمى هذا المذهب ، مذهب أهل التجلي ، والمظاهر والحضرات .

وهو كلام" ، لا يقتدر أهل النظر إلى تحصيل مقتضاه ، لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان ، وصاحب الدليل ، وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب .

وكذلك ذهب الآخرون منهم ، إلى القول بالوحدة المطلقة ، وهو قول أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه ، يزعمون فيه ، أن الوجود له قوى في تفاصيله ، بها كانت حقائق الموجودات ، وصدورها وموادها، والعناصر إنما فيها من القوى ، وكذلك مادتها ، لها في نفسها قوة ، بها كان وجودها .

ثم أن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب ، كالقوة المعدنية ، فيها قوى العناصر بهيولاها ، وزيادة القوة المعدنية ، ثم القوة الحيوانية ، تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها ، وكذا القوة الانسانية مع الحيوانية ، ثم الفلك يتضمن القوة الانسانية وزيادة ..

وكذا الذوات الروحانية ، والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل

هي القوة الآلهية ، وهي في الحقيقة ، واحدة بسيطة ، والاعتبار هو المفصل لها ، كالانسانية مع الحيوانية ، ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها ، فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود ، كما ذكرناه ، وتارة بالكل مع الجزء ، على طريقة المثال ، وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه ، وانما أوجبها عندهم الوهم والخيال ..

وشبه ابن دهقان هذا القول بالوحدة ، بما تقوله الحكماء في الألوان ، من أن وجودها مشروط بالضوء ، فاذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه ..

وكذلك عندهم الموجودات المحسوسة ، كلها مشروطة بوجود المدرك البشري جملة ، لم يكن هنالك تفصيل الوجود ، بل هو بسيط واحد .

فالحر والبرد والصلابة واللين ، بل الأرض والماء والنار والسماء ، والكواكب ، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها ، لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود ، وانما هو في المدارك فقط .

فإذا فقدت المدارك المفصلة ، فلا تفصيل ، إنما هو ادراك واحد وهو (أنا) لا غيره .

ويعتبرون ذلك بحال النائم ، فإنه إذا نام ، وفقد الحس الظاهر ، فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة إلا ما يفصله الخيال . المتأخرون من المتصوفة ، المتكلمون في الكشف ، وفيما وراء الحس توغلوا ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة .

مثل الهروي في كتاب المقامات ، وابن عربي ، وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف ، وابن الفارض ، والنجم الاسرائيلي .

وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول والهبة الاسمية ، مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر .. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول (بالقطب) ومعناه (رأس العارفين) يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة ، حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخرين من أهل المعرفة ..

هذا الذي فصله الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض قد استلهمه واستوحاه من منطق قصيدة ابن الفارض (نظم السلوك) وهو يتعلق بفلسفة الوجوب والامكان ومعرفة كيفية الخلق والتجلي وربط كل الحادثات بالمحدث الأول لا من جهة الفيض وانما من جهة توزيع الكل بالأجزاء ، فلا الأجزاء غير الكل ولا الكل غير الأجزاء .

فإذا كان هذا علم" في رأي ابن خلدون فهو لا يسري على الصوفيين جملة وهو يتنافى مع ما كان عليه أوائل الصوفيين من زهد وانفراد وعبادة وفقر ..

ويرفض ابن سينا في اشاراته ان يكون جناب الحق شرعة لكل وارد او يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد ..

وقيل في هذا الكلام : أنه هو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به كما قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد (القطب) كما قال الشيعة في النقباء حتى أنهم لما اسندوا لباس فرقة التصوف ليجعلوه أمثلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه . وهو من هذا المعنى ، وإلا فعلي لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال . بل كان أبو بكر وعمر أزهد الناس بعد رسول الله، وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد" منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص ، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة.

يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطيمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو اثبات ، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق .

هذا القول الذي استعرضناه ليس علماً ، بل هو تفنيد لمزاعم يقول بها آخرون ، سواء منهم من أسندها إلى الصحابة والتابعين أو من أسندها إلى علي وأبنائه .

وأما القول بأن كلام هؤلاء المتصوفة مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة ومذاهبهم في كتبهم . فهذا ليس من عيوبه إذا صادف معقولاً ، غير أن هذا الكلام لم تختص به كتب الشيعة وحدها ولا متصوفو الشيعة وحدهم ، وان التوافق في القول ليس دليلاً على الأخذ أو التأثر .

ومثل ما يتصدى المهاجمون من الفقهاء وأهل الفتيا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها . ينبري آخرون للدفاع عنهم ، فقالوا :

والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل ، فإن كلامهم في أربعة مواضيع ..

١ ــ أحدها الكلام على المجاهدات ، وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال ، لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره ..

٢ ــ ثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية ، والعرش ، والكرسي ، والملائكة ، والوحي ، والتبوء والروح ، وحقائق كل موجود ، غائب ، أو شاهد ، وتركيب الأكوان في صدورها عن موجدها وتكونها .

٣ ـ ثالثها التصرفات في العوالم ، والأكوان بأنواع الكرامات ..

٤ ـ ورابعها ، ألفاظ" موهمة الظاهر ، صدرت من الكثير من أئمة القوم ، يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات ، تستشكل ظواهرها فمنكر" ، ومحسن" ، ومتأول" .

فأما الكلام في المجاهدات والمقامات معاً ، يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها ، فأمر" **لا مدفع فيه لأحـد ، وأذواقهم فيها صحيحـة ، والتحقق فيها عين** السعادة .

وأما الكلام في كرامات القوم ، وأخبارهم بالمغيبات ، وتصرفهم في الكائنات ، فأمر" صحيح غير منكرٍ ، وان مال بعض العلماء الى انكارها ، فليس ذلك من الحق .

وما احتج به ابو اسحاق الاسفراييني من أئمة الأشعرية عـلى انكارها لالتباسها بالمعجزة ، على وفق ما جاء به ، قالـوا : ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور ، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية ، فإن صفة نفسها التصديق ، فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها ، وهو محال" ...

هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات ، وانكارها نوع" من المكابرة ، وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك .

وأما الكلام في الكشف ، واعطاء حقائق العلويـات ، وترتيب صدور الكائنات ، فأكثر كلامهم، فيه نوع من التشابه، لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي له دلالة على مرادهم منه ، لأنها لم توضع للمتعارف وأكثرها مـن

المحسوسات .. فينبغي أن لا تتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة .

وأما الألفاظ الموهمة : التي يعبر عنها بالشطحات ويؤاخذهم عليها أهل الشرع ، فاعلم أن الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه ، وصاحب الغيبة غير مخاطب ، والمجبور معذور ، فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا ، وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها ، كما وقع لأبي يزيد وأمثاله ..

ومن لم يعلم فضله ، ولا اشتهر ، فمؤاخذ" بما صدر عنه من ذلك إذ لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه ، وأما من تكلم بمثاها وهو حاضر في حسه ، ولم يملكه الحال ، فمؤاخذ" أيضاً .

ولهذا أفتى الفقهاء ، وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج ، لأنه تكلم في حضور ، وهو مالك" لحاله ، والله أعلم ..

وسلف المتصوفة ، من أهل الرسالة ، أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل ، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ، ولا هذا النوع من الادراك ، إنما همهم الاتباع ، والاقتداء ما استطاعوا ، ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ، ولم يحفل به ، بل يفرون منه ، ويرون أنه من العوائق والمحن، وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث ، وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان ، وعلم الله أوسع ، وخلقه أكبر ، وشريعته بالهداية أملك ، فلا يتعلقون بشيء مما يدركون ، بل حظروا الخوض في ذلك ، ومنعوا من تكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده ، بل يلتزمون طريقتهم، كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ، ويأمرون

أصحابهم بالتزامها ، وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب ..

مررنا بهذه التخريجات للنقاط الأربع التي كانت مظهراً من مظاهر الشذوذ عند المريدين ، وحاولنا أن نتلمس منها تخريجاً موفقاً ، ولكن النتيجة كانت غير مجزية ، فهي في هذا الدفاع كمن يوجد عذراً لغير معذور ، ولا أجد أن الغيـاب عن الحس ، وعـدم الحضور يقضي بقبول ما يصدر عنه ، هذا بالنسبة الى الشاطحين أصحـاب الألفاظ الموهمة . وأما القول في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات فقد كفانا أبو اسحاق الاسفراييني مؤونة التعليق عليها ، فإن دعواها مردوده لأكثر من الأسباب التي ذكرها الاسفراييني .

أما الكلام على المجاهدات وما يحصل في الأذواق ، والكلام في الكشف والحقيقة المدركة فهي من قبيل التصورات التي يمليها الخيال أكثر مما هي قواعد لحقيقة ثابتة .

وكل ما هو وارد في هذا الموضوع يمليه الموقف المتعاطف مـع القوم ومهما بلغ التمحل في التخريج لربط هذه الأمور بأسباب علمية أو لجعلها توسعاً في الأحوال التي كان عليهـا السلف ، فلن يجـد المعارضون لها ما يغير رأيهم فيها ، أو يخفف من شراسة تصديهم لها .

ولا أغرب من هذا قول ابن خلدون : وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً ، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، وكانت أحكامها انما تتلقى من صدور الرجال ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأحوال وغير ذلك .

هذا القول من ابن خلدون يبقى مجـرد نظرية محمولة عـلى القياس لا تسعف مدافعاً ولا تدفع مهاجماً .. وفي الجولة القصيرة التالية مع ابن خلدون سنثبت ذلك :

وأبو حيان التوحيدي في رسائله يعتبر التصوف اسماً يجمع أنواعاً من الاشارة ، وضروباً من العبارة ، كما أنه يعتبره بالوقت نفسه علماً ولكنه يدور بين اشارات إلهية وعبارات وهمية (يعني شطح) .

إن أبا حيان عندما قرره علماً لم يقل أنه من العلوم الشرعية كما قال ابن خلدون أو ثمرة العلوم الشرعية كما قال غيره ، وانما حصر هذا العلم بين اشارات الهية وعبارات وهمية ، ومن يتأمل هذا التعبير يخرج منه بما يشبه الطعن خاصة بعبارة (عبارات وهمية) :

أما أبو حامد الغزالي في كتاب احياء علوم الدين ، فقد أشار إلى التصوف بأنه أمر" وأغفل كلمة علم حيث أجاب سائله بقوله : التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته ، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في اطلاق اسم الصوفي والضابط الكلي ، إن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل" بغمارهم والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات ، الصلاح والفقر وزي الصوفية، وأن لا يكون مشتغلاً بحرفة ، وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة في الخانقاه .

* * *

جولة قصيرة مع ابن خلدون

جولة قصيرة مع ابن خلدون

يأبى ابن خلدون علامة القرن الثامن الهجري إلا أن يجعل من التصوف (علماً) كما جعل من التاريخ (فناً) .

ويزعم أنه في بدايته كان طريقة تعبدية تتلقى من صدور الرجال، ويضرب على ذلك مثلاً : الأمور الفقهية ، التي أصبحت فيما بعد ، علماً ، كالتفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول ..

وقد ذهب إلى هذا التشبيه ليكون رأيه في علمية التصوف أمراً محتملاً .

ولكن ، لو ذهبنا الى معرفة الأمور التي جعلت من التفسير والحديث ، والفقة ، والأصول ، علوماً مستقلة ، لرأينا أن الأمر مختلف جداً ، فالتفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول ، أسس تقتضيها الأمور الشرعية المؤسسة على فهم مضمون الشريعة ، وحسماً للجدل الذي يثيره المفسرون والفقهاء ورواة الحديث .

أما العبادات فقد بقيت في معزل عن كل هذه الأشكالات باعتبارها محدودة في أركان ، ومرتبطة بممارسات متوارثة ليس فيها اجتهاد .

فأي حاجة لجعلها طريقة تتلقى من صدور الرجال في عصرنا وتحويلها إلى (علم) مستقل في عصر آخر •

وإذا كانت الصوفية ، أو التصوف ، كما قال عنه الجنيد : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة •

أو كما قال عنه معروف الكرخي : الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق[1] •

أو كما قال الشبلي : الجلوس مع الله بلاهم • فلا يعني شرطية وضع قواعد من خلال هذه العبارات، تصلح لأن تكون منطلقاً لعلم معين استحدثوه فسموه علم التصوف •• وانما تعني العلاقة المميزة ، بين المعبود وبين عباده ، واتقان العمل لمن يريد أن يعمل ، لأجل الخلاص والنجاة ، وهي كما قال : علي (ع) (أن تعبد الله وكأنك تراه ، فإذا كنت لا تراه فهو يراك) •

ويلاحظ : أن الصوفيين بهذا العلم الذي استحدثوه ، عقدوا العبادات ، حتى أصبحت أمراً لا يطيقه الرجال ، خلافاً للتبسط الذي جاء الشرع به •

ومن أين لجمهرة المسلمين العمل بالمقامات الصوفية وأحوالها وتطبيق معاني الألفاظ التي تدور بين طائفة الصوفية ، وبيان ما يشكل منها :

---

(١) يؤيد هذا قول المكزون :

متى ادعيت وصولاً بالغرام ولي
فيه اختيار فاني عنه منقطع
وهل ينال مقام الواصلين به
حب ، ولم يفن منه اليأس والطمع

كالوقت ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والهيبة ، والأنس ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، والجمع ، والفرق ، والفناء والبقاء ، والغيبة ، والحضور ، والصحو ، والسكر ، والذوق ، والشرب ، والمحو ، والاثبات ، والستر ، والتجلي ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة ، واللوائح ، والطوالع ، واللوامع ، والبواده ، والهجوم ، والتلوين ، والتمكين ، والقرب ، والبعد ، والشريعة ، والحقيقة ، والطريقة ، والنفس ، والخواطر ، والوارد ، والشاهد ، والنفس والروح ، والستر ، والتوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والصمت ، والخوف ، والرجا ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة ، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ، والحسد ، والغيبة ، والقناعة ، والتوكل ، والشكر ، واليقين ، والصبر ، والمراقبة ، والرضا ، والعبودية ، والارادة ، والاستقامة ، والاخلاص ، والصدق ، والحياء ، والحرية ، والذكر ، والفتوة ، والفراسة ، والخلق ، والجود ، والسخاء ، والغيرة ، والولاية ، والدعاء ، والفقر ، والأدب ، وأحكام السفر ، والصحبة ، والتوحيد ، والمعرفة بالله ، والمحبة ، والشوق ، والسماع .

وغير ذلك مما هو معروف عند الصوفي ، ومطلوب منه في حال ترويض النفس على المجاهدة ومعرفة آداب كل حالة من هذه الحالات .

وإذا كان ابن خلدون ، يرى في هذا علماً يستسيغه ، فلا أقل من أنه يعارض سماحة الدين الاسلامي ، وميسراته ، التي جاءت لتيسير أمور العبادة ، لا لتعقيدها وتعسيرها ، ولتسهيل العمل بها ، لا لتجعلها أكثر صعوبة .

وإذا كان يرى ذلك صحيحاً ، فلماذا يحمل على الرافضة وأصحاب الأفكار الباطنية ، الذين يرون : أن للعبادات مفهوماً يحتجب وراء التأويل .

بقي علينا معرفة كيفية ذلك التلقي ، ومزايا ذلك الطالب المتلقي، ومن هم أولئك الرجال الذين كان التلقي منهم إذا كان هذا الأمر لم يكن معروفاً عند الرسول ، ولا عند صحابته الذين هم أعبد الناس وأزهدهم ، كما يقول ابن خلدون •

وكأن المكزون السنجاري من الذين لا يروقهم تسمية التصوف علماً ، فنفى أن يكون علماً بالاستناد إلى ما مر من أدوات الترويض فقال :

علمُ التصوف ليس يُدرَ   ك بالاشارة والعبـارة[1]

وإذا كان استثنى القلب المخلص في البيت التالي :

إلا لقلب مخلص   بالروح ملقيهـا امـارة

فليس بهذا الاستثناء ما يحملنا على القول أن المكزون يقول بهذا فهو يأخذ بنظرية الجنيد القائلة: هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة•• لأن التقرير الواضح في البيت الثالث :

فجـلا اليقيـن الظـن عنـه بحقـه ، وَجَـلا غبـاره

ويتلاقى أبو الحسين النوري مع المكزون في هذه النظرية فيقول:

(ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ، ولكنه أخلاق) •

هذه الجولة القصيرة مع ابن خلدون سلطنا فيها الأضواء على ما يعتور نظريته من أخطاء استوقفتنا عنده وعلمنا منها أنه يريد شيئاً غير معلوم •

---

(١) عند الصوفيين جماعة منهم يسمونهم (علماء علم الاشارة) ، وقد اشار الى ذلك الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي في قوله :

(علمُ الاشارة تقريبٌ وإبعادُ   وسيرها فيك تأويبٌ واسآدُ)

وابن خلدون هذا الذي يجعل من العلم فناً ومن الفن علماً ، لا نعرف ماذا يرضيه فهو يهاجم المؤرخين مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ، ومحمد بن عمر الواقدي ، وسيف بن عمر الأسدي، وغيرهم من المشاهير ، ويزري على الكافة التي اختصهم بقبول أخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم ، ثم يقول : والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم .

هذا بالنسبة إلى التاريخ والمؤرخين ، أما بالنسبة إلى الفقه فقد بقي على اطلاق كلمة (علم) عليه إلا أنه بالرغم من اشارته الى خلافات كانت ضرورية الوقوع بين الفقهاء من السلف والأئمة أصحاب المذاهب من بعدهم ، نفى أن يكون الصحابة أهل فتيا ، أو أن يكون الدين يؤخذ عن جميعهم متناسياً أو ناسياً حديث : صحابتي كالنجوم بأيهم أقتديتم اهتديتم ، ولا نريد أن نسترسل في هذا الموضوع حتى لا نخرج عن موضوعنا الذي نحن فيه ، ولكن لا بد من الاشارة إلى قوله وهو يتحدث عن مذاهب المسلمين : وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح ، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ودفع الخلاف عن أقوالهم ، وهي كلها أصول واهية ، ثم قال : ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الأنكار والقدح ، فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نروي كتبهم ، ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم ، فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة .

وعلامتنا ابن خلدون لو علم أنه سيأتي من الأجيال الناشئة من سيتتبع عثراته كما تتبع هو عثرات سواه لعدل عن مثل هذا المنطق المريب ، ولعلم أن التصوف لا يعتبر علماً بالقياس ، فقديماً قالوا : القياس طريق الانعكاس ولو علم أن غيره سيقول : أن الإمام جعفر

الصادق واحد من كبار معلمي الصوفية[1]، وان غيره يقول: إن الإمام موسى بل علي بن موسى الرضا أحد الذين ينتهي اليهم تأسيس الحركة ، وان جده الأكبر علي بن طالب هو الصوفي الأول إذا كان التصوف زهداً وتعبداً لعدل عن قوله : وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به ، وكأنه نسي أن أربعة من الطرق تنتسب إلى علي (ع) .

* * *

(1) راجع الصفحة (١٠٣) من هذا الكتاب بحث صوفية وباطنية وتجارب صوفية .

التصوف ،
وقدرته على استثمار التجربة الدينيّة

التصوف ،
وقدرته على استثمار التجربة الدينيّة

كتاب ، دراسات في حضارة الاسلام ، للدكتور (هاملتون جب) تعريب الدكاترة احسان عباس ، ومحمد نجم ، ومحمود زائد ، وهو صادر عن دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٦٤ ، تناول حكايـة التصوف وتاريخه ، وعلاقته بالآخرين ، وذلك في الفصل الحـادي عشر ، المقالة الرابعة ، قال صاحب الكتاب :

في التصوف قاعدة فعالـة ، هي قدرته على استثمار التجربـة الدينية ، على نحو منظم •

وهو ينشأ كعلم الكلام في مرحلة راقية ، من مراحل التطـور الديني ، ولم يكن في القرن الأول من تاريخ الاسلام ، متكلمون أو متصوفة ففي ذلك القرن ، كانت الجماعة الدينية المسلمة ، تمثل نوعاً من المجتمع الأخلاقي القائم على المبادىء المحسوسة التي وردت في القرآن حول الله واليوم الآخر ، والواجبات الدينية •

ولكن حين ولـد تزايد نطاق النشـاط الفكري ، وانتحـال المناقشات الفلسفية ، مبنى تشريعياً منظماً أولا ، وعلم كلام منسقاً من بعد ، كذلك أصبح البصر الديني الحدسي ، على مراحل موازيـة ،

وبقوة رد الفعل الطبيعي ، بل الضروري ، ضد اصطباغ الاسلام بالصبغة العقلية الخارجية ، أصبح متزايد الحساسية ، متزايد الشعور بذاته ، فلم تندثر محاولات أوائل النساك والزهاد، ليبلغوا حد الكمال الأخلاقي ، وانما أرهقت تدريجياً ، وأصابها شيء من التحول •

ولم يعد المثل الأخلاقي الأعلى ، الذي يتمثل في هذه الوصية (تخلقوا بأخلاق الله) يقنع بمحض قبول قاعدة مفروضة من خارج، وانما تطلب انسجاماً مع محتوى تجربة روحية عميقة سليمة •

وأصبحت القاعدة المفروضة من خارج ، مفروضة على المرء من لدن طبيعة ذاتية عليا ، وقدرة ذاتية استبصارية ، تدرك العلاقة الصحيحة بالله •

ــ التوازن في التطور بين التصوف وعلم الكلام ــ فكما أن علم الكلام استثير عن طريق الاحتكاك بالفلسفة العقلانية اليونانية ، كذلك التصوف ، انبعث عن طريق الاتصال بالتصوف المسيحي ، والغنوصية[1] المسيحية •

وبما أن روح التقوى القرآنية ، والتعبير عنها ، كانا منذ البداية وثيقي الصلة بالنزعات التصوفية الزهدية في الكنيسة المسيحية الشرقية ، كانت الحواجز القائمة في طريق اتصالهما المتداخل أقل منها في حال علم الكلام •

---

(١) اذا سلمنا : أن التصوف الاسلامي ، له علاقة بالتصوف المسيحي والفنوصية محبة ، فهل كان التصوف غير معروف قبل المسيحية، وقبل الغنوصية في المسيحية أم ان المسيحية ، أيضاً قلدت به ديانات أخرى ؟!

ولكن مثل ما أنه ، من الخطأ البين ، أن نقـول : ان علم الكـلام الاسلامي محض فلسفة يونبانية ، في ثوب اسلامي ، كذلك من الخطأ ، أن ندعي : ان التصوف الاسلامي ، محض تصوف مسيحي أو غنوصي في ثوب اسلامي . بل الصواب : انعلم الكلام الاسلامي أفاد من الفلسفة والمنطق اليونانيين ، ليؤثل نظامـه العقلي عـلى أساس المسلمـات والفروض القرآنية .

وبمثل ذلك استمد التصوف، وهو يتأسسبقوة على الاستبصارات الحدسية من القرآن ، كثيـرا من التجربـة المسيحية ، والصـور الغنوصية ، وأدرجها في صوره التعبيرية ، بقدر ما يتلاءم ذلك كله مـع مواقفه الدينية الأساسية ..

★ ★ ★

هل نشأ التصوّف
كما نشأ علم الكلام

هل نشأ التصوّف كما نشأ علم الكلام

يبدو أن نظرية ابن خلدون القائلة باستحداث علم التصوف في الملة مثل بقية العلوم الشرعية المتفرعة عن الفقه الاسلامي كالتفسير والحديث والأصول ، هي التي حدت بالمحامي محمد سليم شراباتي الى حدوث علم التصوف وتشبيهه بعلم اللغة الذي كان علي (ع) وأبو الأسود الدؤلي أول من وضع قواعده .

وجاء (هاملتون جب) صاحب كتاب دراسات في حضارة الاسلام ليقرر أنه (أي التصوف) نشأ كعلم الكلام في مرحلة راقية من مراحل التطور الديني بعد القرن الأول الهجري .

ومر معنا فيما سلف ، أن ابن خلدون يرى أن التصوف كان موجودا عند السلف ، وكبار الأمة من الصحابة والتابعين كطريقة اصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، وانه بعد القرن الثاني عندما جنح الناس الى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ..

وقد تابعه الأستاذ الشراباتي في هذا الرأي ، ولكن المتابِع والمتابَع ، لم يفز أحدهما أو كلاهما بنصيب المصيب ، لأن تطور هذه الطريقة والأحوال التي مرت بها أثبتت ذلك ..

ولا أجد فيمن كتب عن الصوفية قديماً كان أم حديثاً من خرج عن هذا التصور الاستنتاجي ، ودليلنا على ذلك اختلافهم على تشبيه حدوث علم التصوف بين العلوم الشرعية، واختلافهم على ارجاعه الى الصحابة والسلف ، وخروجه فيما بعد عما كان عليه الصحابة والسلف وذهاب بعضهم إلى انتمائه إلى مصدر قرآني وبعضهم إلى إشارات في نهج البلاغة ، وآخرين الى أحاديث نبوية وقدسية وغير ذلك مما تم الالماع إليه فيما سبق ومما سيجيء عنه البحث فيما سيأتي .

إلا أن (هاملتون جب) انفرد برأي ذهب به بعيداً أكثر من غيره ، وذلك برده الأصول في الصوفية الاسلامية إلى أصول مسيحية ، ولاتصالها بالتصوف المسيحي والغنوصية ، معللاً ذلك بروح التقوى القرآنية الوثيقة الصلة بالنزعات التصوفية الزهدية في الكنيسة الشرقية المسيحية .

وإذا كنا نقف هنا قليلاً ، لنرسل نظرة تأملية خاطفة في هذا الرأي ، فقد يستدعينا الموقف أن نتغاضى عن صلة القرآن بالانجيل وما بينهما من توافق صريح في كثير من جوانب الحياة الروحية وإذا كان ذلك واضحاً ، فهل يقتضينا هذا التوافق أن نقول بتأثرية القرآن بالانجيل ، ولا نقول بتأثرية الانجيل بالتوراة على ما بينهما من توافق في بعض الجوانب .

وإذا كان سلف الأمة ، وكبار الصحابة ، كما يقول ابن خلدون كانوا يمارسون هذه الطريقة ، بأسلوب العكوف والميل إلى الزهد ، فهل يعني : أن كبار الصحابة والسلف ، مارسوا هذه الطريقة تأثراً بصلتهم في أحبار اليهود والنصارى !

ولماذا كان هاملتون جب أسبق من غيره على طرح هذه النظرية بين أيدي القراء !!

إننا ونحن نستعرض حادثة ابراهيم بن الأدهم الذي هو (على ما أرى) أول من ترك وجاهة الدنيا وتزهد ، وأول من خلع رداء الملك ولبس جبة الصوف ، لا نستطيع أن نتصور أنه فعل ذلك بعامل التأثر بالكنيسة الشرقية ، ولا بالغنوص المسيحي ، ولا بالهاتف الذي سمعه ينادي : ما لهذا خلقت يا إبراهيم ..

وإنما هو خاطر" باطني جلجل في أعماقه عندما نظر إلى البادية المترامية الأطراف ، سيطر عليه واستولى على ذاته ، فتحقق : ان بهرجة الحياة ، وعزة الملك هي سخرية الحياة والأقدار بالانسان ، وان الحياة كل الحياة هي في العالم الآخر ، لمن آمن بالله واليوم الآخر ..

ولذلك لا أرى أن حكاية التأثر بالكنيسة الشرقية والغنوص المسيحي ، ذو أثر فعال في تكوين الأسس التصوفية وان العلاقة بينهما غير وثيقة الارتباط خلافاً لرأي الدكتور (جب) .

ولا بد من الاشارة إلى عبارة وردت على لسان ابن خلدون وهي قوله : (فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا : اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة) ..

ذكر هذا ابن خلدون ، ولم يذكر لماذا اختيرت هذه التسمية للمقبلين على العبادة ، ولماذا لم يختصوا باسم عباد وزهاد كما كانت هذه التسمية في عهد الصحابة ، إنه لا بد من اختيار هذه التسمية أن يرجع إلى سبب معين أغفله ابن خلدون .

بقي أن نقول : إن هذه العبارة عند ابن خلدون لا يجوز اغفالها فهي تصلح محركاً للبحث باتجاه آخر ، هو اتجاه الحياة السياسية وأثرها على الحالة الاجتماعية ، بعد نقل عاصمة الملك إلى بغداد في

دولة بني العباس ، وانصراف الناس فيها إلى الحياة اللاهية المائعة ، وتخلي الناس عن القيم والأخلاق ، فكان لا بد من ردود الفعل عند طبقة من المفكرين ..

وهذا هو المفهوم الذي عبر عنه (كارل بروكلمان) في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية)، قال تحت عنوان الصوفية والصوفيون:

(وكان مما يزيد في عنف الصراع الحزبي القائم بين الحكام ذلك التوتر الذي ساد علاقات الفرق الدينية ، والذي كان الدعاة إليه يزكون ناره على غير انقطاع ، ولم يقتصر ذلك على مجرد الشقاق بين الشيعة والسنة ، فقد كان الحنابلة المتحرجون ما ينفكون يثيرون الخلاف بين جماعة السنة أنفسهم ، ومن هنا حاول أصحاب النفوس الأكثر صفاءً وعمقاً الفرار بأنفسهم من صخب المنازعات حول المسائل السياسية الدينية ، والقضايا المذهبية ، إلى طمأنينة المشاهدة ،، والحق أن هذه النزعة إنما ترقى إلى عهد الأمويين في العراق ، حيث عمل في هذا الاتجاه ، كل من الحسن البصري في البصرة ، وجابر بن حيان الكيميائي الشيعي ، وأبي العتاهية الشاعر في الكوفة ، حتى إذا أصبحت بغداد عاصمة الامبراطورية جمع المنصرفون الى حياة التأمل شملهم ، حلقات ، حلقات ، فهم يلقون الدروس العامة في مساجدها ، وفي الأوساط المختلفة الخاصة بهم ، وهم يحاولون أن يحركوا في نفوسهم الشعور الصوفي ، ويصقلوه بواسطة السماع (الموسيقي)، ليس هذا فحسب ، بل لقد استعاروا من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء ، التي عرفوا بسببها بالصوفية .

لذلك يبدو الأثر النصراني واضحاً في شكل رياضات المشاهدة عندهم ، ولكن أصول الحركة كانت عربية اسلامية خالصة .

لقد ظهر في هذا الكلام الغرض المقصود عند (بروكلمان) وعند

(هاملتون جب) وهو رد التصوف إلى مصادر سابقة ونكتفي بما قلناه في مناقشة (هاملتون جب) عن مناقشة (بروكلمان) ، إلا أننا استطعناأن نفهم أن بروكلمان اعتبر مصدر هذه التسمية لبس الصوف، عندما قال عن الصوفيين ، لقد استعاروا من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء التي عرفوا بسببها بالصوفية ٠٠

وهنا نقول للسيد بروكلمان : إن تلك الأردية المستعارة لم تعد لأصحابها الرهبان ، وقد أصبحت ملكاً لمتصوفة المسلمين دون غيرهم، ونلاحظ أن التصوف لم يبحث إلا من خلال التاريخ الاسلامي اذا إذاً كانت مصادره من غيره ؟!

* * *

صوفيّة وباطنيّة
وتجارب صوفيّة

صوفية وباطنية وتجارب صوفية

هذا البحث ـ صوفية وباطنية وتجارب صوفية ـ نقتطعه من كتاب (تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية) تأليف (ميرسيا الياد) ترجمة (عبد الهادي عباس) فقد جاء في الجزء الثالث منه :

إن الصوفية تمثل البعد الصوفي للاسلام الأكثر بروزاً وهي واحدة من أكثر التقاليد أهمية للباطنية الاسلامية ، إن الاشتقاق اللغوي للاسم العربي (صوفي) يبدو مشتقاً من الصوف اشارة لرداء الصوف الذي يرتديه المتصوفون ..

وقد انتشر هذا المصطلح بدءاً من القرن (٣/٩) وحسب التقليد، فإن الأسلاف الروحانيين للصوفية ، كانوا من صحابة محمد ، وعلى سبيل المثال : سلمان الفارسي ، الحلاق الفارسي الذي سكن منزل الرسول ، وأصبح نموذج التبني الروحي ، والمسارة الصوفية ، (واويس القرني) الذي أثنى محمد على ورعه .

ولا يعرف سوى القليل عن الاتجاهات التنسكية، ولكنها تتحقق على الأرجح ، تحت حكم أسرة الأمويين ، ففي الواقع ، أن عدداً كبيراً من المؤمنين خاب أملهم بعدم المبالاة الدينية من الخلفاء الذين شغلهم التوسع المستمر لامبراطوريتهم فقط .

وأول صوفي متنسك ، هو الحسن البصري (م ١١٠/٧٢٨) المشهور بتقواه ، وبحزنه العميـق ، لأنه كان يعتقـد دائماً بيـوم الدينونة •• وهنالك حالم" آخر ، ابراهيم بن أدهم المشهور بتعريفه لمظاهر الزهد الثلاثة :

١ ــ التنازل عن الدنيـا •

٢ ــ عن سعادة معرفة ترك الدنيا ••

٣ ــ التحقيق بالتمام لترك أهمية العالم الذي نن ينظر إليه •

ورابعة (م ١٨٥/٨٠١) وهي امة اعتقت من قبـل سيدها ، وأدخلت في الصوفية الحب المطلق لله وبدون مقابل •

فالحبيب لا يجوز أن يفكر لا في الجنة ولا في النار ••

ورابعة هي الأولى بين الصوفيات التي تكلمت عن غيرة الله (يـ أملي ، يا راحتي ، يا سعادتي ، إن القلب لا يستطيع حب واحد آخر غيرك) • وقد أصبحت الصلاة بالنسبة لرابعة محادثة حب طويلة مع الله ، مع ذلك ، وكما أشار إليه الباحثون المحدثون ، فإن جعفر الصادق رابع امام (؟) (١٤٥/٧٦٥) وواحد من كبار معلمي الصوفية القديمة ، كان قد عرّف التجربة الصوفية بعبارات حب إلهي (نـار إلهية تفترس الانسان تماماً) الأمر الذي يبرهن على التضامن بيـن الشيعة ، وأول مظهر للصوفية ••

وعلى كل حال ، فـإن التجارب الصوفيـة ، والغنوصيـات التيوصوفية تسربت بصعوبة في الاسلام الأصولي •

---

(١) الامام جعفر هو الامام السادس بالنسبة الى ترتيب الأئمة عنـد الشيعة فكيف جعله هذا المؤلف الامام الرابع !!

فالمسلم لم يجرؤ على ادراك علاقة صميمية ، واقعة حب روحي مع الله ، فقد كان يكفيه التسليم لله ، واطاعة الشريعة واتمام تعليمات القرآن ، بواسطة السنة .

وان العلماء الأقوياء بثقافتهم الدينية ، ومهارتهم بالاجتهاد كانوا يعتبرون ، وكأنهم الرؤساء الدينيون الوحيدون للجماعة ، وعليه ، فإن الصوفيين كانوا بعناد كبير ضد العقلانيين وبالنسبة لهم ، إن المعرفة الحقيقية الدينية ، قد تم الحصول عليها بتجربة شخصية ، موصلة لاتحاد موقت مع الله .

إن نتائج التجربة الصوفية في نظر العلماء ، والتفسيرات المقدمة من الصوفية ، كانت تهدد حتى أسس الفقه الأصولي .

ومن جهة أخرى ، فإن طريق الصوفية ، يقتضي بالضرورة (تلامذة) مع لزوم تكريسهم ، وطول تدريبهم من قبل معلم ، وان هذه العلاقة الاستثنائية بين المعلم وتلامذته وصلت سريعاً لتمجيد الشيخ ، وعبادة القديسين ، وكما يكتب الهجويري (أعلم أن مبدأ وأساس الصوفية ، ومعرفة الله ، تعتمدعلى القداسة) .

إن هذا التجديد أقلق العلماء ، ولم يكن هذا فقط ، لأنهم رأوا سلطتهم مهددة أو متجاهلة .

وبالنسبة للفقهاء الأصوليين ، فإن الصوفيين ، كانوا متهمين بالهرطقة ، وعليه ، وكما سنرى يمكن الكشف في الصوفية التأثيرات المعتبرة كأنها نجسة ومدنسة — من الأفلاطونية المحدثة والغنوصية والمانوية ، وباتهامهم بالهرطقة ، فإن بعض الصوفيين مثل المصري (ذي النون) (م ٢٤٥/٨٥٩) ، والنوري (٢٩٥/٩٠٧) قد اتهموا إمام الخليفة ، وان المعلمين الكبار ، الحلاج والسهروردي اتهما

باضطهادهما وبقتلهما (ف ٢٧٧ و ٢٨٠) الأمر الذي أكره الصوفيين لايصال تجاربهم ومفاهيمهم لتلامذه موثوقين فقط وضمن نطاق ضيق من المريدين .

هذا ما لخصه صاحب كتاب (تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية) في بحثه عن الصوفية . مما لا يخرج عما ورد على لسان غيره من مؤرخي الأجانب وكان في مضمونه متوافقاً مع بروكلمان وهاملتون جب من حيث مصدرية التصوف والرجوع به إلى الكنيسة الشرقية وكان (بروكلمان) و (جب) صريحين في هذا القول ، وكان صاحب تاريخ المعتقدات أقل صراحة ولكنه يرى بسهولـــة : أن التجارب الصوفية والغنوصيات التيوصوفيـــة تسربت بصعوبة في الاســـلام الأصولي ..

ويرى أن نتائج التجربة الصوفية في نظر العلماء كانت تهدد حتى أسس الفقه الأصولي ، ويرى أن التصوف عدو العقلانية .

وسلمان الفارسي وأويس القرني كان ورعهما قائماً على الايمان بالله الواحد الذي تعهد لعباده المؤمنين بأن لهم الجنة ، وهذا ، وإن كان مما يتبناه الصوفيون في جملة مزاياهم لم يكن هـــو التصوف بعينه الذي يعنيه الباحثون .

ويكفي للدلالة على صحة هذا أن التصوف كان اسماً شاملاً ولكن أهل التصوف كانوا مختلفين .

مثال ذلك أن ما يراه الحسن البصري[1] غير الذي رآه ابراهيم

---

(١) ورد في الباب الثامن من كتاب حقائق أسرار الدين وهو كتاب مخطوط ما يلي : وبالأسناد عن أحمد عن ابراهيم بن هشام ، عن حماد بن عيسى عن زرارة عن أبي جعفر أنه قال : لقد أضل الحسن البصري من هذه الأمة أكثر مما أضل السامري في قومه . هذه الرواية عن

بن الأدهم . وان الذي طبقه ابراهيم بن الأدهم غير الذي طبقته رابعة العدوية وقس على ذلك .

ويزيد في قناعتنا على عدم وجود ركائز أصيلة للتصوف تحوله من ممارسات روحية إلى حركة تستجيب للغرائز تحت تأثير الأنغام الروحانية والأناشيد الدينية واستعمال آلات الطرب كالناي والقصب والصنوج والطبول والرقص ، مما ذكر صاحب كتاب المعتقدات أنه يتشابه وصلاة المسيحيين الشرقيين .

أما ما ورد على لسان صاحب الكتاب المذكور من أن الامام جعفر الصادق هو أحد معلمي الصوفية القديمة فلم يقم على ذلك دليل وربّ قائل بنسبة الصوفية إلى الامام الرضا حفيد الإمام الصادق من إبنه الامام موسى ..

ولا غرابة في أن يكون الصوفيون هراطقة في نظر العلماء والفقهاء ما دام الصوفيون لا يؤمنون بدليل العقل ولا ببرهان النقل ، فهم منقطعون وحسب ..

ولا يستبعد صاحب الكتاب وجود التأثير الهندي في الصوفية انسجما مع ما يظهرونه من عمليات معقدة من أوضاع جسدية مميزة ، وممارسة للشهيق ومظاهر صبغية لونية وسمعية .

وهكذا نلاحظ ان كل حركة في الصوفية لها متاولون لها من يرجعها الى مصدر يختاره . ويتحدث عن التصوف بالطريقة التي يراها . لا بالمعلومات التي اكتسبها أو قراها .

ابي جعفر ، اما ابو عبد الله جعفر فقد اسندت اليه الرواية التالية في الكتاب نفسه : (وبالاسناد عن الحسن بن محبوب ، عن اسحاق بن عمار انه قال : سمعت أبا عبد الله يقول : قد كان لهذا الأمر وقت وكان في سنة اربعين وماية ، فاذعتموه فاخره الله) ..

التصوّف

والحياة الدينيّة عندَ المسلمين

التصوّف

والحياة الدينيّة عند المسلمين

يلاحظ القارىء أن العهد الراشدي ، انتهى بمقتل علي بن أبي طالب بالعام الأربعين من الهجرة ، وانصرم آخر عهد به بتسليم الحسن بن علي الأمر الى معاوية بالشام ، وايلولة الأمر الى بني اميـة .

ومن هذه النقطة بالذات بدأ التحول الكبير في حياة المسلمين وبدأت الأمور تصب في مجرى آخر ، وبـدا الانحراف تحت ظـل أن مجيىء الأمويين كان بارادة الله وقضائه ، ولهم أن يتصرفوا كما يشاؤون خارج نطاق حكم الشريعة ، ولا يجوز لأحد أن يحاسبهم إلا الله ..

وإن حياة الترف والبذخ في قصور الأمويين ، واستهانتهم بقوانين الأخلاق ، ومصانعة الفقهاء ، وتلفيق الأحاديث ، وتأويلها لصالح الحكم، وقبول سب أحد أجلاء الصحابة ، وغير ذلك من الأمور جعل النظرة إلى الحياة غير مسددة نحو هدفها الصحيح ، وان ارستقراطية الحكم حولت الرياح بغير ما تهوى سفينة الشريعة ..

واستمر حكم الأمويين زهاء قرنٍ من الزمن تقريباً . وفي عهـد (جعديّهم) بدأ القول بخلق القرآن أخذاً عن الجعد بن درهم •

وإذا كان حكم الأمويين ، انتهى سنة ١٣٢ هجرية ، فيكون هذا التاريخ بداية العهد العباسي في بغداد .

وهنا لا بد من الاشارة إلى أن جميع المؤرخين ، أجمعوا على أن ظهور التصوف ، حدث في القرن الثاني الهجري ، أي مع بداية عصر العباسيين .

ويدلنا على ذلك أن أول من أشار إليه التاريخ من رجال الصوفية هو ابراهيم بن الأدهم المتوفي سنة ١٦١ هـ أي بعد حلول العصر العباسي بتسعة وعشرين عاماً ، وهذا يعطينا قناعة ، أن ابن الأدهم ولد في أواخر العهد الأموي ، وأنه عاصر بعض خلفائهم .

وجاء العصر العباسي ، وما رافقه من حياة مستقرة حيناً ومضطربة أكثر الأحيان ، وأخذت الحياة تتجه نحو الترف والانغماس بلذائذ الحياة ، وبخاصة بعد أن أصبحت بلاد فارس مفتوحة الأبواب والحدود أمام العرب ، فاختلط الفرس بالعرب . وامتزج الشعب بالشعب وبدأت عوامل الحياة الاقتصادية والمادية تطغى ، وبدأ البذخ والتبذير كما يحدثنا التاريخ ، وتبديد أموال الدولة ، في غير طرقها المشروعة مثل تكاليف زواج الخليفة المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وغير ذلك من مقاصف هارون الرشيد وابنه الأمين ، والمتوكل وجواريه ، وما يوصف به العهد العباسي من مظاهر اللهو والمجون التي أعطى عنها أبو نواس صورة صادقة ، وغيره من الشعراء المصانعين والمرتزقة وغير ذلك من ظواهر الأمور التي عبثت بالقيم والأخلاق ومفاهيم الشريعة .

هذه الظواهر التي تولدت في العصر الأموي ، والتي كانت منعطفاً تاريخياً في الحياة الاسلامية ، ثم جاء العصر العباسي ، فدرجت

وشبت وترعرعت فيه ، كلها مجتمعة ، كانت من أكبر العوامل على شجب الحياة المادية ، والتنكر لها : تحت شعار الزهد في الدنيا والعمل من أجل الآخرة ، هذا الشعار الذي كان أبو العتاهية الشاعر أول من التزم به موضوعاً ونادى به فصرخ بالناس :

لِدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ثياب

وبديهي أن العمل من أجل الآخرة ، لا يكون إلا بطرح رغبات الجسد ، وكان ابراهيم بن الأدهم ، هو الرائد الأول في تطبيق هـذا المبدأ على نفسه حينما اعتزل الملك والحياة السلطوية ، فتشبه بـه الآخرون واتخذوا منه قدوة حسنة ، فكان التصوف والزهد ..

ويلاحظ : أن السلطة لم تعارض في ذلك، لأنه يوفر عليها مشاكل الجماهير الجائعة المقهورة ، فترضى بما قسم الله لها ، وتنصرف عن كل أسباب الحياة .

وإذا كان الحلاج والسهروردي وغيره من الذين تعرضوا لنقمة السلطة أطيح برقابهم ، فلا لأنهم صوفيون بل لأنهم تجرؤوا عـلى الأصول الاسلامية الأمر الذي أثار ضدهم الفقهاء ..

من هنا جاء كلمة ابن خلدون التي أشرنا إليها في آنف هـذا الكلام ، ومنه جاءت كلمة الدكتور (هاملتون جب) : انـه (أي التصوف) نشأ في مرحلة راقية من مراحل التطور الديني ، لأن هذا القول يصلح لأن يكون مبدءاً للبحث عن تاريخ الصوفية ، ومنشئها، وأسبابها ، وان القول : بأنها كانت تتلقى من صدور الرجال ، وان كبار الصحابة كانوا يمارسونها .

وغير ذلك من الأقوال التي لا تستند على ما يؤيدها من طريق العقل أو النقل .

ولا يعطينا استنتاج الدكتور (جب) أية محصلة بصلة الصوفية بالكنيسة الشرقية أو الغنوص المسيحي •

ولا ريب في أن ظروفاً خاصة ، كالتي ذكرنا كانت سبباً اساسياً في ظهورها وانتشارها ••

* * *

الصّوفيّة
في عصورها المتأخره

الصّوفيّة في عصورها المتأخره

نشرت مجلة المعرفة السورية، بعددها الصادر بتاريخ تشرين الثاني سنة ١٩٧٨ رقم (٢٠١) مقالا للدكتور عبد الله حنا ، بعنوان : الحيـاة الفكرية في دمشق وحلب في القرنين الثامن عشر والناسع عشر تحدث فيه عن طريق الصوفية ، فقال :

بلغت الصوفية أوجها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، حيث ظهر عدد من كبار المتصوفة ، الذين تركوا أثراً واضحاً في بلاد الشام والمشرق العثماني عامة .

وأشهر المتصوفة الذين خلدت طرقهم في بلاد الشام ، هم :

١ ــ عبد القادر الجيلاني ٥٦١ هجرية .

٢ ــ عمر بن الفارض .

٣ ــ عبد الغني النابلسي ١١٤٣ هجرية الموافق ١٧٣١ م الذي شرح ديوان ابن الفارض ، وأوغل في التفسير والتأويل .

ولا تزال أصداء الشيخ عبد الغني وكراماته تتردد أصداؤها في الأوساط المتأثرة بالصوفية .

٤ ــ محي الدين بن عربي ، الذي أثار مذهبه اختلافاً كبيراً في الآراء .

٥ ـ جلال الدين الرومي • وغيرهم •

في العهد العثماني أصاب التخلف والانحطاط ، الفكر الصوفي وتحول إلى فكر سطحي متزمت ، ولكنه أدى حاجة ملحة ، تتناسب مع ظروف حياة الجماعات ، وعهد الفوضى ، والاضطراب ، والقلق السائد آنذاك •

وكان تيار انتشار الصوفية ، وحلقاتها المتعددة ، وفرقها الكثيرة الوجه الآخر لمتطلبات المجتمعات العثمانية الاقطاعية الشرقية والحرفية•

وكان انتشار الصوفية على نطاقٍ واسع ، ودخولها إلى أعماق الجماهير، جماهير المدينة صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك ، ومظهراً من مظاهر الحياة الحرفيـــة ، وحاجتها إلى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية ، والمعاشية والحياتية •

وقد قامت هذه الجماعات الحرفية ، بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية إلى تعبيرات عملية ، وأسس أخلاقية ، تسير حياتها الاجتماعية ، متبعة في ذلك تقاليد معينة ، وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت اشراف شيوخها المحليين •

ثم بعد هذا يرى عبد الله حنا : أن فرق المتصوفة كانت لهـــا دويلاتها الخاصة في اطار الدولة العثمانية ، وأحياناً خارج اطارها ••

ويتخذ من مواكبهـــم في الشوارع وولائمهـــم في البيـــوت ، واجتماعاتهم في المساجد والزوايا وتغلغل نفوذهم في المدن والقرى ، وامتداد سلطانهم إلى مختلف فئات الشعب وتسربهم إلى قصور الحكام والأغنياء دليلاً على ذلك •

ويرى أن دويلات الطرق الصوفية زادت من عروشها ، بما لها من سلطان في قلوب العامة ، وقسم كبير من الخاصة ••

ويرى أيضاً ، أن هذا ما دفع (توفيق الطويل)[1] إلى القول (ان دولة الفقراء الصوفية كانت أثبت قدماً ، وأعظم نفوذاً ، وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان) ••

معتمداً في ذلك أن الحالات المأساوية التي سادت في العصور الأخيرة هي التي أسهمت في ثبات دويلات الطرق الصوفية ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس ••

ثم ينتهي إلى القول : بأن الأمر الذي وصل ببعض فرق الصوفية وخاصة الدراويش والمجاذيب إلى الضرب بعرض الحائط بأعراف البلاد وتقاليدها ، وحتى بدينها كان تغطية لأهداف اجتماعية أو سياسية •

ومن هنا ينطلق إلى القول : بأنه من هذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصوفية ، بأنها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع الطبقي القائم بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج •

ثم يعدد أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بين عامة بلاد الشام ، وهي :

١ ـ البكناشية ، التي تغلغلت في صفوف الانكشارية •

٢ ـ المولوية ، التي اشتهرت بحفلاتها الدينية في التكايا والزوايا ، حتى أطلق عليهم اسم : الدراويش الراقصين •

٣ ـ النقشبندية : التي تعتبر نفسها ، أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجات التوحيد ••

---

(١) سيرى القارىء ما أخذناه عن توفيق الطويل في غير مكان من هذا الكتاب •

هذه الطرق الثلاثة لم يكن معترفاً بها بين الطرق الرئيسية الأربعة التي قالت بنسبتها إلى الأمام علي وفاطمة الزهراء ، وهي :

١ ـ الرفاعية التي لمعت مع وصول أحد مشايخها إلى قصر السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر ، وهو محمد أبو الهدى الصيادي ، من خان شيخون إلى الجنوب من حلب • وقد مثل الصيادي الجانب الرجعي من الصوفية ووقف في وجه حركة التجديد الاسلامي ، وقد قام بنشر عدد من الكتب الموضحة والمفسرة للطريقة الرفاعية •

٢ ـ الجيلانية ، أو القادرية ، التي ظهرت في بغداد وأحيط مؤسسها بهالة من التقديس والأساطير •

٣ ـ البدوية التي لاقت رواجاً كبيراً في مصر ، ولم تنتشر انتشاراً واسعاً في بلاد الشام •

٤ ـ الدسوقية ، وظهرت في مصر أيضاً ، وانتشرت في بلاد الشام وينسب إليها كثير من الخوارق ••

٥ ـ بالاضافة إلى هذه الفرق ، عرفت الشام أيضاً : السعدية والشاذلية ، وغيرهما من الفرق التي كانت في الواقع أحزاباً للعامة وفق مفاهيم ذلك الزمن •

ثم تحدث عبد الله حنا عن هبوط النتاج الفكري منذ القرن الثالث عشر الميلادي إلا بعض ومضات هنا وهناك اختفت تماماً مع مجيء القرن الثامن عشر ، وأجدبت بلاد الشام إلا من الأشواك الجافة وفي منتصف القرن التاسع عشر أخذ التفتح يتنامى وبدأ الصراع يشتد بين القديم النافه وبين الجديد الحي الذي يقبس من الحضارة البورجوازية الناهضة في أوربا •

وأشار صاحب المقال إلى الذين أرخوا لهذه الفترة ، فكان منهم الشيخ راغب الطباخ عام ١٩٢٣ م ــ أعلام النبلاء ــ الأب فرديناد نوفل اليسوعي ، بوثائقه عن (أولياء حلب في منظومة الشيخ محمــد أبي الوفاء الرفاعي ١٧٦٥ ــ ١٨٤٧ م) ويرى نوفل أن التفتيش عن أصول الأولياء الذين ذكرهم يكشــف عن آثار مسيحية ترجــع في أصولها إلى آثار يهودية أو وثنية سبقتها •

أما المناخ الفكري الذي كان سائداً بين جماهير العامة فقد قال أنه لا يعرف شيء عنه ••

وأسند إلى القساطلي (١٨٨٠) أنه قال : كسدت بضاعة المعارف، نرواج بضاعة السيوف والعصي •

فُرَصُ التعليم ، اقتصرت على الجوامع ، والزوايا ، والخوانق والكتاتيب ــ ما عدا بعض مدارس الارساليات لأبناء الميسورين من المسيحيين •

هذه خلاصة ما استعرضه الدكتور عبد الله حنا من معلومات في مقاله الذي بحث به أحوال الصوفية في فترة أخيرة من فتراتها •• فلعل بها ما يفيد الباحث عن آثار الصوفية وما آلت إليه في عصــور الانحطاط ••

لا نريد أن نسرف بالتعليق على هذا المقال ، ولا نريد أن نقلل من أهمية ما انطوى عليه بالنسبة إلى تتبع آثار الصوفيين في حقبــة معينة من التاريخ ، ولكن شيئاً واحداً نريد أن نشير إليه ، وهو قوله: ان الحركةالصوفية أخيراً تحولت إلى حركةجماهيرية غايتها الاستيلاء على الحكم أو السلطة ، وأظنه استمد رأيه هــذا من رأي زميلــه (توفيق الطويل) الذي قال : (ان دولة الفقراء الصوفية كانت أثبت

قدماً وأعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان) وسنشير إلى هذا الكاتب في محله من هذا الكتاب •

إن عبارة (حركة صوفية) عند عبد الله حولت المفهوم السائد عن الصوفية أنه طريقة أو علم أو زهادة وبذلك يكون قد ألغى كل ما جاء على لسان الأقدمين عن الصوفية ••

وأيضاً عبارة (دويلات الطرق الصوفية) فهي وان كان استعارها **من زميله (الطويل) بالعبارة السالفة (دولة الفقراء الصوفية) أيضاً بالرغم من اعتباره إياها (دويلات) لا (دولة) واحدة ، فقد جاءت تسمية أخرى جديدة لا عهد لطريقة الصوفيين بها ، وهذه التسميات** تتجاوز متحديه ابن خلدون في اعتبار التصوف علماً •

ولعل توفيق الطويل ، الذي تأثر بنظرية عبد الله حنا، أن وصول الصيادي ـ أبي الهدى ـ إلى باب السلطان العالي ، كان بتأثير (دولة الفقراء) ، ولا ندري أين وجد هذه الدولة ـ وهو من خان شيخون وكيف أسسها من ذلك الشعب الصغير ، فحملته إلى باب السلطان • ونتساءل أيضاً من أين عرف الطويل ـ توفيق ـ هذه الدولة ، وإذا كان قد عرفها ، فكيف عرف أنها (أعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان) ولعله بذلك يشير إلى الجيش الانكشاري الذي كـان يتحكم بكرسي السلطنة ، ولكن الانكشاريين لم أجد أنهم محسوبون على الصوفية ، فهم قوة عسكرية وحسب •

إن دولة الفقراء التي يعنيها ، توفيق الطويل وعبد الله حنا والتي تصوراها جماهيرا طامحة ، لم تكن كذلك ، وانما كانت آلات بشرية يحركها السلطان العثماني برغيف الخبز الذي يلوح به الى زعمائها ، وقد كان العباسيون قبل العثمانيين يقولون عـلى مقولـة (أجـع كلبـك يتبعك) ولكن جاءهم من يقول : (ولكن إذا لوَّح له غيرك برغيف فهـو

يتبعه) وهذه دولة الفقراء دولة الجياع فهم مع الرغيف وليس مع السلطان ، إذا صح أن للفقراء دولة !!

ومما يصح لنا الاحتجاج به على أن الطرق الصوفية ليس بين بعضها أخوة تشدها إلى البعض الآخر اختلاف آثارها وممارساتها فهذه الطريقة المولوية التي أسسها جلال الدين الرومي المعروف باسم (حضرة مولانا) قد ابتدع فيهذهالطريقة نوعاً منالرقص يسمونه رقصة (السيما) أو رقصة الدراويش ، وجعل من هذه الرقصة رمزاً للطريقة الصوفية التي اختارها سبيلاً في حياته العملية ، وجعلها مزيجاً من الفلسفة والشعر والحكمة من أجل مجد الانسان كما يقول السيد سليمانمظهر صاحبالاستطلاع المنشور بالعدد /٣٤٨/ نوفمبر ١٩٨٧ من مجلة العربي الكويتية •

قال سليمان مظهر بعد أن وصف ما وصف من روعة البناء القائم على ضريح الفيلسوف الصوفي جلال الدين في مدينة قونية ، قلب الأناضول الحضاري ، قال : تعال معنا نشاهد رقصة المولوية التي ابتدعها جلال الدين الرومي وما تزال مستمرة منذ القرن الثالث عشر حتى الآن برغم قرار أتاتورك عام ١٩٢٦ بالغاء الطرقالصوفية وتحويل تكاياها إلى متاحف أثرية ••

وينقل سليمان مظهر عن لسان (جونير اوزكان) مدير السياحة والثقافة في قونية قوله : كان مولانا يقول : إن رقصة السيما هي جوهر الروح لاكتشاف الحب الآلهي ، والاحساس برجفة الصدمة وازاحة الستار الحاجب للوصول إلى حضرة الله •••) انتهى ••

هذا هو تصور مولانا جلال الدين واستطاع أن يُقنع بهذا مريديه وسلاطين بني عثمان من سليمان القانوني حتى عبد الحميد ، ولم يطالبه أحد بالدليل على ذلك من القرآن ولا من الحديث ••

فأين هي القواعد الصوفية في هذه الطريقة وأين هو العلم الذي يتشبث به ابن خلدون ، وهل يمكن نسبة هذه الطقوس التي رسمها جلال الدين لنفسه ولمريديه إلى أحد من الصحابة والتابعين أو غيرهم ممن يقال أن للصوفية انتساباً إليهم ..؟

ولعل من المفيد أن نتتبع آثار هذه الرقصة التي نسب ابتداعها إلى جلال الدين في التاريخ القديم ، ولكن في كل ما قمنا به من تحريات حول هذا الموضوع لم نعثر إلا على بعض أبيات للشاعر الصوفي الحسن بن مكزون السنجاري الذي قدمنا بحثاً عنه في هذا الكتاب من الصوفيين الذين أغفلهم التاريخ ، هذه الأبيات فيها ذكر وتنويه بما يشبه رقصة السيما التي ابتدعها جلال بكل مظاهر حركاتها، قال المكزون :

فراستي فريسة" لبدورتي
في دستبندي تحت اكليل الخُضَر

فاعلُ على أرجوحتي مكللا
تصبحُ في بيضاء صيني مبتكر

ورجعت إلى شرح البيت الأول من هذين البيتين للعلامة الشيخ سليمان الأحمد فوجدناه كما يلي :

الفراسة التوسُّم(١) ، وهي تعرُّف الشيء بالظن الصائب ، وهي عبارة عن خاطر يهجم على القلب فينفي عنه الشك ، وهي أول

---

(١) لعل الصواب في شرح كلمة ((فراستي)) في هذا المكان النسبة الى الفرس مصدر هذه اللعبة الراقصة لا الى التوسم ، والمكزون معروف عنه أنه يتعامل مع اللفظة التي تشير الى أكثر من معنى تمويهاً على قارئه ، وربما كانت الكلمة (فرسيتي) وتحورت مع النسخ .

مراتب الايمان ، واختناها المكاشفة والمشاهدة ، لدورتي أي الدستبند وهي لعبة المجوس يدورون فيها وقد أمسك بعضهم بيد بعض كالرقص . وفي أدعيته ، فقد درنا دورة وستنبدك عن شوق باعث إلى جوار مجدك . انتهى .

وحين نعلم أن جلال الدين من بلخ من أعمال أفغانستان لا نستغرب أن يكون بحكم اطلاعه على تاريخ الفرس القديم وما كانوا يقومون به في الأيام النوروزية خلال كل عام حين انقضاء الحر أو انقضاء البرد من مظاهر الفرح والابتهاج وكان من عوائدهم كما وصل إلينا على ألسنة الرواة أن يظهروا بكل مظاهر الزينة ويصنعوا الأكاليل من الريحان والغار وأشكال الزهور وينصبون الأراجيح ويتحلقون ماسكين بأيدي بعضهم البعض في رقصة يسمونها الدستبند يدورون بها حول بعضهم وكان لهم فيها رموز واشارات تماماً كما هي الرموز والاشارات عند جلال الدين ، فلعل جلال الدين آمن بما كانت عليه هذه الرقصة من قدسية في شعب غابر فأحياها في طريقته بين شعبه الحاضر . هذا ولله في خلقه شؤون ..

* * *

هَل الصّوفيّة بدعَة ؟

هَل الصّوفيّة بدعَة ؟

كان أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ وهو امام" معروف" ، من ائمة الفقة الاسلامي ، يعتبر الصوفية بدعة ، لان اقوال أصحابها كلهـا بـدع . — — —

وقد بين ابن كثير سبب كراهية ابن حنبل لصحبة الصوفية فقال : لأن في كلامهم ، عن التقشف ، وشدة السلوك ، ما لم يأت به شرع ، ومن التدقيق ومحاسبة النفس ، ما لم يات به امر" .

إذا كان هذا هو راي معاصري الصوفية في بداية نهضتها ، يـوم كانت زهدا ، واخلاقاً ، وتهذيباً .

يوم كانت تستقي معارفها من القول : (تخلقوا باخلاق الله) . إذا كان هذا هو شأنها في ذلك الدور ، يوم كانوا ينسبونها تارة إلى علي بن ابي طالب ، وطورا الى علي الرضا .

وذهب آخرون كابن خلدون أنها كانت طريقة في عهد الرسول وكبار الصحابة ، تتلقى من صدور الرجال .

ورغم كل ذلك ظهر لهـا معارضون ، وتصدى لهـا مؤلفون كالقشيري وابن الجوزي ، وغيرهم .

فماذا يقال عن هذه الطرق المستحدثة ، التي تقوم على الولائم والرقص والخروج في الأسواق ، تحت لعلعة السيوف ، والعصي ، والسناجق ، كما كانوا يفعلون لعهد قريب ، في حمص وحلب وغيرهما من المدن السورية •

يظهر جلياً أن الدكتور عبد الله حنا قد تأثر بمقولة الشيخ جمال الدين الأفغاني في نقد الصوفية واعتبارها من عوامل التأخر في الأمة، ومدعاة للتواكل والتخاذل •

أما الذي لا بد من الاشارة إليه ، هو تعدد هذه الطرق ، واختلاف أساليبها ، والممارسات العملية في كل طريقة ، ولدى كل شيخ من شيوخ هذه الطرق ، وأخيراً سريانها في العصور المتأخرة بين الجماهير ، وانشداد هذه الجماهير إليها ، وهذا التوقير الذي لقيته من عامة الناس وخاصتهم ، حتى أصبح شيوخها من أهل الوجاهة في الدنيا ، وما حكاية أبي الهدى الصيادي في قصر السلطان عبد الحميد بغريبة عنا ••

ما هي علاقة هذه الطرق في العصور المتأخرة ، بالطريقة الصوفية في العصور المتقدمة ، وما هي الوشايج الجامعة بينهما •

كان الصوفيون في بدايتهم ، يستوحشون من الناس ، فيهربون إلى البوادي ، وكانوا يحبون الجوع ، فيكرهون العمل ، وكانوا يحبون الفقر فيتجنبون أهل الغنى •

كان الصوفيون في بدايتهم ، ضد كل الغوايات ، وضد كل الغرائز والشهوات ، حتى أنه قيل لأحدهم : ماذا تشتهي ، قال : أشتهي أن لا أشتهي ••

فكيف تحولت تلك المفاهيم ، إلى مفهوم معاكس ، وأصبحت

الصوفية في عصر من العصور ، طرائق متعددة ، بدلاً من طريقة واحدة ، ولها أنساب متعددة ، بدلاً من نسب واحد ، ولها تعاليم، وظواهر مختلفة ، لا تتلاقى مع الأخريات منها ..

وبدلاً من الحزن والبكاء عند الحسن البصري وأبي العتاهية ورابعة العدوية ، وبدلاً من التواري عن أعين الناس كما فعل الجنيد عشرين سنة تحت سلم بيته منقطعاً إلى الله ، تحولت الى جماهير ، ترقص ، وتغني وتسير في الشوارع بسواكب حافلة لها أعلامها وزيناتها وجماهيرها وأغانيها ومزاهرها وحلقاتها الراقصة على مذهب جلال الدين وغيره .

أي نوع هذامن أنواع الصوفية ـ وما كانت الصوفيةأنواعاً ـ ومن جعل الصوفية طرقاً ، وكانت طريقة واحدة ، ومن حوّلها إلى كتل وزعامات ، وكانت كتلة واحدة بزعامة الله وحده .

فهل كانت هذه الطرق نواة للاحوال الحزبية ، وهل كانت هذه الطرق عاملاً للاستقطاب عندما تدعو حاجة الحاكمين ، وإلا فماذا يعني أن يكون أبو الهدى الصيادي ، شيخ الرفاعيين باباً عالياً في قصر السلطان .

وبعد هذا يقولون : التصوف علم ، ويقولون : قاعدة ؟؟

فأين هو العلم في هذا التصوف ، وأين القاعدة فيه ؟!

لقد ظهر علم التصوف ، ولكن في الشعوذات التي يعدونها كرامات ، أنكرها عليهم الأسفراييني ، وقال : انها من عمل أهل الكذب ، وأنكرها عليهم السقطي شيخ المتصوفين ، فقال : المتصوف لا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله .

حدث الجريري عن التصوف خلال أربعة قرون فقال :

تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدِّين حتى رق الدين .

ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء ، حتى ذهب الوفاء .

ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة ، حتى ذهبت المروءة .

ثم تعامل القرن الرابع بالحياء ، حتى ذهب الحياء .

ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

هذا ما انتهت إليه أحوال التصوف خلال أربعة قرون في حديث الجريري ، وهذه هي نتائج التصوف خلال كل قرن من القرون الأربعة، فماذا يعني بعد القرن الرابع .

إذا كان الدين والوفاء والمروءة والحياء هذه المزايا الأربع زالت من الصوفية ، صوفية الأولين ، فبماذا يتصوف المتأخرون ؟!

أليس يعني هذا : أن الصوفية، بعد القرن الرابع الهجري اتخذت مساراً جديداً غير المسار القديم ، وتبدلت فيها الأحوال والأعمال .

فقد صار الخوف فيها ، بدلاً من أن يكون من الله صار من الناس وبدلاً من أن تكون الرغبة في مرضاة الخالق ، أصبحت الرغبة في استرضاء أبناء الدنيا من الخلائق ، وكأنه يرى : أن الصوفية كانت سبباً في ذهاب الوفاء والحياء والمروءة ورقة الدين ، وهذا ما جعلها جماهيرية عامة بعد انفراديتها وخصوصيتها ، وتحولت إلى أجنحة متواكلة يعتمد أشخاصها على التكايا ومطابخ التكايا ، راضية باللقمة الذليلة ، بديلاً عن الحياة العزيزة ، وأعرضوا كل الأعراض عن الفكر والعلم مكتفين بما يتنافسون به من كرامات مشايخهم المشعوذين وبما يطلقونه من لحى ومسابح طويلة وتمتمات في الشفاه غير معلومة .

وإذا كانت في منتصف القرن الثالث الهجري ينظر إليها : أن فيها

من التقشف ، وشدة السلوك ، ما لم يأت به شرع" ومن التدقيق ومحاسبة النفس ، ما لم يأت به أمر .

فماذا نقول عنها الآن ، بعد أن أصبحت طرائق ، وليست علماً ، طرائق تنسب إلى رجالها ، لا إلى رسول الله ، ولا لأحد من صحابته بل حملت أسماء معينة أصبحت تعرف بها .. فهذه رفاعية ، وهذه نقشبندية ، وهذه مولوية ، وهذه بدوية ، وهذه دسوقية وهذه وهذه..

قال أبو نصر السراج ، سئل ابن الجلاء : ما معنى صوفي ؟ ! **فقال : ليس نعرفه في شرط العلم ، ولكن نعرفه فقيراً ، مجرداً من الأسباب ، كان مع الله تعالى بلا مكان ، ولا يمنعه الحق سبحانه من** علم كل مكان ، فسمي صوفياً .

فلو كان ابن الجلاء في عصر اصحاب هذه الطرق ، وسئل عنهم فماذا كان يقول فيهم ، وبأي صفة يعرفهم ، وقد ذهبت كل الصفات والشروط ، وتغيرت جميع المعالم .

إن شيوع هذه المذاهب المستحدثة في عهد العثمانيين خلافاً لما كانت عليه في العصور الأولى ، له علاقة بتثبيت سياستهم في العالم الاسلامي ، وكان هذا تصوري منذ شرعت بالكتابة عن الصوفية في هذا الكتاب .

تصورت انها نشات احتجاجاً على المجتمع المسيَّس المغلوب بارادة غلبت عليها النزعات الانخلاعية في بغداد ، وبهذا لا اكون وحدي بل جميع من التقي معهم في هذا القول ، كلنا اخذنا براي ابن خلدون وتعاطفنا معه ، وهو اقرب ما يكون في هذا الموضوع .

* * *

التصوف الفارسي

وَصلته بالفلسَفة العرفانيّة

التصـــوف الفـــارسي

وَصلته بالفلسفة العرفانية

التصوف عند الفرس ، هو اسم الكتاب الصـادر عن مؤسسـة (كتابك) في جمهورية مصر العربية برقم (٦٢) لعام ١٩٧٨ م تأليف الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا ، ولعله احـد المنتسبين الى عائلـة الدسوقي صاحب الطريقة في مصر .

الكتاب يتألف من ثلاثة فصول بل مباحث :

١ ـ منابع التصوف عند الفرس .

٢ ـ نظرة على أهم تيارات التصوف الفارسي .

٣ ـ لغة القرآن وأثرها في التصوف الفارسي .

واننا بعد ان نورد هذه المباحث الثلاثة، سنعرض لعلاقتها بالتصوف عند العرب ، ونتعرف على مستقيات كل منهما من الآخر .

قال المؤلف بالنسبة للبحث الأول :

١ ـ التصوف الاسلامي ، تجلت فيه اسهامات الايرانيين في أروع صورها ، ومن نافلة القول ، أنه من العسير على الدارس ، أن يتناول التصوف الاسلامي دون أن ينظر نظرة متفحصة إلى جانبـه

الفارسي ، فقد ظل التأثر والتأثير بين الجانبين سائداً طوال العصور ، في صورة التبادل المستمر في تيار حي ، وقد تجلى هذا التبادل في فترة النشأة . وفي فترة الازدهار بل في فترة الانهيار .

وساعد على ذلك ، أن اللغة الفارسية ، قد انتشرت في منطقة واسعة من العالم الاسلامي ، تمتد من الهند إلى العراق العجمي ، وآسيا الصغرى .

ومن ثم ، فإن هجرات الطرق الصوفية ، فضلاً عن هجرات الأفكار الصوفية تمثل فصلاً شائقاً من فصول سريان التيار الصوفي في العالم الاسلامي وكانت العوامل السياسية ، الى جوار سنّة الحضور على شيخ تمثل الدافع لهذا الانتقال المستمر .

وأثبت التصوف الاسلامي ، أنه أقدر تيارات الحضارة الاسلامية على التأثر بالبيئة التي يحط فيها رحله ، وعلى امتصاص أكبر قدر من سماتها البيئية ، والحضارات المولية ، والقديمة فيها .

ولا يفرض الجانب الفارسي للتصوف الاسلامي نفسه ، من حيث أنه طرح كمصدر من مصادر التصوف الاسلامي ككل فحسب ، بل لأن هذا التيار وان مثل جزءاً من كل ، كان في ذلك الجزء الذي يمكن أن يلاحظ تميزه بسمات خاصة ، فالى جوار غلبة الجانب العاطفي والشعري على التصوف الفارسي يتميز أيضاً بأنه اختص بأفكار خاصة ، كانت أقرب الى الفلسفة منها إلى السلوك .

ويطلق الباحثون من الفرس ، على التصوف الفارسي ، اسم العرفان وواضح ، أن المصطلح قريب من المعرفة ، قاصدين بذلك ، أن السمة التي تميز التصوف في ايران ، تصوف فكري ، أكثر منه تصوفاً سلوكياً .

وسنرى ، أن شعراء التصوف الكبار في ايران ، قد خاضوا أكثر ما خاضوا ، في موضوعات فكرية ، وان التصوف ، كل ما كان يتطور في ايران ، كان يبتعد عن الاهتمام بمسائل السلوك ، بقدر قربه من مسائل الفلسفة .

وان الاهتمام بالعرفان ، بدأ عند فلاسفة ، مثل (ابن سينا) وانتهى بفلاسفة ، مثل (مثلا صدرا) .

كما أن الشعر العرفاني ، يمثل أكثر من ثلثي الشعر الفارسي .

٢ ــ لم يدخل الاسلام ايران على فراغ ، فعرفان شيوخ ايران قد صبت فيه روافد عدة ، فتراث أمة من الأمــم ، لا يموت بمجرد الغزو ، أو الدخول في دين جديد ، بل يبقى كنار تحت الرماد يشع عند أول ريح ، جنباً الى جنب التيارات الجديدة .

هذه حقيقة لا تنكر ، وان أنكرنا بعض المبالغات التي وقع فيها مستشرقون ، من أمثال (جولد تسيهر) ، الذي صور تصوف اختلاف أهل الصفة ، عن تصوف أبي سعيد ، أو (بابا طاهر) بأنه يرجع الى عظمة الجنس الآري ، دون نظر إلى عوامل التطور الفكري ، كـــان لا بد أن تختلف روح التصوف في ايران ، والروح في بيئات التصوف الأخرى ، فمن المعروف ، أن ايران ، كانت لفترة طويلة ، قبل الاسلام ملتقى الحضارات ، كما نشأ فيها عدد من الديانات ، ظل تأثيرها إلى ما بعد دخول الاسلام .

هذه الروافد الكثيرة ، وبنفس نسبتها ، ان لم تزل روح الاسلام العالمية السمحة ، التي تقبل ما يناسبها ، وتستوعبه ، وتذيبه في تناسق فكري ، وعاطفي ، إلى جوار الظروف والعوامل النفسية والتاريخية التي تدخلت في تكوين النفسية الايرانية ، كونت الجانب الفارسي من التصوف الاسلامي .

المطابقة بين سيرة ابراهيم بن الأدهم، وسيرة بوذا

كان تأثير النحل الهندية في التصوف الفارسي عميقاً، ليس من حيث مطابقة بعض سير الصوفية، وأشهرهم ابراهيم بن الأدهم، لسيرة بوذا فحسب، بل في كثير من تفصيلات أفكاره.

فالوصول إلى الله، أو الحق، أو المطلق، عند الجوكيين الهنود يمر بمرحلتين :

١ ـ (السمبراكناتا) أي تركيز الخاطر في نقطة واحدة.

٢ ـ (الاسبمراكناتا) أي التجاوز عن صور الذات، والغوص في فكر الذات العليا.

والمرحلة الأولى عند متصوفة المسلمين، تسمى بمرحلة جمع الخاطر.

أما الأخرى، فتسمى بالمراقبة..

وإلى جوار ذلك، فإن الجانب الخاص، بعقيدة قتل النفس عند الجوكيين الهنود، وعند متصوفة المسلمين واحد.

جاء في (الريجويدا) : أن الذي يسلك طريق السلام والصدق والوفاء، ويكتسب جمع خاطره، ويفكر في (برهما) صباح مساء يوفق في قتل نفسه الآثمة، ويستطيع أن يقاوم الموت.

من هنا جاءت فكرة الموت قبل الموت، التي روى لها المتصوفة حديثاً نبوياً، هو : (موتوا قبل أن تموتوا).

وغني عن الذكر، أن الحالة الناشئة عن (نرفانا بوذا) تشبه كثيراً حال الفناء عند المتصوفة المسلمين، وبحال الفناء هذا يستطيع الصوفي، أن يقوم بأشياء وأفعال خارقة للعادة، دون أن يصيبه أذى.

مما روي عن صوفية المسلمين ، وجوكية الهنود على السواء •
كانت ايران هي معبر كل هذه الأفكار إلى البيئة الاسلامية ، كما روي أن الحلاج قد سافر إلى الهند ، وقد امتزج التصوف الاسلامي بالتصوف الهندي ، بعد تكوين الدولة الاسلامية المغولية في الهند •

ويتجلى هذا الامتزاج في طريقتين صوفيتين ، انتشرتا في الهند، ولا يزال لهما أتباع فيها إلى عصرنا الحالي •• الطريقة الجشتية والطريقة القادرية ••

ويمكن البحث عن تأثير الطريقة الجشتية في شعر الشاعر الفارسي الهندي (أمير خسرو) الدهلوي المتوفى سنة ٧٢٥ •

أما التأثير الهندي الخالص ، فيمكن أن يستدل عليه في شعر الشاعر المسلم الهندي (ميرزا أسد الله غالب) المتوفى سنة ١٢٨٥ هـ•

وقد أفاض الحديث عن هذا الامتزاج بين المتصوفين ، الامير المغولي المسلم (محمد داراشكوه) في كتبه الكثيرة التي كتبها بالفارسية ، ومن أهمها (سفينة الأولياء) التي أرخ فيها للطرق الاسلامية الصوفية ، مع تركيز خاص على تلك التي نشأت في الهند •

الفلسفة الأفلاطونية
والتصوف في ايران

يرى المؤلف : أن الفلسفة الأفلاطونية ، كانت ميداناً أعظم امتزج به التصوف الاسلامي في ايران ، وكان من نتاجه المباشر ظهور العرفان الفارسي(١) •

(١) العرفان في اللغات الأجنبية يسمى الغنوص، والكلمة يونانية الأصل ومعناها المعرفة ، وقد استعملت ايضاً بمعنى العلم والحكمة وخاصة بالأمور اللاهوتية .

وبدخول ايران امبراطورية الأسكندر اجتمع الفكر اليوناني العقلي ونزوع الروح الشرقية للبحث فيما وراء العوالم المادية .

ويقول المؤلف : وقد تحدث شعراء الفرس المتصوفة كثيراً عن موضوعات الأفلاطونية المحدثة ، من قبيل وحدة الوجود ، واتحاد العاقل والمعقول وفيض عالم الوجود من المبدأ الأول ، وسجن روح الانسان في البدن وتلوثها بأدران المادة ، وميل الروح للعودة إلى وطنها الأول ، والطريق الذي ينبغي عليها أن تقطعه في عودتها ، واتصاله بالمبدأ الأول ، والعشق والمشاهدة والتفكير في الذات ، والرياضة ، وتصفية النفس ، والوجد ، والسكر الروحاني والوله والغيبة عن النفس ، ومحو التعيينات الشخصية التي تعد حجاباً كثيفاً يمنع الاتصال في الله ، وفناء الجزء في الكل فناءً تاماً .

ولا يمكن فهم شعار (سنائي) و (العطار) و (الرومي) دون فهم لتاسوعات (افلوطين) ، كما كانت أفكار أفلوطين عن المبدأ الأول والعلة الأولى ، أو الواحد المطلق ، وفيض الموجودات كلها عنه ، في جدول تنازلي ينتهي عند الانسان ، أي المعلول المطلق ، وقوله : إن على الانسان لكي يصل إلى المعرفة الحقة، أن يعكس قوس النزول هذا بقوس صعود على درجات الفن ، والعشق ، والحكمة ، ذلك الفن الذي يبعث الوجد والشوق والعشق الذي يحرك في النزوع الى المنشأ ، والحكمة ، أي العشق الكامل .

كانت هذه الأفكار أساس الموضوعات التي خاض فيها عرفان ايران ، وذلك إما عن ترجمات أصولها ، أو عن تفسيرات الفلاسفة المسلمين لها ، أولئك الفلاسفة الذين تعد كتبهم بعض منابع العرفان .

ـ ابن سينا :

ذكر في كتابه منطق المشرقيين ، أن الحكمة المشائية هي حكمة العوام ، وأنه في سبيله إلى الحديث عن حكمة الخواص ..

ـ السهروردي :

يقول : إن ابن سينا لم يحصل على منابع هذه الحكمة وان ابن سينا وضع لبنة في بناء هذا الأساس ، وهي رسائله :

١ ــ حي بن يقظان •

٢ ــ رسالة الطيــر •

٣ ــ سلامان وابسال •

٤ ــ رسالة في العشق •

ولم تغب هذه الرسائل عن خواطر متصوفة الفرس ، فكتب فريد الدين العطار ، (منطق الطير) ترجمها إلى العربية ، بديع جمعة ، ونظم عبد الرحمن الجابي (سلامان وابسال) ترجمها عبد العزيز مصطفى •

وغير ابن سينا ، ساهمت جماعة (اخوان الصفا) في تقديم الفلسفة الأفلاطونية ، وتوفيقها ، أو تلفيقها ، بالدين الاسلامي •

كما كان لكتابات الاسماعيلية ، أثر كبير" في هذا المجال ، ولا يمكن أيضاً انكار أثر الغزالي هنا ، وخاصة في مؤلفيه : (الرسالة اللدنية) ، و (مشكاة الأنــوار) اللتين أثرتا مباشرة في أعمال السهروردي المقتول ، في هذا المجال •

ويعدُّ شهاب الدين ، يحيى بن حبش السهروردي ، صاحب النصيب الأكبر في مزج هذه الحكمة بالدين الاسلامي ، وفي ارساء أساس العرفان ، وخاصة في رسائله القصيرة ، التي كتبها بالفارسية، مثل (العقل الأحمر) و (حفيف جناح جبريل) و (لغة النمل) و (ذات يوم مع جماعات الصوفية) ، (وصفير العنقاء) •

والواقع : إن السهروردي ، يعدُّ منشىء الفكر الايراني في القرون السبعة الأخيرة ، فقد جمع في فكره كل روافد الفكر الايراني• كما كان يعتبر (الذوق) هو وسيلة المعرفة •

ولعل النهاية المفجعة ، التي انتهى إليها السهروردي في صدر شبابه ، جعلت مدرسة أخرى أكثر اعتدالاً في مزج التصوف بالفلسفة تسود العالم الاسلامي ، وهي مدرسة محي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، الذي وضع نظرياته عن وحدة الوجود ، واتحاد العاقل بالمعقول ، على أسس سابقة ، ثم حملها تلاميذه من الفرس إلى الآفاق، ومن أهمهم :

صدر الدين القونوي ، وعبد الرزاق الكاشاني ، وفخر الدين العراقي •

وتأثر بها أكثر عارفي ايران من أمثال :

سعد الدين حموية ، وعزيز النسفي ، ومحمود الشبستري ، وعبد الرحمن الجامي ، ويعد جلال الدين الرومي ، من ألمع من تأثر بهذه المدرسة •

والخلاصة :

إن المدرسة الأفلاطونية المحدثة ، كانت أقوى المدارس تأثيراً في بنية العرفان الايراني •

وعلى يد نصير الدين الطوسي سنة ٦٧٢ هجرية ، امتزجت أفكار هذه المدرسة والمذهب الشيعي لأول مرة ، وذلك في كتابه (أوصاف الأشراق) ، واكتمل هذا الاتجاه ، على يد عدد من مفكري الشيعة من أمثال ، قطب الدين الرازي ، وغياث الدين منصور دشتكي ، وأثير الدين أبهري ، وجلال الدين الدواني •

ومن ناحية أخرى :

واصلت مدرسة ابن عربي تطورها في ايران على يد سيد حيدر الأملي صاحب (جامع الأسرار) وابن جمهور صاحب كتاب (المجلّى) وابن تركة الأصفهاني ، صاحب (شرح فصوص حكم) وتمهيد القواعد •

وعند مدرسة (ملا صدرا) المتوفى سنة ١٠٥٠ هجرية اكتملت هذه الحلقة من توفيق الفلسفة بالدين ، بأسلوب عرفاني ، واستطاعت هذه المدرسة أن تواصل الفكر العرفاني في ايران إلى القرون الأخيرة ومن أهم أعلامها : محسن فيض المتوفى سنة ١٠٩١ هجرية وغيره •

الجدير بالذكر ـ كما يقول المؤلف ـ أن أغلب مفكري ايران من المتصوفة كانوا بالرغم من هذا التأثر الواضح بالفلسفة ، يحملون على الفلاسفة ويكفّرونهم ••

ومن ثم ، قدم العرفان الايراني ، شهداء ظلوا دائماً بمثابة الضمير ، أو المثال الذي يحتذى •

وأشهر هؤلاء الحسين بن منصور الحلاج ، وشهاب الدين السهروردي ، وغيرهم ••

وهناك مدرسة أخرى ذات تأثير ، غامضة إلى حد ما ، وهي المدرسة الهرمسية[١] ، نتجت عن امتزاج الفكر اليوناني بالفكر المصري ـ الفرعوني في الاسكندرية ، ثم انتقلت إلى شعوب البحر المتوسط وايران وكان أغلب تأثير (الهرمسية) في ميدان العلوم العملية والعلوم القريبة • فهرمس ، أو ادريس النبي عند المسلمين ، كان يعد دليل الكيمياء الانسانية والقوى النفسية ، التي تعد جسراً بين

---

(١) هرمس هو ادريس عند المسلمين واليه ينسب علم النجوم •

العالم المحسوس والعالم المعقول • وقد أسند إليه (ابن النديم) في الفهرست ، وضع اثنين وعشرين رسالة في فنون العلم المختلفة ، وقد ترجم له فضل الدين الكاشاني كتابه المسمى (زجر النفس) ، إلى اللغة الفارسية •

وإلى هرمس وكتاباته يرجع جنوح عارفي المسلمين إلى (النيرنجات) و (الطلاسم) والعلوم العربية التي عدت في عصر من العصور من مستلزمات العارف أو المتصوف ، بل ان بعض كتب جابر بن حيان ، وهو يذكر كصوفي من نوع خاص ، تذكر فضل هرمس عليه ، وفي هذا المجال ، يذكر أن مزج ذي النون المصري للتصوف بالكيمياء كان من تأثير أفكار هرمس عليه •

وكان ذو النون شيخاً لعدد من المتصوفة الايرانيين ، منهم على سبيل المثال : (سهل بن عبد الله التستري) و (عباس بن حمزة النيسابوري) و (يوسف بن الحسين الرازي) كما نقل هذا الأخير عن الفلسفة الهرمسية ، عجز القياسي الأرسطي عن الوصول إلى الحقائق الالهية تلك الفكرة التي أثرت في الحلاج والخراز وفكرة أخرى من الهرمسية ، سادت الفكر الشيعي ، وخاصة الاسماعيلي ، وتسربت إلى العرفان ، وهي :

فكرة المطابقة التامة بين العالم الصغير ، أي الانسان ، وبين العالم الكبير ـ أي الكون •

هذه الفكرة يمكن تتبع أصولها عند المفكر الاسماعيلي العظيم (ناصر خسرو) سنة ٤٨١ هجرية •

ومنه انتقلت إلى الصوفية المتأخرين وفصلت تفصيلاً شديداً عند محمود الشبستري في منظومته (كلش راز) أي (روضة السير)•

وهرمس من القائلين : إن الذات الالهية أعلى من كل استدلال ومنطق ، وان طريق الوصول إليها هو الزهد ، وتهذيب النفس ، ثم الشهود والاشراق •

وهذه الفكرة تتفق تماماً مع ما يراه العارفون[1] •

ثم قال: وإلى جوار هذه المذاهب الوافدة التي استوعبها متصوفة ايران ، وألبسوها ثوباً اسلامياً ، كان في ايران بقايا مذاهبها الخاصة قبل الاسلام ، وما يهمنا في هذا المجال هما : (الزردشتية) ، و (المانويـــة) •

أما الزردشتية ، بالرغم من كونها ديانة عملية ، تمجد القـــوة وتهتم بالواقع الانساني ، أكثر من اهتمامها بعلاقة الانسان بما هـــو خارج ذاته ، فانها تعرضت بشكل ما لمشكلة المصير الانساني واهتمت بجوانب أخلاقية نابعة من تفكير القوم آنذاك •

وفي كتاب زردشت (الابتساق) الحاح مستمر على جانب التطهر فيما يتعلق بجميع جوانب حياة الانسان •

وعنـــد الزردشتيين : أن القوتيـــن ، الخيّرة (الأسبنتامينو) والشريرة (الانكره مينو) في كل انسان ، لكن عليه أن يقاوم القوة الشريرة ، حتى يخرج بالقوة الخيّرة من حد القوة إلى حد الفعل •

من أهم الجوانب التي خاض فيها متصوفة ايران : الصراع بين قوتي الخير والشر داخل الانسان •

التصور الزردشتي لعالم الدين المملوء بالنور والملائكة بالقوة ، والملائكة بالفعل ، كنزاً من الكنوز التي اشتق منها الصوفية رموزهم،

---

(١) هرمس والنفري يتلاقيان في منعطف واحد بالنسبة لهذا الكلام.

وان دراسة عرفان السهروردي المقتول دون دراسة الزردشتية ، وعواملها دراسة ناقصة •

وإلى جوار ذلك ، فإن عقيدة (الدشنا) الزردشتية ، والقائلة بأن روح الانسان قبل حلولها في البدن ، كانت تنزل في عالم الملكوت وبعد هبوطها انقسمت قسمين :

قسم" حل في البدن ، وقسم آخر بقي في صورة ملك لتلك الروح في العالم الباقي ، ليرعى نصفه الذي حل في البدن ، ويجاهد في هدايته الى عالمه الباقي •

هذه العقيدة ، كانت منشأ الحديث عن غربة الروح في عالم الأرض وحنينها الدائم إلى العالم الملكوتي ، والذي خاض فيه متصوفة الفرس • وأخيراً ، فان مصطلحات الديانة الزردشتية ، مثل المجوسي الكبير ، ومعبد النار ، والخرابات كانت المعين الذي شتق منه شعراء الصوفية الفرس رموزهم •

إن غنى عالم الروح في الديانة الزردشتية ، كان يُغري بتصور رحلات إلى هذا العالم ••

هذه الرحلات ، سميت بلغة الصوفية الفرس ، بالمعارج وان لمعراج (سنائي) تأثيراً في كوميديا (دانتي) : لا في الجو العام فحسب بل في بعض التفصيلات ••

ومن الجدير بالذكر ، أن من بين التهم ، التي كانت توجه (للحلاج) الترويج للمجوسية والالحاد ، والايمان بالأصلين •

وعالم شطحات أبي يزيد البسطامي ، يكاد يكون عالماً (زردشتياً) أما الديانة (المانوية) فتعد من أهم الديانات القديمة التي اهتمت بالجانب الروحي من حياة الانسان •

ومعظم ما يراه الباحثون من تأثيرات المسيحية ، إنما هو من تأثير المانوية .

كان اهتمام المانوية بالمعرفة (الغنوص) ملمحاً بارزاً ، ميزها عن الزردشتية ، كما كانت المانوية من أوائل الديانات التي ميزت بين نوعين من العبادة ، عبادة للعوام ، وعبادة للخواص ..

وعبادة الخواص ، لا يقدر عليها إلا المخلصون ، وكانت هذه العبادة نوعاً من السلوك الصوفي .

كان الصوم عندهم نوعاً من الطوى الذي كان ميداناً رحباً من ميادين التصوف الاسلامي ، كما كان هؤلاء ممنوعين بأمر الدين من الزواج والتملك ، وأكل اللحم ، وكان هدفهم من كل هذا منحصراً في تحرير الروح عن طريق المعرفة القائمة على سلوك ديني ، وتعبدي ؛ ورياضي صوفي ..

ومن ثم لا يستبعد ، أن يكون الزهد الفلسفي المانوي ، أحد مصادر التصوف الاسلامي .

كان الهدف من حياة الانسان عند (ماني) هو أن يكافح عن طريق النور الذي في داخله (الروح) ضد الظلمة (المادة والجسد) .

وقد ترجمت هذه الفكرة عند عارفي ايران ، بأن الانسان روح لطيفة" ، حبست في بدنٍ كثيف ، ولا تنجو الروح إلا عن طريق السلوك والعشق ، وإلى جوار كل هذا التراث ، وبسيطرة أشد ، كان الاسلام ، فهو المنطاق الرئيسي ، والبوتقة التي تفاعلت فيها كل هذه الأفكار ، والاطار الذي ضمها ، وألف بينها ، وحوّزها ، ومنحها الروح ، فالعارف مسلم" وموحد" ، قبل كل شيء ، ولم يكن من المستطاع أن يحط العارف من قدر الشريعة ، أو يتجاهلها ..

فإذا كانت الطريقة هي القلب ، فان الشريعة هي التي تحقق التوازن الذي به يتم للطريقة سيرها ، وهي التي تمهد للطريقة الطريق ..

هذا وان عبر بعض العارفين بأن الطريقة (اللب) في مقابل الشريعة التي هي (قشر) .

أو أن الشريعة (ظاهر) في مقابل الطريقة (الباطن) ، فانهم قالوا أيضاً : إنه لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وبوجود التأسي والقدرة تتم عناصر السلوك العرفاني .

وقد خاض الصوفية في مشكلات كلامية ، عند مناقشتهم التوحيد والشهادة .

(لا إله إلا الله) دستور شامل" متعدد الأطراف ، يحصر الصوفي في دائرة (الله) ويقطعه عن الأغيار .

والشهادة ، من نفي واثبات ، فكأنه لا يوجد اثبات كلي ، إلا بعد نفي كلي ..

والله ، فحسب ، هو صاحب الوجود الحقيقي ، وكل ما سواه ذو وجود ظلي ، والعالم كله ، فاض عن ذاته ، كما تفيض الشمس بالنور ، والله ، نفث في الانسان روحه ، وكرمه على كل المخلوقات ومن ثم ؛ فالانسان مسؤول ، نتيجة لهذا التكريم .

والعبادات ، ظاهر ، وباطن ، وباطنها الحق ، أما ظاهرها فهو حجاب .. واهم تفصيل لبواطن العبادات ورد في (كتاب كشف المحجوب) للهجويري ، وكلام الله القرآن ، ذو ظاهر وباطن ، بل : إن له سبعة ابطن ، كما ذكر (سنائي) وجلال الدين ، وهو يخضع للذوق ، لا للعقل ، وحروفه حجاب" عليه .

وقد استخرج الصوفية ، أصول كل مقاماتهم ، وأحوالهم من القرآن ، وذلك لوضع أساس للطريقة من الشريعة ، ولهم عليه تفاسير وتأويلات خاصة بهم .

وبعد التوحيد والقرآن ، يأتي دور الرسالة ، وقد نال الرسول عند الصوفية مكانة ، لا تدانيها مكانة ، فهو أولهم وإمامهم ، ورأس طرقهم على اختلافها .

وهو الانسان الكامل ، وفكرة النور المحمدي ، التي يسند الحديث فيها ، إلى ابن عربي ، تحدث عنها (سنائي) قبله بقرن كامل .

فالرسول ، أول الأنبياء خلقاً ، آخرهم بعثاً ، وكان نبياً ، وآدم بين الماء والطين ، وهو أول الفقراء والمفتخر بالفقر .

وقد وضع الله تعالى علماً خاصاً في قلبه ، وعلّمه الحقائق الأزلية ، وهو الغرض من خلق الانسان ، وبه يتم خلقه وهو المختص برتبة قاب قوسين ، من بين الملائكة والأنبياء وهو المتوسط بين المخلوق والخلق ، وشرعه فوق العقل .

ولا تقل أحاديث الرسول عند الصوفية مكانة عن القرآن الكريم .

وبالطبع كانت فرصة الصوفية في وضع الأحاديث النبوية أكثر أمناً ، ومن ثم تتكرر بعض الأحاديث النبوية بنصها ومعانيها في كل كتب الصوفية ، كما استوحوها أيضاً حكاياتٍ وأمثالاً ..

ولا يقتصر دور القدرة هنا على الرسول ، بل يتجاوزه إلى الصحابة وكل صحابيّ يمثل قيمة من قيم التصوف ، وكلهم عارفون واصلون لأنهم أدركوا قبساً من نور النبوة الساطع .

ولا توجد طريقة صوفية ، لم تسند فرقتها إلى أحد الصحابة ، وكان للامام علي النصيب الأكبر[1] بحيث أنه عوض حكم الدنيا بحكم الدِّين ، وعنه انتقلت الطريقة والعلم الباطني ، عن طريق سلمان الفارسي ، وحبيب العجمي .

وإلى سلمان يسند تنظيم الطرق الذي انتقل أيضاً إلى نقابات الحرف والصنّاع ، وخلال تطور التصوف كان يخلق قدواته الخاصة به ، كالحلاج وغيره ..

وبعد أن تكتمل حلقات الشريعة ، من توحيدٍ ، وتأسٍّ ، وقدوة يبدأ دور الطريقة ، ولا بد من التوفيق بينهما .

ومن هنا أصر العارفون ، على أنه لا يمكن الطريقة أن تبدأ دون الشريعة ، والطريقة بلا شريعة نوع من المروق ، لا يوصل إلى الحقيقة ، وأكثر الصوفية شططاً لم يتخلَّ عن الشريعة ، مهما وصل في الطريقة .

والملاحظ هنا ، أن بعض المسالك المتطرفة مثل (القلندرية) لم يقم أتباعها مثل الخيّام ، وحافظ ، بالهجوم على الشريعة ، بل كان هجومهم كله منصباً على فقهاء الشريعة المرائين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، والتناسق بين الشريعة والطريقة هو الذي يوصل إلى الحقيقة ، ويرمز لها جميعاً ، كما قال سيد حسين نصر .

فمن أي نقطة في الفضاء يمكننا أن نرسم دائرة ، وأن نمد عدداً غير محدودٍ من الأشعة ، تصل كل نقطة إلى محيطها بمركزها .

---

(١) يقول عبده حسن الزياح شارح ، بل صاحب مقدمة نهج البلاغة : ان قول الامام : (من أصبح يشكو مصيبة نزلت به ، فقد أصبح يشكو ربه) مما يشبه كلام الصوفية .

والمحيط ، هي الشريعة التي تشمل بمجموعها الأمة الاسلامية كلها ..

وظهرت الطرق الصوفية ، وبينما كانت البداية تجمعاً فكرياً ، أصبحت تجمعاً فحسب ، وبينما الصوفي في البداية يسيح في البوادي، على التوكل ، يرفض صحبة الخضر ، وهو المرشد الأول ، أصبح يمر في سلاسل بشرية ، من غوث ، وقطب ، وبدل ، حتى يصل ، ولكن للطرق الصوفية ، ومن أهمها (الكيروية) ، والمولوية ، والجيلية ، والنقشبندية ، حسنات ، وهي أنها أسهمت في نشر الاسلام ، في أماكن كثيرة من العالم ، وحفظت أصول التصوف ـ على الأقل ـ من الزوال في أشد العصور ظلاماً ..

ـ التصوف وصلته بالتشيع ـ

ولا نستطيع أن نترك الجانب الاسلامي في التصوف الفارسي دون أن نشير إلى قضية التصوف ، وصلته بالتشيع ..

وتميل الأبحاث الايرانية المعاصرة ، إلى الحديث كثيراً عن هذا الجانب وأسندوا إلى الأئمة ، معظم أصول العرفان .

وليس هنا بالطبع مجال الحديث عما قيل بشأن الصلة بين التصوف والولاية ، وبين التشيع والإمامة ، أو عصمة الأولياء ، وعصمة الأئمة ، أو التأويل الصوفي ، والتأويل الشيعي .

فكل هذا يمكن الرجوع إليه في أبحاث أكثر افاضة ، وجدير بالذكر ، أن كل هذه القضايا ، قد ثارت مؤخراً ، فلا يمكن أن نلمح أي حديث عن الانحياز إلى مذهب دون الآخر ، عند كبار الصوفية ، مهما تعسف مؤرخو الشيعة في نسبتهم إلى التشيع .

ولعل (سنائي) المثال العظيم على ذلك ، فقد تحدث عن الصحابة والخلفاء ، وآل البيت ، وأئمة الفقه الأربعة ..

وكانت هذه القضية أيسر من أن تأخذ حيزاً من الاهتمام الصوفي، أو العارف الذي جعل العشق ديدنه ، وجعل قلبه قابلاً لكل صورة .

يقول مجد الدين البغدادي في كتابه تحفة المبررة : إن على الصوفي أن لا يميل إلى مذهب بعينه ، بل عليه أن يوفق بينها جميعاً، **أما ما يعمد إليه بعض الباحثين المعاصرين (؟) من تحميل هؤلاء فوق ما كانوا يقصدون ، أو نسبة بعض الصوفية ، إلى الأسماعيلية لمجرد حديثهم عن المراتب ، والتشابه بين العالِم الصغير ، والعالِم الكبير .** فتعسف" لا مسوغ له ، فهذه الأفكار ، أقدم من التشيع عموماً ، ومن الاسماعيلية خصوصاً ..

ثم قال في البحث الثاني :

نشأت الحركة الصوفية المتطورة في البصرة ، وهي بيئة شبه فارسية ، وإن بداية التعمق الصوفي ، والاغراق في الرمز ، وما عرف بالشطح ، كان على يد أبي يزيد البسطامي ، وهو من أصل فارسي .

من أهم متصوفة ايران في القرن الثالث الهجري : أبو تراب النخشبي ، وأحمد بن خضرويه البلخي ، وأبو حفص الحداد ، وحمدون القصار ، وأبو عثمان الحيري ، النيسابوريين ..

كان للتصوف مدرستان : احداهما في بغداد ، والثانية في خراسان .. وقد تجاوزت مدرسة خراسان موضوعات الصوفية الأوائل التي كان أغلبها يدور حول الزهد، والخوف، والرجاء، إلى موضوعات أخرى تتصل اتصالاً مباشراً بالمعرفة والفناء والوحدانية ..

عاش الحلاج في أوائل القرن الرابع الهجري ، من أهم الصوفيين الايرانيين في هذه الفترة ، الرابع والخامس الهجريين : أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي في الري ، أبو بكر الورّاق الترمذي في بلخ ، أبو الحسن بندار في ارّجان ، أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي في شيراز •

ـ الرقص في الطريقة المولوية ـ

كان جلال الدين الرومي ، يؤمن بقدرة الموسيقى ، أن توصل ، ما لا يمكن للكلمة أن توصله ، وكان يقول : (إن المقال هو آفة الحال)[1] وان اللغة لا تستطيع التعبير عما يجول في خاطره من معانٍ ، وطالما شكى من الوزن والتفعيلات التي تمنعه من الانطلاق •

الرقص المولوي ، يعبر عن أفكار جلال الدين بشأن وحدة العوالم وهو رمز" عن الحركات الدورية ، للأفلاك ، والكواكب ، وعن الروح الثملة بالعشق الإلهي ••

ثم قال عن تقلص الصوفية في ايران ونشاطها في الهند : يلاحظ انه منذ قيام الدولة الصفوية في ايران ، من اوائل القرن العاشر الهجري ، زاد الانتاج الصوفي ضمن اجراءتها لقصر التيار الثقافي على نشر المذهب الشيعي ••

---

(١) هذا هو منطق (النّفري) بعينه ، وهو يدعى محمد بن عبد الجبار من بلدة (نفر) أو نيبور ، بجوار بابل او الكوفة ، على قول ياقوت الحموي وهو صاحب كتاب المواقف توفي عام (٣٥٤) هجرية .
كان يقول (الحرف حجاب) و (أوائل الحكومات أن تعرف بلا عبارة) .

حافظ الشيرازي ، فسر البعض ، ان معانيه تحمل هجوماً ظاهرا على التصوف .

الى هنا ونكتفي بما أخذناه عن هذا الكتاب ، وقد تعمدنا أخذ هذا المقطع الطويل حرصاً على ما فيه من معلومات قصرت عنها أقلام الآخرين وسنوالي مناقشة هذه المعلومات في الصفحات التالية .

* * *

مَع .. وحَول .. التصَوّف عندَ الفرُس

تعليقات ومناقشات

مَع .. وَحول .. التصوّف عندَ الفرُس

تعليقات ومناقشات

الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا ، ساق إلينا في هـذا البحث المستفيض عن التصوف عند الفرس ، أشتاتاً من المعلومات التاريخية والعقلية ، والنظرية ، والعلمية ، وآلفها جميعاً في خلاصة محكمة أكدت الروابط الأساسية في الأنطلاقة التصوفية .

فهو عندما يعاني المطابقة بين ابن الأدهم ، وبوذا ، لم يخرج عن تحديد المنابع الأساسية لهذه الانطلاقة ، واستظهر ذلك من التأثيرات الواضحة التي واءمت بين سيرتيهما ، وإن كان ابن الأدهم يختلف مع بوذا في فهم القوة ، فالانسان القوي الذي يستطيع أن يموت ، هو الذي يستطيع أن يحيا (النرفانا) ..

وكلمة الرسول (ص) (موتوا قبل ان تموتوا) ، تلتقي بسبب مع عقيدة قتل النفس عند الجوكيين الهنود القائلة : (إن الذي يسلك طريق السلام ، والصدق ، والوفاء ، والصفاء ، ويكتسب جميع خاطره، ويفكر في برهما صباح مساء ، يوفق في قتل نفسه الآثمة ويستطيع أن يقاوم الموت) ..

إن هذا المبدأ معمول به عند صوفية المسلمين ، فسلطان العاشقين يقول على لسان معشوقه :

(فلم تهوني ما لم تكن فيَّ فانياً ولم تفنَ حتى تنجلي فيك صورتي)

ويقول المكزون السنجاري :

(حرام دمي لمن أهواهُ حِلٌ وفي قتلي به للموت قتلُ)

وهو عيناً ما يعنيه الجوكيون الهنود ، من قتل النفس الآثمة لاحياء النفس المطهرة ، وخلودها ، وكلمة الرسول (ص) موتوا ... الخ ، هي تلويح بهذا المبدأ وهذا الشعار .

وقبل أن ندخل من نافذة نظره على أهم تيارات التصوف ، ولغة القرآن ، وأثرها في التصوف الفارسي ، ينبغي لنا أن نتوقف قليلاً عند عنوان البحث (التصوف عند الفرس) ، ونتأمل ببصيرة مبصرة ماذا توحي هذه العبارة ؟ ولماذا اختص الفرس وحدهم بتصوف مستقل ، ما دام الشعبان ، العربي ، والفارسي ، ينهلان من معين الاسلام ، ويرتكزان على قواعده وأصولياته .

إن هذا العنوان ، أوحى إليَّ بمعانٍ كثيرة ، جعلتني ألتمس لها ايضاحاً من خلال هذا التوغل في ارجاع حركات التصوف إلى مصادر قديمة في شعوب قديمة ، وليس شرطاً أن تكون حركة بوذا القديمة ، مقتبساً لحركة ابراهيم بن الأدهم الأخيرة ، ولو حصل تطابق بينهما ، فالنظرة إلى الحياة ، تلتقي مع شخص وشخص كما أنها تختلف بين شخص وآخر ، وهذا سر" تحتفظ به الحياة لنفسها لتبقى فوق جميع ادراكات الانسان ومحاولاته .

وإذا كنا نرد التصوف الاسلامي إلى مصادر غير اسلامية فلم نعد بحاجة إلى تسميته تصوفاً اسلامياً ، لأنه وافد الى الاسلام وليس منه ، وهذا يترك مجالاً للقول : إن الاسلام يستمد من غير ذاته ، وهو يقتبس من غيره ، وهذا يشكل طعناً به عند من لا يؤمنون به وبتنزيله من العزيز الحميد .

وإن ورود التماثل والتطابق بين الشيئين الشبيهين ليس دليلاً على جذورية الأخذ ، وانما هو لقاء مع النظريات في شؤون الحياة ، بحسب ما يراها المتأملون .

والذين أرخوا للصوفية من المسلمين ، لم يمروا بمثل هذا ولم يعرجوا عليه ، ولم يعنوا في تاريخه إلا منذ ظهوره عند الذين جنحوا للتصوف في منتصف القرن الثاني الهجري .

وإذا كنا نأخذ بموضوعية هذا البحث ، على أساس استقلاله بصوفية رجال الفرس ، لزمنا أن نقول : إن التصوف جاءنا غازياً من هناك ، عندما دخلنا بلادهم غازين فاتحين .. وهنا لماذا لا نتساءل ، من منا كان المغزو ؟؟

مما لا ريب فيه ، أن حركة التصوف في الاسلام ، ظهرت مع اطلالة العهد العباسي ، واشراك رجال الفرس به ، ومن حق صاحب البحث ، أن نتصور معاً ، أن تلاقح الأفكار بين العرب والفرس ، ولّد هذا الاتجاه الجديد في أسلوب التعامل مع الله وبهذا تكون قد بطلت نسبته إلى الصحابة والتابعين ، وتبين أن هذه النسبة لم تكن إلا للدعاية والترويج .

وتبقى نسبته إلى الصحابة والتابعين في حدود ضيقة عند جميع من حاولوا الاعتماد على ذلك ، فلا نجد في سيرة الصحابة والتابعين ، من استهان بأمور الحياة ، ولا نجد في عهدهم من أغفل أمراً من أمور الدنيا ، وحتى أن الجماهير والسواد من الناس كانوا يتعاملون معهم وفيما بينهم على أساس الدنيا ، وان الاسلام الذي كان الصحابة والتابعون هم أمناؤه وحماته والعاملون من أجله جاء لترسيخ عقيدة الوحدانية في عهد الشرك ولتنظيم الأمور الاجتماعية في عهد الفوضى والانحلال .

وليس حكاية ذلك الرجل الذي جاء إلى محمد (ص) يطلب حصته من الغنائم، وكأنه استبطأ حصوله عليها، فأمسك بثوب الرسول وقال له: اعطني حقي، فليس هذا مال أبيك، وكان هذا بحضرة عمر، فنهض عمر يريد تأديبه، فمنعه الرسول قائلاً: دعه يا عمر فان لصاحب الحق مقالاً .. وذهبت هذه العبارة مثلا على تبرير جرأة صاحب الحق.

إذن، حياة الزهد، والانصراف عن الدنيا، لم يكونا في عهد الرسول ولا في عهد الصحابة، ما عدا علي بن أبي طالب، الذي جاءت خطبه في نهج البلاغة، مشبعة بصور الزهد والاعراض عن الدنيا ..

ونستطيع من هنا، أن نقرر، أن التصوف، إذا كان مصدره براهمة الهند، وامتد إلى بلاد فارس، ثم إلى بلاد العرب، فليس صلته بالمسلمين، إلا كصلته بغيرهم، كل أخذ عن جاره، وهنا تنتفي مسؤولية الاسلام عن آثاره وتبعاته، وينبغي عزله عن مساوئه وحسناته.

وبين (تطريق) التصوف و (علميته) و (حركيته)، واختلاف الآرا في تعريفه، ينبغي علينا أن نسير في مرافقة هذه الآراء، لنرى: هل بدأ التصوف، طريقة؟ أم علماً؟ أم حركة؟.

المصادر التاريخية عند المسلمين لا تشير إلى ذلك، وانما تشير إلى أسباب باهتة تماماً، كحادثة ابراهيم بن الأدهم، والفضيل بن عياض، وغيرهما من أوائل الصوفيين.

وليس في حوادث رجال الصوفية، خلال القرن الثاني والثالث الهجري إلا الزهد، والتسيح في البوادي، والتعرض لمشقات الحياة، واخطارها، والتقشف المزري.

ثم تحولت في القرن الرابع الهجري ، إلى أفكار ، ومعان تتجه إلى العلاقة بالله ، وكيفية توثيق هذه العلاقة ، وتنقيتها من كدورات وشوائب الحياة المادية الدرنة ..

هذه العلاقة جعلت الانسان المؤمن أكثر استعجالاً للقاء الله تعالى ، وتخلصاً من أوضار الحياة .

فتارة يطلبه من خلال الشرع ، وتارة بالقفز من فوق الشرع ، عملاً بنظرية الغيبة والحضور .

فهذه النظرية جعلت من الصوفية شيئاً له علاقة بفلسفة النفس والروح والعقل ، فاختلطت الفلسفة بالشرع ، وبدأت المتاهات ، وراح السالكون يتعسفون في نشدان معارفهم وكمالاتهم وأسباب خلاصهم .

ومع كل هذا ، ظلت الصوفية متماسكة ، وبقي الشرع أساساً فقد جعلوها مرتبطة ارتباطاً كلياً بالشرع ، حتى لا يكون لدعاية المعارضين لها تأثير عليها .

قال (زكريا الأنصاري) ، وقال (ابن خلدون) ، وقال (هاملتون جب) وقال غيرهم : إن التصوف علم ، ولكنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد أن أصبح له مقومات تشبه العلم ، فشبهوه ببقية العلوم الشرعية .

أما المتصوفون السابقون ، كالجنيد ، والسقطي ، والشبلي ، وغيرهم فقد قالوا : إنه سلوك ، وتهذيب ، وحقائق ، وأخلاق ..

وهذه أقوال طائفة من المتصوفين ، سئلوا ، فأجابوا : سئل أبو محمد الجريري فقال :

هو الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دني .

وسئل رويم بن أحمد البغدادي فقال :

التصوف مبنيٌ على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالذل والايثار وترك التعرض والاختيار •

وسئل أبو سهل الصعلوكي ، فقال :

التصوف ، الاعراض عن الاعتراض (١)

وقد أورد القشيري في رسالته الكثير ، عن تعريف التصوف ، وتعريف الصوفي ، وكل تعريف من هذه التعاريف ، يختلف عن الآخر ، مما يدل على أنه في بدايته ، لم يكن علماً ، ولا طريقة ، ولا حركة ، وانما هو اختيار" لحياة خاصة ، من أشخاص خصوصيين ، اختلفوا على خصائصها ، واتفقوا على مراميها ، بحسب أمكنتهم وأزمنتهم •

لماذا حبَّب الصوفيون ، الفقر والافتقار ، والذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار ، كما ورد بتعريف رويم البغدادي ، أليس ذلك معناه الدعوة الى قتل النفوس الطموحة ، واللجوء إلى فتور الهمم ، وتسكين حركة التطلع الى الحياة الأفضل ، وعدم التفكير في محاسبة من بيدهم تصريف الأمور ، حتى لا تقوم ثورة ضد الظالمين ، ولكي يألف الناس حياة الفقر والذل ، ويسلمون بها طواعية •

كل ذلك كان من رواسب العهد الأموي الذي لم يستطع الحسن البصري ولا أبو العتاهية الاحتجاج عليه إلا باحتقار الدنيا والتعريض بجهل من يأخذه بها الغرور •

---

(١) المعنى الموضوعي لكلمة علي (ع) : (من أصبح يشكو مصيبة نزلت به ، فقد أصبح يشكو ربه) وقد مرت معنا في غير مكان من هذا الكتاب •

وانتقل إلى العهد العباسي ، فشجعه ذلك العهد واستقبله وآواه، وأكرم شيوخه .

ويلوح لي ، أن الفرس لم يأخذوا به كمبدأ من النوع التعبدي، وانما أخذوا به ، كفكرة ، لا تطفو على السطح ، وانما تغوص إلى الأعماق ، لا سيما بعد أن طهرهم الاسلام من أدران الوثنية القديمة ، ولاحظوا في القرآن الاشارات العلوية التي تساعد على السمو بالتفكير ، نحو آفاق أرحب ، ومعارف أسمى .

وتحول الفرس عن التصوف ، كرغبة في الزهد ، واعراض عن مصالح الدنيا ، لأنهم رأوا فيه على هذا الوجه تجهيلاً للذين يفهمونه في هذه الصفة ، ولا يرتفعون به إلى مقاصد ذات شأن في تكوين أجنحة تساعد على الانطلاق الأسمى ، نحو الغاية الأسمى ، ولذلك اتخذوا من التصوف منهجاً عرفانياً ، ومذهباً فكرياً ، ويحمل نمطاً فلسفياً آخر .

وحينما تحول إلى منهج عرفاني ، صار جديراً بأن يحمل اسم (علم) ، ومن هنا نظر إليه كعلم فيه خلاصة الفلسفة، ورحيقها الحلو الصافي ، ومن هنا تميز التصوف الفارسي عن غيره ، وذلك بتحويل مادته والاستفادة من روحه الصافية .

إن سريان الروح العرفانية في التصوف الفارسي هو الذي جعل الباحثين ينظرون إليه روحاً ممتزجاً بالأفلاطوبية ، وقد نتج عن تلاقي الفكر اليوناني العقلي مع نزوع المشرقية الاتجاه في بحث العوالم المادية للكشف عما وراءها . فكانت أرسطوية العقل وأفلاطونية الاشراق ..

على هذا النهج صار التصوف عند الفرس علماً عقلانياً يستمد مقوماته في البحث للكشف عما وراء الطبيعة ، المادية ، وأصلها وهيولاها وكيفية امتزاجها بالنور الاشراقي الفائض عن النور الأعم .

ومن هذا المنطلق ، أصبحت (علموية) التصوف لها غايتها ، وأهميتها في مدارك الأحوال الروحية عن طريق مصلحة الروح المتواشجة مع مصلحة الجسد ، بمفهوم غير المفهوم الصوفي الأول •

ومن هنا كانت المواقف المتناقضة بين مفكري الصوفيين ورجالاتها كالسهروردي مع ابن سينا ، والحلاج مع اخوانه في بغداد ••

ومن هنا تفجرت نظريات ابن عربي في الألوهية والنبوة والرسالة وعلاقة الكائن بالمكوّن وصلته به ، واتحاد العاقل بالمعقول ••

ويبدو ، أن هذه الجدلية الصوفية ، عند هؤلاء الرجال بدت من الأمور الصعبة في نظر الناس ، في العصر الوسيط ، فتحولت هذه المعارف الى أوراد وأذكار ، وحركات خاصة يستطيع ممارستها العارف وغير العارف ، فتجدد الاقبال عليها من العامة ، وأصبحت لها نشاطاتها وجماهيرها ، وأصبحت طبقتها من سواد الناس ، وليس من خاصتهم ، وكان لا بد من تسمية لها فأطلقوا عليها اسم طريقة ، لأنها لم تعد بحثاً ولا علماً •

وتعددت هذه الطريقة ، فأصبحت طرائق ، ولكن لكل طريقة شيخها ، ولكل شيخ مريدوه ، وبهذا تعددت أسماؤها ، حيث أصبحت كل طريقة تعرف باسم مؤسسها ••

وما دامت هذه الطرائق لا تمارس شيئاً من الأعمال الفكرية ، بل اقتصرت مظاهرها على نوع معين من العبادات والممارسات الشكلية ، فلم تلق معارضة من السلطة ، بل شجعتها وهيأت لها الأسباب •

وهنا ينتهي الدور العربي ، والفارسي في تطوير الصوفية ، المتزهدة والعلموية ، وبدأت تأخذ شكلاً آخر في مظاهر رجالها فلم

يعد المتصوف يحتاج إلى الفكر ، ولم يعد أولئك المعرضون عن مغريات الحياة يدعـون صوفيين ، وانما أطلـق عليهم اسـم (دراويش) ، والدرويش في ذلك العهد لا يحتاج إلى فكرٍ ، ولا إلى أي شيء ينتفع به ، بل يكتفى منه أن يهجر العلم والعمل ، ويهاجر في المدن والقرى متسولاً يستجدي الناس ، بلباس بالية مهلهلة ، وذقن طويلة ، يتشبث بها الوسخ ، وخرقة ملفوفة على غطاء الرأس أكثر ما يكون لبادة ، ويكفيك أن يمد يده إليك مستجدياً باسم درويش ليكون موضـع تحنن عندك ومثاراً لمراحمك وعنايتك ..

هذا النوع من المتقشفين ، كان أكثر ما يكون رواجاً في العهد العثماني البائد هرباً من مظالمهم، وتخلصاً من شروروولاتهم في الأصقاع.

وإذا كانت العقليـة الصوفية ، قـد انتهت بجميع أشـكالها ومظاهرها بعد زوال الدول والعهود التي كانت سبباً لوجودها ، فان آثارها بقيت ، يتمسك بها قوم ، ويرفضها آخرون .

وما موقف المحامي شراباتي من دمشق ، وعبد الوارث كبير من الكويت ، إلا نتيجة من نتائج بقايا آثارها (راجع ما أثبتناه عنهما في أول هذا الكتاب) ..

بقي علينا أن نتساءل : لماذا رفض الفرس كلمة (صوفي) وأحالـوا محلها كلمة (عرفاني) ؟ ولماذا العرب المسلمون اختاروا كلمة (صوفي)، ولم يختاروا كلمة (عرفاني) ؟

هنا يلوح لي ، أن العرب المسلمين ، عند ظهور هذه الحركـة فيهم ، كانت حركة فردية ، لا تقوم على أسس متفق عليها بين جماعة منهم ، وكان الاسلام لا يزال طرياً بينهم ، والاسلام بما فيه ، فيـه الكفاية عن كل الملتمسات الأخرى ، وهي بحاجة لأن يتشبعوا بمعرفة

أركانه تطبيقاً وعملاً ، وليسوا بحاجة إلى اجتهادات فيه تأويلية كانت أم غير تأويلية •

أما الفرس ، فلم يجدوا في الاسلام حائلاً دون تأملاتهم الروحية التي كانوا عليها ، بل ربما كان عوناً لهم في معرفة أصولها وفروعها ، لا سيما وهم الشعب الذي قال فيه الرسول (ص) : (لو كان العلم في الثريا لناله رجال" من فارس) فهم بحكم هذه الأصالة ، بقيت فيهم نزعة الاهتمام بالموروثات الفكرية ، سواء أكانوا تلقوها عن الهند ، أو عن اليونان ما داموا يجدون لها مسوّغاً اسلامياً من خلال القرآن ولاحظوا أن التصوف ، في بعض منطلقاته يؤدي إلى الغاية التي يعملون من أجلها ، من ذلك قول الجنيد ، وهو أحد أقطاب الصوفية ، وقد سئل عن التصوف ما هو ؟ فقال : (هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به) •

كلمة الجنيد هذه ، فيها كل المعاني (العرفانية) التي يتطلع إليها الباحثون عن الحقيقة الكامنة وراء عبارة القرآن : (وما خلقتُ الجن والأنس إلا ليعبدون) ــ أي ليعرفوني ــ ، ومن هنا كانت المعرفة هي المطلوبة من الانسان ، وكل بحث يتعلق بها فهو (عرفاني) • ومن حق الانسان أن يطلب المعرفة ، وأول هذه المعرفة حقيقة ما يعبد كما قال (بلورتارخوس) •

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، صار للتصوف الفارسي ، نهجه المستقل وأسلوبه المتميز ، المغاير للمفهوم التصوفي عند العرب ••

ولأن الفرس أجمعوا على اعتناق التشيع ، رأوا من المشرف أن ينسبوا إلى أئمتهم أصول هذا المذهب (العرفاني) التصوفي ، لأن مزاياه تنطبق عليهم ، فكان علي بن أبي طالب ، ومن بعده علي بن موسى الرضا : هما أبوا هذا المذهب ، على رأي قوم منهم الحسن بن محمد النيسابوري ••

أما الأستاذ أبو علي الدقاق الذي يعتمده القشيري ، فيذهب بسلسلة نسبها كما ذهب به النيسابوري ، إلا أنه لم يلحقها بشخص معين ، بل اكتفى أن يقول من التابعين ، ولم يعين من هم هؤلاء التابعون ..

وهنا يتراءى لنا أن التنافس في نسبة هذا المذهب التصوفي إلى الأئمة ، قابله تنافس في الطرق الصوفية التي مر ذكرها في هذا الكتاب التي تنتسب إلى غير الأئمة ، وإلى رجال من غير طائفة الشيعة حتى أدى الأمر مؤخراً إلى محاربة التصوف في عهد الصفويين[1] والاهتمام فقط بما يخدم التشيع في فارس .

أما الطرق فقد بقي لها أنصارها ، ولكن في غير فارس ، وظلت على صلتها بجماهيرها ، وعلى ممارستها ، وطقوسها ، يتلهى بها الناس عن مصالح دنياهم وعن تدبير أحوالهم وشؤونهم حتى ما يقارب منتصف هذا القرن وقد حضرت شخصياً في حلقة من حلقات أحد أقطابها في دمشق واستمعت إلى درس من دروسه فيها ، وذلك في أوائل عام ١٩٤٠ م[2] .

لقد مر معنا خلال أبحاث هذا الكتاب ، رأيان في منشأ الصوفية أحدهما للدكتور (هاملتون جب) وهو يرى : أن التصوف مقتبس" من روحانية الكنيسة الشرقية ، والآخر للدكتور ابراهيم الدسوقي في بحثه هذا (التصوف عند الفرس) ويرى : أنه ـ أي التصوف ـ انتقل إلى الفرس ، عن طريق الفكر الهندي البراهمي ، وقد ناقشنا كلا القولين في حينه ضمن هذا الكتاب .

---

(١) الصفويون في ايران ، هم الذين حكموها في اوائل القرن العاشر الهجري .

(٢) القطب المشار اليه هو الشيخ علي الدقر كبير المجدثين في دمشق بعهده بعد الشيخ بدر الدين الحسيني .

إلا أننا من حقنا أن نتساءل : لماذا حرص كل" منهما على إرجاع هذا المذهب إلى طقوس غريبة عن الاسلام ، هذا اذا لم نقل أنه وقف منها موقفاً معارضاً •

فالقرآن لم يتبيّن طقوس الكنيسة الشرقية ، وإن كان وصف القسيسين والرهبان بالخشية والخشوع ، فانه لم يقر الرهبانيــة ، واعتبرها بدعة لم يأت بها كتابهم •

والقرآن ، لم يحرم الزينة والنظافة والأكول الطيبة والمساكــن المرتبة ، وصان الانسان من حياة التشرد والضياع والكسل ، وعلمــه كيف ينبغي أن يعيش ، ورتب عليه حقوقاً وكلفه بواجبات ، ولم يتركه هملاً ، ولم يكن خلقه عبثاً ••

هذا بالنسبة لصلة التصوف بالمسيحية وانتقالها إلى الاســلام عن طريق التأثر بالكنيسة الشرقية •

أما بالنسبة لما أورده الدكتور الدسوقي بالنسبة لصلته بفقراء الهند ، فهذا بقي مجرد استنتاج حمله اليه بعض المزايا المتشابهة عنــد الصوفيين المسلمين ، بالاضافة إلى أن القرآن حارب الوثنية حتى في بلاد الهند ••

وما كان للدكتور الدسوقي ، أن يعتمد على هذا ، لولا أنــه يعالج فكرة مستحدثة في أمة مستقلة ، يفترض أن يكون لأفكارهــا علاقة بأفكار الآخرين ، وأظنه لو كان يؤرخ ، أو يعالج فكرة التصوف عند العرب لاستبعد هذا ، لأن التصوف عند العرب ، لــم يستق مصادره من أفكار الآخرين وانه بمقتضى ما دون عنه ، قام بنزعــةٍ فردية من أشخاص معينين كما سبق وأشرنا إلى ذلك ، وهذا الــذي جعل ، حتى أصحاب الرأي في العرب ، يختلفون ، تارة في تسميته ،

وطوراً في تعريفه ، حتى أنهم حاروا في كيفية اشتقاق هذه التسمية ، وعجزوا عن الركون إلى دليل مقنع يجمعهم على التسليم به ..

كل ذلك لأن الحركة الصوفية ، لم تقم باتفاق مسبق ، بين رجال مفكرين من المسلمين ، وضعوا لها قواعد وأسساً ، ومبادىء وأحكاماً ، ودعوا الناس إليها ، مثل بقية الحركات الأخرى ، التي تؤسس على أهداف ومناهج مدروسة ، تؤدي إلى غايات رفيعة ، وترتبط بجماهير يتولون العمل من أجلها ، والدعوة إليها ، رغبة في اصلاح ، سواء على صعيد الدين ، أو على صعيد الدنيا .

تبقى علاقة الباطنية بالتصوف ، بعد أن أصبح علماً في نظر البعض أذعن له كبار الرجال ، كالغزالي ، وابن عربي ، وقرابة هذا العام بالباطنية الاسماعيلية ، فان هذه العلاقة ، لم تعد أمراً مشكوكاً به ، بعد أن جنح هؤلاء الرجال إلى التأويل في آيات الذكر الحكيم .

ولولا التأويل ، لما وقع بين طوائف المسلمين هذا الخلاف الطويل العريض ولم يتمسك الباطنيون ، وعلى رأسهم الاسماعيليون بالتأويل على غير هدى منهم ، فانهم ، يقدمون الدليل ، تلو الدليل ، والبرهان تلو البرهان ، على صحة النظرية المعتقد ، فهذا المؤيد في الدين ، داعي الدعاة ، ينظم أرجوزة طويلة يتصدى بها بالحجج والبراهين المقنعة لمنكري التأويل ، منها هذه الأبيات :

يا قوم قول ذا الكتاب فصلُ	جزل المعاني ، ليس فيه هزلُ
ففكروا في التين والزيتون	واستكشفوا عن سره المكنون
ولِمَ أتى من ربنا فيه القسم	كما أتى بالنون أيضاً والقلم
والفجر أيضاً ، وليالٍ عَشر	والشفع يحذو حذوها والوتر
ومثل هذا في الكتاب عدهُ	يجدهُ ذا كثرة مَن عدّهُ
اهزءٌ اقسامهُ بهذا	أو لعبٌ ، ماذا الجواب ؟ ماذا ؟

إن كان برهـان" لكم فهاتـوا أو لا فكفـوا ، انكـم امـوات
إن كان اعجـاز القرآن لفظـاً ولم ينـل معنـاه منـه حظـا
صادفتـم معقـوده' محلـولا من أجـل ذا انكرتم التأويـلا

وهكذا نجد أن قول كبار الصوفية بالتأويل ، جاء دعماً للأفكار للباطنية فخرجت هذه الأفكار بقوة أشد ، وببرهان أقوى ، فهي لـم تعد ، كما قيل عنها : تحريفاً وتضليلاً ، وخروجاً على عقائد الاسلام ، ونصوصه الشرعية ، لضربه من الداخل ــ كما يتصور البعض ــ وانما هو للدلالة على الأغراض العميقة ، والمقاصد الرفيعة •

وعندي : ان الطرق الصوفية ، التي نشأت في فترة متأخرة قامت أيضاً ، لضرب الأفكار التأويلية في الحركات الصوفية ، وقد أشرنـا في ثنايا هذا البحث ، إلى عزوف الطرق عن العلم ، والفكر ، واكتفائها بممارسات تعبدية خاصة ، لتهوين وتسهيل الانضمام إليها ، وترويج بضاعتها عند المتاجرين بها ••

وقد هاجم بعض الشعراء ، حركة الرقص في الطريقة المولوية ، الذي قيل أنه يعبر عن أفكار جلال الدين الرومي، بشأن وحدة العوالم على أنه يرمز عن الحركات الدورية ، للأفلاك والكواكب ، وعن الروح الثمة بالعشق الالهي ، فقال :

أرى جيـل التصوف شر جيـل
فقل لهم : وأهولـبن بالحلـول

أقال الله ــ حين عشقتموه :
كلوا أكل البهائم ، وارقصوا لي

ما من شك ، أن في هذين البيتين ، تعريض عنيف بالصوفية ، وبمثل هذه المظاهر المطبقة عند هذا الفريق من المتصوفة ، وتعريض

بالذين يرمزون بالرقص إلى الحركات الدورية للأفلاك ، وعن الروح الثملة بالعشق الالهي ، كجلال الدين ـ إذا صح إسناد هذا إليه[1] .

أما المكزون السنجاري المتصوف بطريقة أخرى ، فلم ترق لـه صوفية المتزهدين ، واعتبرها خروجاً على الشريعة بتحريم ما هو حلال فيها ، وترك ما لم تأمر بتركه ، فقال مفنداً هذا السلوك .

ليس زهدُ الفتى بتحريم جلٍّ
مـن نكـاحٍ ومطعـم وشـراب

وارتبـاطٍ بالربـط ، أو باعتـزال
في جبـال ، ولا برقـع ثيـاب

بل ، بقصدٍ فيما أحلّ وزهـد
في حـرام ، ورغبـة في ثـواب[1]

(١) مر معنا كلام عن طريقة جلال الدين بصفحات سابقة من هـذا الكتاب .

اما صلة التصوف بالتشيع ، فقد أشبعها بحثا ، الدكتور كامـل مصطفى المشيبي ، العراقي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) ونحن ننصح بالعودة الى هذا الكتاب ، لمن أراد أن يتوسع في معرفـة هذه الصلة .

(١) يبدو أن المكزون السنجاري في أبياته هذه ، أخذ بقول الامام ابي القاسم حين قال : اختلف الناس في الزهد ، فمنهم من قال : الزهد في الحرام لا في الحلال لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى، ومنهم من قال : الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة ، اما احمد بن حنبل فقال : الزهد على ثلاثة أوجه ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص ، وترك ما يغفل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين .

إلى هنا ، ونمسك عن مناقشة الطريقة (القلندرية) ، وعن تصديها للشريعة والذين يدعون تمثيلها ، فلا أرى عند الخيام ، ما يدعو للتبرير في هذا التحدي الصارخ ، وهذا القلق المجنون .

أما الموقف العرفاني من الباطن ، هذا النوع من الطريق إلى الخلاص ليس في متناول عامة الناس ، بل هو مقصور في نظر العارف على (الصفوة) على (الخاصة) على (الأخيار) أولئك الذين اصطفاهم الله ، ذلك لأن الانسان عندما يصير عارفاً يتحول إلى روح محض ، إلى كائن ينتمي إلى تلك الصفوة من بني الانسان التي تشكل طبقة (الروحانيين) ، فيتميز بالتالي من (النفسانيين) الذين لهم نفوس تفتقر إلى النفس الذي يجعل منها روحاً سامياً ، ويتميز بالأحرى عن الماديين أو الجسمانيين ، الذين ليسوا سوى أجسام بل طين ، ومن هنا وبسبب هذا التميز يقرر أنه لا يجوز أن يصرح للعامة من الناس بما ينكشف له من حقائق ، لأنهم لن يفهموه ، لأنهم ليسوا من مقامه ، واذن فعليه أن يحتاط كل الاحتياط ، فلا يفشي بسر ما (ينكشف) له إلا لجماعة مختارة من السالكين الذين يشكلون طبقة (الخاصة) أولئك الذين هم وحدهم عرفوا حقيقة نفوسهم ، فأصبحوا قادرين على تلقي المعرفة ببواطن الأمور ، فالعرفان يتميز عن العلم بأنه معرفة بـ (الباطن) بينما العلم هو مجرد معرفة بـ (الظاهر)[١] . ويذكر الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (بنية العقل العربي) (ان المصدر الذي نقل عنه لم يستق عناصر تحليله من متصوفة الاسلام بل من نصوص عرفانيين سابقين لظهور الاسلام) ، أما مصدر الفكرة المركزية في الموقف العرفاني ، فكرة (هبوط النفس وعودتها) فيقول عنه أحد الباحثين الأوروبيين ما يلي : لقد أخذ العرفانيون من البابليين الأسطورة التنجيمية الكبرى الخاصة بهبوط النفس وصعودها: النفس تهبط من السماء العليا عبر الدوائر الفلكية السبع فتتلقى في كل منها

استعدادات خاصة ، وبعد الموت تتم العملية العكسية فتصعد النفوس تاركة في كل دائرة فلكية ما سبق أن أخذته منها أما فكرة المخلص الذي يخلص نفسه ، المنقذ الذي ينقذ أجزاءه النورانية المشتتة في المخلوقات الدنيا (الجسم ـ المحسوسات) وهو بذلك ينقذ نفسه ، هذه الفكرة أصلها ايراني) ••

ومن خلال هذا التعبير نستطيع أن نعتبر أن النور الذي رآه هرمس يغمر كل شيء ، آخذاً بالصعود إلى أعلى في رؤياه أو مشاهداته الكشفية ، هو نوع من الكشف الذي يحلم به الصوفي في حال المحو والغياب عن الذات الحسية وهو الرجوع إلى المبدأ الأسمى بعد الهبوط النفسي من السماء العليا ، والرؤيا الهرمسية تتيح لك معرفة العلاقة بين الله والعالم والانسان ، مثل ما أن الرقصة المولوية تتيح لك معرفة أنها : هي جوهر الروح للاكتشاف الحب الإلهي •

* * *

---

(١) راجع كتاب (بنية العقل العربي) لمؤلفه الدكتور محمد عابد الجابري ، طبعة أولى ، حزيران سنة ١٩٨٦

هُجوم ابن الجَوزي على الصّوفية

هُجوم ابن الجَوزي على الصّوفية

يقول ابن الجوزي ــ وهو من علماء القرن السادس الهجري ــ في كتابه تلبيس ابليس :

التصوف طريقة ، كان ابتداؤهــا الزهد الكلي ، ثــم تُرخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، فمال إليهم طلاب الآخرة مــن العوام ، لما يظهرونه من التزهد .. ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب .. فلا بد من كشف تلبيس ابليس عليهم في طريقة القوم ، ولا ينكشف ذلك إلا بكشف أصل هذه الطريقــة ، وفروعها ، وشرح أمورها ..

ثم قال : كانت النسبة في زمن رسول الله (ص) إلى الايمــان والاسلام . فيقال : مسلم" ومؤمن .

ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة ، وإتخذوا في ذلك طريقــة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها .

ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام ، رجل" يقال له (صوفة) واسمه الغوث بــن مر ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع الى الله سبحانــه وتعالى ، فســموا بالصوفيــة .

ثم قال ــ وقد أسند الحديث إلى وليد بن القاسم ــ :

كان قوم في الجاهلية ، يقال لهم (صوفة) انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة ، فمن تشبه بهم ، فهم الصوفية ..

ثم قال ــ ويسند الكلام إلى أبي عبيدة ــ :

وصوفة وصوفان ، يقال لكل من ولي من البيت شيئاً من غير أهله أو أقام بشيء من أمر المناسك يقال لهم : صوفة وصوفان .

ثم قال : وقد ذهب قوم" ، إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفّة ، وانما ذهبوا إلى هذا ، لأنهم رأوا أهل الصَفة على ما ذكرنا من صفة صوفة في الانقطاع إلى الله عز وجل ، وملازمة الفقر ، فان أهل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله (ص) وما لهم أهل" ولا مال ، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله (ص) وقيل أهل الصفّة ..

وقال ابن الجوزي : وهؤلاء القوم ، انما قعدوا في المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين ، استغنوا عن تلك الحال وخرجوا ، ونسبة الصوفي إلى أهل الصفّة غلط لأنه لو كان كذلك ، لقيل صِفّي ، وقد ذهب إلى أنه من (الصوفانة) وهي (بقلة) رعناء قصيرة ، فنسبوا إليها ، لاجتزائهم بنبات الصحراء وهذا أيضاً غلط ، لأنه لو نسبوا إليها ، لقيل (صوفاني) ..

وقال آخرون : هو منسوب إلى (صوفة القفا) وهي الشعرات النابتة في مؤخره ، كأن الصوفي عطف به الى الحق ، وصرفه عن الخلق ..

وقال آخرون : بل هو منسوب" إلى الصوف ، وهذا يحتمل والصحيح الأول .. وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مايتين ، ولما

أظهره أوائلهم تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته ، بعبارات كثيرة وحاصلها : إن التصوف عندهم ، رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة ، من الزهد والحلم، والصبر ، والاخلاص ، والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة، التي تكسب المدايح في الدنيا ، والثواب في الآخرة •

والحديث بإسناده عن الطوسي يقول :

سمعت أبا بكر بن المثاقف يقول : سألت الجنيد بن محمد عن التصوف فقال : الخروج عن كل خلق رديء ، والدخول في كل خلق سني •

وبالاسناد إلى رويم ، قال: كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ، ومداومة الصدق •

وقال ابن الجوزي : وعلى هذا كان أوائل القوم ، فلبّس ابليس عليهم أشياء ، ثم لبّس على من بعدهم من تابعيهم ، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني ، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن ، وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلما أطفىء مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلّماء ، فمنهم من أراه ، أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم ، وشبهوا بالمال بالعقارب ونسوا أنه خلق للمصالح ، وبالغوا في الحمل على النفوس ، حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع[1] ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة ، غير أنهم

(١) اراد به سرى بن المغلس السقطي خال الجنيد . روي عنه انه بقي (٩٨) سنة ما رئي مضطجعاً إلا في علة الموت .

على غير الجادة ، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع له من الأحاديث الموضوعة ، وهو لا يدري[٢] .

ثم جاء قـــوم" ، فتكلموا لهم في الجــوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي .

وجاء آخرون ، فهذبوا مذهب التصوف ، وأفردوه بصفات ، ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة .

ثم ما زال الأمر ينمى ، والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ، ويتكلمون بواقعاتهم .. ويتفق بعدهم عن العلماء ، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم ، حتى سموه (العلم الباطن) وجعلوا الشريعة (العــلم الظاهر) .. ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق ، والهيمان به ، فكأنهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به .. وهؤلاء بين الكفر والبدعة ..

ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ، ففسدت عقائدهم .

فمن هؤلاء ، من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ..

وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع ، حتى جعلــوا لأنفسهم سنناً وجاء أبو عبد الرحمن السلمي ، فصنف لهــم كتاب السنن ، وجمع لهم حقائق التفسير ، فذكر عنهم فيه العجب العجــاب ، في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير اسناد ذلك إلى أصلٍ من أصول العلم ، وانما حملوه على مذاهبهم .. والعجب من ورعهم في الطعام ، وانبساطهم في القرآن ..

---

(٢) اراد به الغزالي في احياء علوم الدين .

وقال ابن الجوزي : وصنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه لمع الصوفية ، ذكر فيه من الاعتقاد القبيح ، والكلام المرذول ، ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى ..

وصف لهم أبو طالب المكي (قوت القلوب) ، فذكر فيه الأحاديث الباطلة ، ومالا يستند فيه إلى أصل ، من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع ، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد ، وردد فيه قول ـ قال بعض المكاشفين ـ وهذا كلام فارغ ، وذكر فيه عن بعض الصوفية : إن الله عز وجل ، يتجلى في الدنيا لأوليائه ..

وروى أبو طاهر ، محمد بن العلاف ، قال : دخل أبو طالب المكي إلى البصرة، بعد وفاة أبي الحسين بن سالم، فانتمى إلى مقالته، وقدم بغداد ، فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ ، فخلط في كلامه، فحفظ عنه أنه قال : ليس على المخلوق أضر من الخالق ، فبدعه الناس وهجروه ، فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك .

وصنَّف لهم أبو نعيم الأصبهاني ، كتاب الحلية ، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة ، قبيحة ، ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، وسادات الصحابة رضي الله عنهم فذكر عنهم فيه العجب ، وذكر منهم (شريحاً القاضي) والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل ..

وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية : الفضيل ، وابراهيم بن الأدهم ، ومعروفاً الكرخي ، وجعلهم من الصوفية ، بأن أشار إلى أنهم من الزهّاد .

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، ويدل على الفرق بينهما : إن الزهد لم يذمه أحد ، وقد ذمّوا التصوف على ما سيأتي ذكره .

وصنّف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة يذكر فيه العجائب من الكلام •

وصنّف لهم محمد بن طاهر المقدسي (صفوة التصوف) فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها • وقال : كان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول : كان ابن طاهر ، يذهب مذهب الاباحة ، قال: وصنّف كتاباً في جواز النظر إلى المرأة أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين ، قال : رأيت جارية بمصر مليحة ، صلى الله عليها ، فقيل له : تصلّي عليها ؟ فقال : صلى الله عليها وعلى كل مليح •

قال شيخنا ابن ناصر ، وليس ابن طاهر بمن يحتج به ••

وجاء أبو حامد الغزالي ، فصنف لهم كتاب الأحياء على طريقة القوم ، وملأه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم بطلانها[1] وتكلم في علم المكاشفة ، والخروج عن قانون الفقه ، وقال: إن المراد بالكوكب، والشمس ، والقمر اللواتي رآهن ابراهيم ، صلوات الله عليه أنواراً: هي حجب الله عز وجل ، ولم يرد هذه المعروفات ، وهذا من جنس كلام الباطنية ، وقال في كتابه (المفصح بالأحوال) : إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق •

وقال ابن الجوزي : وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن ، والآثار والاسلام ، واقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم ، وانما استحسنوها ، لأنه قد ثبت في النفوس مدح

---

(١) الغريب أن الغزالي يسمونه حجة الاسلام ويصفه ابن الجوزي بالجهل •

الزهد ، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة ، ولا كلاماً أرق من كلامهم ، وفي سير السلف نوع خشونة ، ثم إن ميل الناس الى هؤلاء القوم شديد لما ذكرنا من إنها طريقة ظاهرها النظافة والتعبد ، وفي ضمنها الراحة والسماع ، والطباع تميل إليها ، وقد كان أوائل الصوفية ، ينفرون من السلاطين والأمراء ، فصاروا أصدقاء السلاطين والأمراء .

* * *

إطلالة على رأي ابن الجَوزي

إطلالة على رأي ابن الجوزي

علمنا من ابن الجوزي ، وما استعرضه في كتابه (التلبيس) من نسبة التصوف في زمن الرسول وبعده ، وما استعرضه من أسماء يزعمون أن التسمية اشتقت منها . ولم يرجّح إلا الصوف ، وما استعرضه من صفات المتصوفين ، ومن أنواع تطبيقاتهم القاسية على أنفسهم، وما أشار به بعد ذلك من تطور في الحياة الصوفية خرجت إلى الأمور الشاذة فصور ذلك أنه كله من تلبيسات ابليس ، وان ابليس صدهم عن العلم ، أراهم أن المقصود العمل ، فتخبطوا في الظلمات ، وأشار إلى الاختبارات الشخصية التي اختارها كل منهم في تصرفه الصوفي وفي نمط حياته في التصوف ، وكأنه أشار إلى رابعة العدوية بقوله : ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادعى عشق الحق والهيمان به ، وبعد أن استعرض مؤلفيهم ومحاولي ترسيخ مذهبهم مثل عبد الرحمن السلمي صاحب كتاب (السنن) وأبا نصر السراج صاحب كتاب (لمع الصوفية) وأبا طالب المكي ، صاحب كتاب (قوت القلوب) ، وأبا نعيم الأصبهاني ، صاحب كتاب (الحلية) ، وعبد الكريم بن هوازن القشيري ، صاحب (الرسالة القشيرية) ، ومحمد بن طاهر المقدسي ، صاحب كتاب (صفوة التصوف) وأبا حامد الغزالي صاحب كتاب (احياء علوم الدين) ، أشار الى فشلهم جميعاً في اعادة الاعتبار لهذا العلم أو لهذه الطريقة.

علمنا بعد ذلك كله أن التصوف عند ابن الجوزي طريقة ، كان ابتداؤها الزهد الكلي ، ثم ترخّص المنتسبون إليها بالسماع والرقص.

وهذا يعني أن ابن الجوزي يرفض أن يكون التصوف علماً ، كما ذهب اليه ابن خلدون ، فهو يراه طريقة تشعبت إلى طرائق تتطور كل واحدة منها بحسب رغبات أبناء زمانها ..

وإذا علمنا أن ابن خلدون جاء بعد ابن الجوزي بقرنين من الزمن نستغرب كيف خرج على رأي ابن الجوزي وسمى التصوف علماً .

فإذا كان في ابتدائه طريقة ، وتأسس على أنه طريقة ، وتداوله شيوخه على هذه الصفة ، كيف أباح لنفسه ابن خلدون أن يسميه علماً ، أليس من حق ابن الجوزي ، وهو الأقرب إلى زمان نشوئه كان أن يطلق عليه هذا الاسم ، ولو كان معارضاً له وليس من أنصاره وسماه زكريا الأنصاري علماً ، ولكن زكريا الأنصاري لا يعتبر حجة في هذا المجال ، لأنه قد يكون من الشيوخ وليس من العلماء .

الأخذ برأي ابن الجوزي أولى ، لأنه أكثر استقصاءً لهذه الطريقة ، لا لأنه يؤمن بها ، ويتقبلها ، ولكن لأنه يتعرض لها مسفهاً ومسخفاً ، وقد حمل على أصحابها ، وعلى أنصارها الذين صنفوا بها كتباً ومن جملتهم حجة الاسلام أبو حامد الغزالي على ما يدل من جهد في كتاب (الأحياء) .

ويبدو أن ابن الجوزي من الظاهريين على مذهب ابن حزم الظاهري ، الذي حدّث عن نفسه فقال : انه مر يوماً هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب ، بسكة الحطابين ، بمدينة اشبيلية ، فلقيهما شابٌ حسن الوجه ، فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم تر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ، ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالاً :

وذي عَزلٍ فيمن سباني حسنه يطيلُ ملامي في الهوى ، ويقول
أمن أجل وجهٍ لاح لم تر غيره ولم‌تدر كيف الجسم، أنت عليل
فقلت له: أسرفت في اللوم فاتئد فعندي ردٌ لو آشاء طويلُ
ألم تــر إني ظاهريٌ .. وانني على ما أرى ، حتى يقوم دليل

ولا يخفى أن في البيت الأخير تعريضاً صريحاً في الباطنيين الذين زعم أن عند أبي حامد ما يجانس كلامهم ، وربما قصد ابن حزم الفاطميين حكام المغرب ..

وهذا صاحبنا ابن الجوزي ، بالرغم من أنه يصف أن بعضهم كانت مقاصده حسنة ، لا يسعه إلا أن يقول : ــ وهو يعني أبا حامد ــ : وفيهم ــ أي المتصوفة ــ من كان لقلة علمه ، يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة ، وهو لا يدري ، والذي يحملنا على أن أبا حامد هو المقصود بذلك ، انه عندما تعرض لكتابه الأحياء ، كرر هذه العبارة بقوله : وجاء أبو حامد الغزالي ، فصنف لهم كتاب الأحياء على طريقة القوم ، وملأه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم ببطلانها ..

وأظنه لم يتعرض له بهذا الشكل ، ولم يتهمه بالخروج على قانون الفقه ، إلا لأنه قال عن كواكب ابراهيم ، التي هي الكوكب ، والشمس والقمر هي حجب الله عز وجل ، ولم يرد بها هذه الكواكب المعروفة ، لأنه صرح بذلك ، فقال : وهذا من جنس كلام الباطنية .

فكأن ابن الجوزي ، يرى أن كل كلام الباطنية باطل ، وان عيب الصوفية هو أن عندهم من جنس هذا الكلام .

وإذا كنا نقر ابن الجوزي على كثير من مواقفه تجاه التصوف ، فاننا ، وقد استشففنا من عبارته روح التعصب ضد منطلقات ، يرى

أن مقاصدها حسنة لولا تجانسها لكلام الباطنية ، نقف مترددين في قبول غيرها •

والعلم الصحيح ، هو الذي ينظر إلى العلم من حيث هو علم ، بغض النظر عن صفة من تكلموا به •

وابن الجوزي الذي سلم من أوائل المتصوفين ، بتحديد التصوف بأمرين اثنين وهما : رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة ، كان عليه أن يرى في هذين الأمرين تعبئة للشخصية الكاملة ومنهجاً قويماً للارتقاء بالانسان إلى مصاف أهل الكمال •

ولكن يبدو أن ابن الجوزي ، لا يرضيه أن يتسامى الانسان بغير المفهوم الطافي الذي يعرفه ، ويأبى أن يبحث المضمون من خارج الشكل ، طبقاً لرأي ابن حزم تماماً •

أما حكاية يحيى بن معين ، والجارية المصرية ، واعجابه بجمالها الخارجي ، حتى نطق بالصلاة عليها ، وعلى كل مليح مثلها ، فليس فيها مذهب الاباحة ، الذي تصوره ، وقد تكون من باب النكتة الطريفة التي تجري عادة بين أهل الوقار ، أكثر منها من باب التخلع والاباحة، وليس تشبيه المحبين جمال محبوباتهم بجمال القمر والشمس معناه أنهم يرفعونهن إلى الاحلال محل تلك الكواكب ، وانما هو طغيان الإعجاب يملي على المحب فيقول ما يقول ••

إنا وان كنا نختلف مع ابن الجوزي على التصور المريب في حادثة يحيى بن معين ، فليس بوسعنا أن نختلف معه على تبدل حال المتصوفين الذين كانوا ينفرون من الأمراء والسلاطين، ثم صاروا أصدقاء لهم ، إن هذا من المستمسكات التي تمكن بها من اقناع القراء (بلا مبدئية) التصوف ، وانه أصبح وسيلة للوصول بالدنيا أكثر منه

وسيلة للوصول في الآخرة ، وانه أصبح يقوم على خدمة مصالح الأجساد أكثر منه على خدمة النفوس والأرواح ، ينعي عليهم هذا ولكننا لا ننسى أنه في حديثه عنهم ، وفي مأخذه عليهم : أنهم رفضوا ما يصلح أبدانهم وينعي عليهم أيضاً : أنهم شبهوا المال بالعقارب ، وانه أخذعلى الحارث المحاسبي ما تكلم لهم به عن الجوع والفقر والوساوس والخطرات وغير ذلك ..

فماذا عسانا أن نقول في رأيين مختلفين من شخص واحد وفي موضوع واحد .

إن مثل هذاكان سبباً في رجوع عمر بن رباح عن إمامة أبي جعفر محمد الباقر الامام الخامس عند الشيعة الأمامية ، والميل الى قول البترية (راجع طرق الشيعة للتونحي) .

ولا يقل هجوم ابن الجوزي على الصوفية عن هجوم السيد نعمة الله الجزائري المتوفى سنة ١١١٢ هجرية في كتابه (الأنوار النعمانية) فقد أفرد لهم بحثاً خاصاً ، تحت عنوان (ظلمة حالكة في بيان أحوال الصوفية) ومن غريب ما رواه عن الهادي علي بن محمد (ع) أن أحد أصحابه قال له ـ وهو يتحدث عن الصوفية بكلام منفر ـ وان كان معترفاً بحقوقكم فنظر إليه كالمغضب ، وقال : دع عنك هذا ، من أعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا ألم تر أن أخس الطوائف ، الصوفية ، كلهم من مخالفينا ، وطريقتهم مخالفة لطريقتنا ، وأغرب من هذا أنه يسند إلى الرضا (ع) أنه قال : لا يقول بالتصوف أحد" إلا لخدعةٍ أو ضلالة أو حماقة) مع أنه مرّ معنا في هذا الكتاب أن بعض مؤرخي الصوفية ينسبها إليه ، فماذا نقول بهؤلاء المؤرخين الذين تتناقض أقوالهم وأسانيدهم ؟!

* * *

التصوّف

في كتاب منهاج الراغبين

التصوّف
في كتاب منهاج الراغبين

قال صاحب مقدمة كتاب منهاج الراغبين في الصفاء الأنسي ؛ ومعراج الواصلين إلى الحمى القدسي :

التصوف هو التخلق بالأخلاق الآلهية ، وقيل : هـو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً ، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن ومن الباطن في الظاهر ، فيحصل من الحكمين كمال" لم يكن بعـده كمـال ..

والصوفي نسبة إلى أهل (الصفة) من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وقيل نسبة إلى لبس (الصوف) والأقرب ، أن الصوفي نسبة الى الصفا ، كما قال بعضهم شعراً ..

يا واصفي أنـت بالتحقيـق موصـوفي
وعـارفي ، لا تغالط ، أنـت معروفي

إن الفتى ، مـن بعـده في الأزل يـوفي
صافى ، فصوفي ، لهذا سمّي الصوفي

وقال ابن الحاج في كتابه المدخل :

ليس التصـوف لبس الصـوف ترقعـه
ولا بكـاؤك ، إن غنـى المغنونـــا

ولا صياح ، ولا رقص ، ولا طرب
ولا انخباط ، كأن قد صرت مجنونا

بل التصوف ، أن تصفو بلا كدر
وتتبع الحق ، والقرآن ، والدينا

وأن ترى خاشعاً لله مكتئبا
على ذنوبك طول الدهر محزونا

قال الشيخ الأمير : والحق إن التصوف ، ثمرة جميع العلوم الشرعية وآلاتها إلا أن له قواعد مخصوصة ، تدون ، كما ذكره بعض العارفين(١) .

وأما الطريقة ، فهي للسيرة المعروفة بين السالكين ، من قطع المنازل والترقي في المقامات . وقيل : هي تتبع أفعال النبي والعمل بها ..

وقال الإمام ، أبو منصور الماتريدي : إن هذا الطريق ليس في طوله وقصره ، مثل المساحات التي تسلكها الأنفس ، وتقطعها بالأقدام، على حسب قوة الأنفس وضعفها ، بل هو طريق روحاني تسلكه القلوب وتقطعه بالأفكار ، على حسب العقائد ، والبصائر ، وأصله نور سماوي وفطر إلهي ، يقع في قلب العبد ، فينظر به نظرة ، فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ، ثم هذا النور ، ربما يطلبهماية سنة ، فيصرخ فيها ويبكي ولا يجده ، ولا أثراً منه ، ومنهم من وفق في

---

(١) لم يذكر هذا البعض من العارفين الذي ذكر قواعد مخصوصة للتصوف ، إلا أن الدكتور حسن ابراهيم حسن ذكر في كتابه تاريخ الاسلام ، أن ذا النون المصري تلميذ الامام مالك أول من حدد نظريات التصوف وشرحها .

ستين سنة ، ومنهم من مُنِح في شهر ، ومنهم من وصل في جمعة ، ومنهم من وصل في ساعة ، ومنهم من وصل في لحظة •

قال الخادمي رحمه الله :

هو علمُ المكاشفة الذي يظهر في القلب نوره ، ويشاهَد بـه الغيب ، وهو معنى ما قاله النبي (ص) على ما في الجامع الصغير •

علم الباطن سِرٌ من أسرار الله تعالى ، وحكمٌ من أحكام الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده • انتهى •

وقفة قصيرة مع هذا الراي

إذا كان كما يقول صاحب مقدمة كتاب منهاج الراغبين في الصفاء الأنسي ، أن التصوف •• هو التخلق بالأخلاق الإلهية ، أو الوقوف مع الآداب الشرعية ، ظاهراً وباطناً ، أدركنا : أن التصوف روحانية مقدسة ، صلتها بالله ••

ويقتضينا هذا التعريف ، أموراً عدة منها : ما هي الخصائص ، التي بموجبها ، يستطيع الباحث ، أن يدرك أسرار هذه الروحانية ، وما هو السلوك المتحتم على الراغبين في اشباع هذه الرغبة ••

وإذا كان مطلوباً في التعريف الآخر •• وهو الوقوف مع الآداب الشرعية ، ظاهراً وباطناً ، علمنا : أن للآداب الشرعية ظاهراً وباطناً •

وإذا كان ظاهر الآداب الشرعية معروفاً ، وهو التقيد بتطبيق أركانها على الوجه المعروف ، فما هو باطنها ؟ ومن أين لنا أن نعرف ، كيف يكون الوقوف مع باطنها ؟ وهل في باطنها ما يخالف ظاهرها من تطبيقات عملية ، لا يمكن أن يكون هذا الوقوف تاماً إلا بمعرفتها •

لقد رفض بعضهم ، كابن الجوزي ، وابن حزم ، أن تكون الباطنية ، أمراً مشروعاً ، لأن التكليف الشرعي منصب على الظاهر وعن آداب هذا التكليف، وصدق التعامل به، تتميز علاقة الانسان بالانسان أولاً ، وعلاقة الانسان بخالقه ثانياً .

وإذا كان التصوف ، هو الترويض والمجاهدة ، والتحلي بالأخلاق الكريمة الفاضلة ، فهل في الترويض والمجاهدة ، بمقتضى النظام الشرعي ، الذي أوجبته الشريعة ، ما يخالف المنظور الباطني ، ما دامت الغاية واحدة وهي التعلق بالله ، آداباً وسلوكاً وأخلاقاً ، وعبادة ..

يمكن أن يحصل الخلاف في الأمور الفقهية ، لوجوب الاجتهاد فيها عندما يلتبس الأمر ، أما القضايا الشرعية ، من حيث هي عبادة وايمان ، فليس في ظاهرها ما يخالف باطنها ، وليس في باطنها ما يخالف ظاهرها ، ما دام القصد واضحاً في توجيه العبادة .

إن الخلاف القائم ، عند جماعة الصوفية ، في ظواهر السلوك ، هو الذي دعانا إلى بسط هذا الموضوع ، ومناقشته .

وإذا كان التصوف طريقاً روحانياً ، تسلكه القلوب ، وتقطعه الأفكار على حسب العقائد والبصائر ، وأصله نور" سماوي ، ونظر إلهي ، يقع في قلب العبد .. ففي أي اجتهاد نستطيع أن نتنور بهذا النور وبأي طاقة نستطيع أن نستفيد من هذا النظر الإلهي ..

وإذا كان هذا هو المنظور الثابت ، فكيف لا نسلم من خلال هذا المنظور مع منطق الجبرية ، إن الانسان آلة معطلة ، تتحرك بارادة من خارجها ، مثل السيارة التي لا تتحرك إلا بإرادة السائق ، وكيف لا نسلم بانطلاقهم من مركز الآية القرآنية : (من يهد الله فهو المهتد) وإذا كانت الهداية تقديراً من الله ، فعلى من تقع تبعة الضلال؟؟

وتبعاً لهذا المنطق ، ندرك : أن الصوفي، لم يكن صوفياً بالاختيار الذاتي ، وانما أريد له أن يكون صوفياً ، فكان •• وبهذا نكون قد رفضنا فكرة الطريقة ، والعلم في منطلقات الصوفية ، لأن الطريقة ، لا بد وأن يكون لها مرشدون وأدلاء ، والعلم لا بد وأن يكون له علماء ومعلمون •

وهذا انصياع بين أن يكون التصوف علماً ، أو أن يكون طريقة ، أو يكون إلهاماً ربانياً •• حصل هذا الخلاف في تعريف أصوله ومنطلقاته ، ومرتكزاته ، ولا أدري ، كيف أختير الرقص والسماع سمة من سمات المتصوف في بعض الطرق ، وكيف تمحلوا لهذين المظهرين تفسيراً ، أخذوا به ، وأقنعوا به المريدين •

وإذا لجأنا إلى آراء الصوفيين في هذا الموضوع ، وجدنا أنهم لا يقرونه، ولا يأخذون به، وهذه آراء بعض كبار علمائهم ومفكريهم•

روى ابن ممساد الدينوري ، عن الجنيد أنه قال : السَّماع فتنة لمن طلبه •• وأبو علي الروذباري ، سئل عن السماع فقال : ليتنا تخلصنا منه ، رأساً برأس ، وقالوا عنه : السماع على قسمين : سماع بشرط العلم والصحو ، فمن شرط صاحبه ، معرفة الأسامي والصفات•

وسماع الحال ، فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتنقي من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة •

وسئل الشبلي عن السماع ، فقال : ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة ، حل له استماع العبرة ، وإلا فقد استدعى الفتنة، وتعرض للبلية ••

وقيل : لا يصح السماع ، إلا لمن كان له نفس ميتة ، وقلب حي ، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة ، وقلبه حي بنور الموافقة •

وأثر عن الجنيد أيضاً ، أنه قال : إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم ، إن فيه بقية من البطالة .

ومثل هذا كثير" مما ورد على لسان أهل الرأي ، من المتكلمين، حتى وان بعضهم تطرق كثيراً بحقه ، فقال : الغنا طريق الزنا ، ونحن لا نأخذ بهذا الرأي كثيراً ، لأنه لو كان كذلك لما اتفق على الانشاد والترتيل في المعابد عند طوائف كثيرة من العالم .

إلا أننا لا نشك أن السماع حبيب إلى قلوب اللاهين ، وأهل البطالة ، أكثر مما هو مرغوب عند أصحاب الترويض والمجاهدة ..

أما الرقص ـ هذا الاهتزاز الطافي على سطح الجسم ، فلا أعلم له رمزاً إلا التصعيد المكبوت لرغبات الجسد ، واني لا أجد لتخريج جلال الدين الرومي لهذه الحركة أثراً مقنعاً ، وإذا كان سوّغه واستمرأه فلأنه وجده من الجواذب الميسرة لأذواق العامة من الناس، وعقولهم ، يستطاع استقطاب الجماهير واستجلابها بواسطته ، وهو ليس من شرائط الصوفية ولا من قواعدها ، ولا علو فيها(١) .

وكيف يسلم بهذا أبو منصور الماتريدي ، الذي يرى أن طريق الصوفية ليس في طوله وقصره ، مثل المساحات التي تسلكها الأنفس، وتقطعها بالأقدام على حسب قوة الأنفس وضعفها ، بل هو طريق" روحاني تسلكه القلوب وتقطعه الأفكار على حسب العقائد والبصائر.

وانه لمن الخيال الغريب ، أن يرى الماتريدي أيضاً : أنه نور" سماوي ونظر إلهي ، يقع في قلب العبد ، فينظر به نظرة ، فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ، ويستطرد الماتريدي فيقول : ثم هذا النور ،

---

(١) ربما يكون جلال الدين الرومي استوحى الرقص في طريقته من رقصة (الدستبند) القديمة في تاريخ الفرس وكانت كما يقولون لها رموز دينية خاصة .

ربما يطلبه ماية سنة فيصرخ فيها ويبكي، ولا يجده، ولا أثرأمنه، ومنهم من وفق في ستين سنة ، ومنهم من مُنح في شهر ، ومنهم من وصل في جمعة ، ومنهم من وصل في ساعة ، ومنهم من وصل في لحظة ..

إن هذا الكلام أشبه ما يكون بخيال شاعر ، وكلمة (ربما) لا يستند عليها من يملك المنطق الفاصل ..

بقيت التسمية ، واشتقاقها من كلمة المصافاة بالاستناد إلى قول بعض الشعراء : (صافى فصوفي ، لهذا لقب الصوفي) ، فهذا تخريج مع اقرارنا ببراعة مستخرجه ، فهو أقرب الى التمحل .

فليس في كل ما جاء بهذا الموضوع ، موضوع الاشتقاق ، أقرب من نسبته إلى (الصوف) شعار القوم المعروف الذي رمزوا عنه بالخرقة أو المرقعة ..

بقي تعريف (الخادمي) للتصوف : من أنه علم المكاشفة الذي يظهر في القلب نوره ، ويشاهد به الغيب ، فهو نوع ، أو تعبير آخر لقول الامام أبي منصور الماتريدي ، ولكنه يختلف عن قول الشيخ الأمير ، من أنه ــ أي التصوف ــ ثمرة جميع العلوم الشرعية .

ولكن قول الشيخ الأمير : بأن له قواعد مخصوصة ، فهذا ما لم أجد عليه دليلاً في أقوال جميع من تحدثوا عن التصوف ، وبحثوا بشأنه ..

ويتراءى لي .. أن تعريف (الخادمي) و (الماتريدي) مؤسس على ما يرونه مروياً عن النبي (ص) : (علم الباطن سرٌ من أسرار الله تعالى ، وحكم من أحكام الله ، يقذفه في قلب من يشاء من عباده) وبهذا نرجع الى امتناع الاختيار الشخصي عند المريد وقد ناقشنا هذا القول في محله من هذا الكتاب ..

ويبدو أن المكزون السنجاري من الذين قذف الله في قلوبهم هذا النور ، فسلم بحسن اختيار الله له فترك الذهاب إلى اختياراته الشخصية ، فقال شعراً بمعناه ..

(حسن اتكالي ، على حسن اختيارك لي

لم يُبق لي غيـر ما تختـار مختـارا)

إن المكزون عوّل على حسن اتكاله على حسن اختيار الله له قبل أن يعول على شيء آخر ، وهذا شيء جميل من المكزون ، فالذي يكون حسنُ الاتكال على الله ، يحسن الله له الاختيار ، وهو غير الذين يجردون أنفسهم حتى من قوة الاتكال .. وقد شرح هذا البيت علامة جيله الشيخ سليمان أحمد فقال : الاتكال الوثوق والاعتماد ، والاختيار الاصطفاء ، والمختار اسم مفعول ، هنا بمعنى المطلوب ، كأنه لشده اخلاصه ، وحسن اعتماده تجرّد عن حظوظ نفسه ، فلم يكن له من مطلوب إلا اختيار المحبوب ، لأنه خير له من اختياره ، كما علم باختباره • ومثل هذا قوله :

(لم يبقِ فيّ اختياراً لنفسي حسنُ اتكالي عليك)

قيل للإمام الحسن : إن أبا ذر (رضه) يقول : الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إلي من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله، لم يتمنّ أن يكون في غير الحالة التي اختارها له الله ، ومن هنا أخذ الناظم ، عفى الله عنه ..) انتهى •

ولكن • بعد كل هذا بقيت المشكلة في مكانها من التعقيد ورغم ما أراد لها المكزون من تسويغ كريم بقيت عسيرة الهضم إذا كان الله هو الذي يختار للانسان وليس للانسان في حياته أي اختيار ، وهذا

ينسجم مع قول القائلين : (القدر خيره وشره من الله) وهو يتنافى مع الحساب على العمل ، إلا أن الملحوظ من قول المكزون هو أن الله لا يريد لعبده إلا الخير ولذلك فهو يعتمد بحسن اتكاله على الله أن ييسر له الخير .

أما قول الشيخ الأمير : إن التصوف ثمرة جميع العلوم الشرعية وآلاتها ، إلا أن له قواعد مخصوصة تدون كما ذكره بعض العارفين فالشيخ الأمير في هذا الكلام تجاوز رأي ابن خلدون كثيراً فابن خلدون يرى أن التصوف علم" من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأغفل كونه ثمرة جميع العلوم الشرعية ، وربما كان قول الشيخ الأمير بهذه الجهة فيه المبالغة العاطفية لا الحقيقة التي يقررها واقع التصوف ، أما القواعد المخصوصة فهي غير ثابتة إلا إذا كان يعتبر ما ورد على لسان صاحب منهاج الراغبين من القواعد ، ولكن أحداً من أهل الرأي لم يأخذ بهذه المقولة .

* * *

دور الحلقات الصّوفيّة

في حياة الحواضر في القرن العاشر

دور الحلقات الصّوفيّة
في حياة الحواضر في القرن العاشر

في كتاب (أهل الاسلام) لمؤلفه الراهب الفرنسي (لويس غادريه) المولود سنة ١٩٠٤ م يتحدث المؤلف المذكور عن حلقات الصوفية فيقول :

ان نبغي في الحاضر التحدث عن الصوفية بذاتها ، ولا حتى عن الذهنية ، والذهنيات الصوفية ، وانما فقط عن دور الحلقات الصوفية في حياة الحواضر ، كانت عديدة في القرن العاشر ، وكانوا كثرة لابسوا ثوب الصوف ، أو المرقعة ، السائرون في الأزقة ، أصحاب دين في معنى واسع — ربما — لكن عدا استثناءات فردية — لا فقهاء — .

صحيح ، إن أوائل الصوفية كانوا من بين المحدثين ، وان بعضهم كان يستحق لقب (عالم) ، بيد أن هدفهم ، كان غير العلم ، فما كانوا يسعون إليه ، قبل كل شيء .. هو طلب (الأحوال الروحية) (والاتحاد الالهي) ومعروف ، كم كانت شرعية سعيهم موضع استنكار في القرون الأولى للهجرة ، وشدة المواقف ، نحو التعاليم الصوفية ، وكيف أن الصوفية استطاعت أن تأخذ صورة هامشية بالنسبة للاسلام الرسمي.

ومنذ تلك الحقبة ، ظهرت تآليف تؤكد موافقتها للدين الصحيح، لكن سيقتضي انتظار العرض الذي قدمها به الغزالي في القرن الحادي عشر كيما تنال قبولاً عاماً ..

كان تحري (الحالات الروحية) والدور الذي يلعبه فيه المرشد، أو (الشيخ) يدعوان الصوفيين إلى التجمع في (حلقات) تتفاوت تنظيماً ويمكن القول : أن (الحلقات) من القرن الثامن إلى القرن العاشر كانت سوابق (الأخويات الدينية) اللاحقة ، كان الاختبار أبعد ما هو عن التدقيق الدائم ، ومع المتعطشين الى الله امتزجت عناصر مريبة ، اجتذبتها الممارسات الشاذة ، والتصرفات المتحررة التي اعتبرها البعض جزءاً أصلياً في (الطريقة) .

والاشارات الى الصوفيين وفيرة في الأخبار والروايات المختلفة ، ويتحدث ابن سينا عن الصوفيين من أصدقاء والده ، الذين عرفهم وهو طفل ، وقد تنكر في زي صوفي، وهو في نحو الخمسين، ليستطيع مغادرة همذان تسللاً إلى أصفهان ، وكيف لا نذكر الدور الذي لعبه في حكايات (ألف ليلة وليلة) الأكثر تأخراً في الوضع (القلندرية) الصوفيون السياح الذين لهج بأنبائهم الناس ..

فالظاهرة الصوفية إذن على كونها (هامشية) تبدو كأحد عناصر الحياة الاسلامية المدنية في العصور الكلاسيكية ، كانت هناك حلقات مبجلة ، كتلك التي أحاطت برابعة العدوية (عازفة الناي) الشهيرة ، التائبة الذائبة في عشق الله في (بصرة) في القرن الثامن ، لكن كان هناك تيارات مضادة للصوفية ، ولارتباطها بميول فلسفية ، لاهوتية معينة ، كان معظم عناصرها من الألهيين المعتزلة ، ومن الفقهاء الحنفية ..

وتهدف الحجج المقامة إلى الازدراء بالصوفية ، بمهاجمة أخلاقية وسلوك مريديها ، ونجد إنتقادات شبيهة بالتي وجهت إلى (أصحاب الدين) مع فارق ، أن العيب كان يتناول عثرات هؤلاء ، لا دورهم في الحاضرة .

وكان المبرز اختلاف مطالب هذا الدور مع الواقع المعاش ، أما الهجوم على الصوفيين ، فكان يتناول المذهب نفسه ، إذ ما كان لتحري (الاتحاد مع الاله) بطريق تجربة (الحالات الروحية) أن يؤدي في نظر العائبين إلا إلى التجاوزات المدانة ، ويختلط باستمرار في تلك الأخبار روايات خداعات حقيقية ، معزوّة إلى عناصر مشبوهة ، مع تأويلات خاطئة لأفعال وأقوال منسوبة لأبرز الصوفيين الكبار ..

كانت احدى التهم الأكثر شيوعاً ، تهمة الكذب والشعوذة ، كانت تقليداً في المدارس المعتزلية، وتستهدف قبل كل شيء (الكرامات) المحققة ، التي كان يرى الصوفيون فيها ، ما يشبه العلامة على الحظوة الإلهية ، وقد حُملَ على الحلاج ، بشكل خاص ، فحاول الجبائي الفقيه المعتزلي الكبير ، في القرن التاسع ، أن يثبت بأمثلة معينة ، فساد ايمان الحلاج ، وطموحه الأثيم ، وسينقل حججه بأمانة القاضي عبد الجبار في مؤلفه الضخم (المغني) وخلف لنا القاضي الحنفي التنوخي وصفاً رائعاً لحياة بغداد في القرن العاشر ، ويحفل كتابه النشوار بالنوادر التي تهزأ بالصوفيين ، وتقصد اثبات (زيفهم). ويصور الشيعي صديق الحلاج ، والحلاج ذاته في ملامح ممسوخة ، وشاع ايراد حكايات مماثلة لحكايات (الجبائي) و (عبد الجبار) حتى لتظهر الصوفية كأحد الأسباب الرئيسية لانحطاط الأخلاق .

قبول الصوفية ، أو على الأقل احترام الصوفيين ، ورفض الصوفية والطعن الشنيع في سلوك الصوفيين ، هذان الموقفان ، سيصادفان طوال التاريخ الاسلامي ، وما يزال رجعهما يتردد الى زماننا الحاضر ، ويمكن القول أن الصوفية في وقت واحد ، كانت، وظلت هامشية في الاسلام لكنها لم تغب أبداً ـ ممدوحة ، أو مذمومة ـ عن صميم مركبات الحياة الاسلامية .

مما تقدم من بحث الراهب الفرنسي (لويس غادريه) في حديثه عن حلقات الصوفية ، نرى أنه انتهى إلى القول : (إنه يمكن القول: ان الصوفية في وقت واحد ، كانت وظلت هامشية في الاسلام ، لكنها لم تغب أبداً ، ممدوحة أو مذمومــة ، عن صميم مركبات الحيــاة الاسلامية) .

والذي يستوقفنا في هــذا البحث ليس موقف (الجبائي) أو (القاضي عبد الجبار) ولا غيرهما من أخصــام الصوفية ، وانمــا استوقفنا كلمة (هامشية) يعني علاقتها بالحياة الاسلامية ، علاقة الأمر العارض، في حين نرى أن الذين كتبوا عنها ــ وأكثرهم من مؤيديها ــ يربطونها ربطاً جذورياً في صميم الكيان الاسلامي وهي بالنسبة إلى باطن الشريعة ، كالمعنى المقصود من ظاهر اللفظ ، فلا يمكن أن يكون هنالك لفظ ، إلا وكانت الغاية منه الدلالة على معنى مقصود ، وهكذا، فان علماء الصوفية ، يرون أن لظاهر الشريعة باطناً ، وان لكل ركــن من أركان الشريعة رمزاً ، يشار إليه باطنياً ، وهو خاص بأهل المعرفة، ومن هنا ذهب العلماء الفارسيون إلى الأخذ بالمذهب العرفاني ، وهو الصوفية أو التصوف المعمول به عندهم ، وهي عرفانية النفس القائمة على العلم بدلاً من الترويض والمجاهدة الحسيين عملا بمقولة : (من عرف نفسه تألّه) ..

وإذا كان هذا المفهوم سارياً عند أقطاب الفكر عندهم ، فكيف نتيح لأنفسنا ، أن نعتبر التصوف هامشي المكان بالنسبة إلى الاسلام. ونلاحظ أن الذين عارضوا الصوفية ، واستهجنوها ، واستنكروها لم تقم معارضتهم لمفهوم التصوف الشرعي الذي لا يتنافى مع شرعيــة التطبيق ، وانما عارضوا فيها الممارسات الهاربة من هذه الشرعية ..

وعندما خرجت الممارسات عن إطارها المعنوي ، إلى اطارها الحسي وأصبحت بحركاتها المتطورة ، تأخذ طابعاً عفوياً ، مكتسباً من طبيعة الجماهير ، كالرقص والسماع والتصفيق ، وعقد حلقات الذكر ، هذه المظاهر التي ليس لها صلة بالأركان ، هي التي جعلت فئة من رجال المسلمين ، ينظرون إليها نظرة التجريح والادانة ، راجع قول قائلهم :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
ولا بكاؤك ان غنّى المغنونا
ولا صياح" ، ولا رقص" ولا طرب"
ولا انخباط" كأن قد صرت مجنونا

فإذن معارضة التصوف تقع من معارضيها على مثل هذه الحركات الجنونية التي هي أشبه بحركات السكارى والمخمورين •

وهذا يؤيده قول (لويس غادريه) في بحثه السالف وهو : (أما الهجوم على الصوفيين ، فكان يتناول المذهب نفسه ، إذ ما كان لتحري الاتحاد مع الله ، بطريق تجربة الحالات الروحية ، أن يؤدي في نظر العائبين إلا إلى التجاوزات المدانة ، وليس من المستغرب في هذا المجال أن تكون الكرامات التي تتحدث عنها كتب الصوفية ، هي الباعث للموقف المناهض لها ، فما يراه بعضهم كرامات — كما يسمونها — يراه البعض الآخر شعوذة وتدجيلاً ، وهذا ما جعل (الجبائي) ، و (عبد الجبار) و (ابن الجوزي) وغيرهم يهاجمون الصوفية بهذا الأسلوب الصاعق ••

وإليك أمثلة من هذه الكرامات المضحكة ، مأخوذة عن رسالة القشيري :

أبو نصر السراج قال : سألت أحمد الطابراني السرغسي ، هل ظهر لك شيء" من الكرامات ؟ فقال : في وقت ارادتي ، وابتداء أمري، ربما كنت أطلب حجراً أستنجي به ، فلم أجد ، فتناولت شيئاً من الهواء فكان جوهراً ، فاستنجيت به ، وطرحته ..

وعن أبي الحسين البصري ، قال : كان بعبادان رجل أسود فقير ، يأوي إلى الخرابات ، فجعلت معي شيئاً ، وطلبته ، فلما وقعت عينه عليّ ، تبسم وأشار بيده إلى الأرض ، فرأيت الأرض كلها ذهباً تلمع ، ثم قال : هات ما معك ، فناولته ، وهالني أمره وهربت ..

وعن الحسين بن أحمد الرازي، قال: سمعت أبا سليمان الخواص يقول : كنت راكباً حماراً يوماً ، وكان الذباب يؤذيه فيطأطئ رأسه، فكنت أضرب رأسه بخشبة في يدي ، فرفع الحمار رأسه ، وقال اضرب ، فأنك على رأسك هوذا تضرب ، قال الحسين ، فقلت لأبي سليمان : لك وقع هذا ؟! فقال : نعم ، كما تسمعني .

وذكر عن ابن عطاء ، أنه قال : سمعت أبا الحسين النوري ، يقول : كان في نفسي شيء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان ، وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزتك لئن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقن نفسي ، قال : فخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال ، فبلغ ذلك الجنيد ، فقال : كان حكمه أن تخرج له أفعى تلدغه ..

وروي عن عمر بن يحيى الأردبيلي ، أنه سمع الرقي يقول : أنه سمع ابن الجلاء يقول : لما مات أبي ضحك على المغتسل ، فلم يجسر أحد" بغسله وقالوا : إنه حي ، حتى جاء واحد من أقرانه ، وغسله .

وروى المفتاحي ، صاحب سهل بن عبد الله ، قال : كان سهل يصبر عن الطعام سبعين يوماً ، وكان إذا أكل ضعف، وإذا جاع قوي.

وكان أبو عبيد البسري ، إذا كان أول شهر رمضان ، يدخل بيته ويقول لامرأته : طيني عليَّ الباب ، وألقي إليَّ كل ليلة من الكوة رغيفاً ، فإذا كان يوم العيد ، فتح الباب ، ودخلت امرأته البيت ، فاذا بثلاثين رغيفاً في زاوية البيت ، فلا أكل ولا شرب ، ولا نام ، ولا فاتته ركعة من الصلاة ...

وعن علي بن سالم ، قال : كان سهل بن عبد الله أصابته زمانة في آخر عمره ، فكان إذا حضر وقت الصلاة ، انتشرت يداه ورجلاه، فاذا فرغ من الفرض عاد إلى حال الزمانة ..

وحكي عن أبي عمران الواسطي ، قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتي على لوح ، وقد ولدت في تلك الحالة صبية ، فصاحت بي وقالت : يقتلني العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، فرفعت رأسي ، فاذا رجل" في الهواء جالس ، وفي يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر ، وقال : هاك ، اشربا ، قال ، فأخذت الكوز ، وشربنا منه ، واذا هو أطيب من المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت رحمك الله ، فقال : عبد" لمولاك، فقلت : بمَ وصلت إلى هذا ، فقال : تركت هواي لمرضاته فأجلسني في الهواء ، ثم غاب عني ، ولم أره .

هذا قليل من كثير ، مما زخرت به رسالة القشيري ، في باب كرامات الأولياء ، وكلها من هذا النمط السخيف ..

وقد أعجبني في هذا الباب ، موقف لأبي يزيد ، فقد قيل له : فلان يمشي في ليلة إلى مكة ، فقال : الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله ، وقيل له : فلان يمشي على الماء ويطير في الهواء ، فقال : الطير يطير في الهواء ، والسمك يمر على

الماء ، وقال ، سهل بن عبد الله ، أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك •

إن تلخيص مفهوم الكرامات ، جاء على لسان سهل بن عبد الله في هذه العبارة ، ولو وعى متصوفو القرون الأخيرة ما وعاه متصوفو القرون الأولى ، من مفهوم التصوف ، لما وجدوا من يعترض على سلوكهم ، ولا من يتعرض لهم ، ناقداً أو ساخراً ، مسلماً كان ، أو غير مسلم ، وأجنبياً كان ، أو غير أجنبي •

ومن المحتمل أن يكون تعيين الفلسفة اللاهوتية عند فلاسفة الصوفية ، هو الذي خلق ضدهم التيارات المضادة من الآلهيين المعتزلة ومن الفقهاء الحنفية ، لأن هؤلاء تتناول فلسفتهم غير اللاهوتيات وخاصة المعتزلة ، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون للصوفية دور تلعبه في حدود الفكر الروحي ، لا يخلو من قيمة ذات أهمية •

أما تحويل التصوف من فكرة ذات صبغة فلسفية إلى فكرة خالية من الفكر ، كما هو الحال في الممارسات التي شغلت الصوفية في القرنين العاشر والذي يليه ، ولا بأس أن يقف الباحثون ، عند هذا التحول وما سببه ، وما هي الغاية منه ، وكيف تحول الصوفيون عن فلسفة الغزالي وابن سينا وابن طفيل إلى فلسفة الرقص والطرب ولذائذ الطعام •

وواخيبة ابن عربي في رؤياه التي رأى بها رسول الله (ص) يملي عليه كتاب فصوص الحكم في العشر الأخر من محرم سنة ٦٢٧ هجرية فلم يعد لفلسفته في هذا الكتاب ما يدل به على الناس من جماهير المتصوفين من جراء هذا التحويل •

* * *

الرّوح الصّوفيّة المثاليّة في الإسلام

الرّوح الصّوفيّة المثاليّة في الإسلام

تحت عنوان الروح الصوفية والمثاليـة في الاسـلام ، تحدث (سيد أمير علي) في كتابه (روح الاسلام) ، فقال :

إن الفلسفة الصوفية ، التي تشكل روح الأدب الفارسي الحديث ومادته ، تعود في أصلها ، بشكل واضح ، الى الأهمية الذاتية ، التـي كانت تعلقها طائفة مشهورة من المسلمين على معاني الكلمات المستعملة في القرآن الكريم : (هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهـو بكل شيء عليم) .. والشعور الحي ، بسمو الخالق ، الذي طالما تحدث عنه النبي وعمق الشعور بحرارة الايمان ، والنشوة البالغة ، التـي ينالها المؤمن ، كل هذه تحتوي على الأسس الرئيسية ، التي قام عليها المبدأ الصوفي في الاسلام ، وأثناء حياة الرسول ، وعندما كانت الشعائر الدينية أكبر مقاماً ، من التأمل الديني ، كان مجال ارتفاء الصوفية في الاسلام ضيقاً محدوداً .

والصوفية ، والمذاهب التأملية ، تنشأ في الأديان جميعها ، وبين كل أمة ، ولكنها تختلف بالنسـبة لخصائص الأفـراد والأجناس ، وبالنسبة لاستعدادهم للجمع بين المحسوس ، واللا محسوس .

فالهندوسية تنظر إلى ذوبان المحدود في اللا محدود ، على اعتبار أنه بلوغ أعلى درجات السعادة •• ثم يقول :

ونحن نجد عند العقول المتفتحة في العالم الاسلامي ، أن فكرة وجود معنى أعمق ، وأكثر أصالة في كلمات القرآن قد انبثقت من الرغبة ، ليس في الهرب من صراحة النص والعقيدة ، بل من اعتقاد جازم بأن هذه الكلمات ، انما تعني أكثر ، وليس أقل مما تتضمنه معانيها العامة التي يفترض أن يفهمها الناس ، وقد أدى هذا الاعتقاد مضافاً إليه الشعور العميق بقدسية الإله ، وهو الشعور الذي نشأ وفقاً لتعاليم القرآن ، وتعليمات الرسول ، إلى نشوء تلك الفلسفة ، التي ربما كان انتشارها بين أتباع محمد ، قد تم بمساعدة النظريات الأفلاطونية الجديدة التي ظهرت آنذاك ••

وقد كان الامام الغزالي في الشرق ، وابن طفيل في الغرب ، أكثر ممثلين للصوفية بين المسلمين ••

والأول — يعني الغزالي — لم يقتنع بأية فلسفة ، أو طريقة فلسفية تقيم أساس المعرفة على ركائز الخبرة والعقل ، فلجأ إلى الصوفية ، وقد ساعد نفوذ الغزالي على الاسراع في انتشار الصوفية بين المسلمين في الشرق الى حد كبير ••• ثم قال :

وليس من المفروض أن يكون الغزالي ، أول من بشر ، أو دعا إلى الصوفية في الاسلام ، ذلك إن التعرف الى الله ، كان في صلب العقيدة الاسلامية •• ان نية القربة ، والتفاعل مع الله ، هي الركن الرئيسي في الايمان الصحيح ، ومعراج الرسول ، إنما عنى الاتصال الكلي بين المحدود ، واللا محدود ، والله لا يهدي قلوب أولئك الذين يريدون مخلصين ، مساعدته وارشاده فحسب ، بل إن جميع المعرفة ، منبثقة من المعلم الأعلى ••

وقد جاءت المعرفة إلى النبي بواسطة وحي مباشر ، وكثيراً ما كان الله ينقل أسراره القدسية إلى القلائل من مختاريه ، دون أية واسطة .. وهذا يسمى في الاسلام العلم اللدني ، وقد أشير إليه في القرآن ، بقوله تعالى (وعلمناه من لدنّا علماً) ..

وكذلك فإن المبدأ ذاته ، فيما يتعلق بالتقرب الشديد من الله قد وردت في الحديث الشهير : (ما وسعتني أرضي ، ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي) .

وهكذا ، فان وعد الله يلقى تجاوباً في القلوب البشرية عندما تتجرد أثناء الصلاة ، فتردد (سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد).

ثم قال : إن علياً كان يتحدث عن النور القلبي في خطبه وأدعيته، وفاطمة الزهراء تردد الحديث عن ذلك النور ، وكذلك علي بن الحسين ..

ثم قال : غير أنه لا يوجد في السجلات القديمة ، لمبدأ النور القلبي ، أي أساس للافتراض القائل : بأن النبي ، أو من تحدّر إليهم تراثه الروحي ، قد بشر بالتخلي عن الأمور الدنيوية والانصراف كلياً للعبادة ، أو اتباع التقشف الذي طالما استهجنه النبي .

ثم قال : فالتعبد الصوفي ، ليس بالتطور الجديد ، لا في المسيحية ، ولا في الاسلام ، لقد وجد في العالم الروماني ، ولم يكن مجهولاً لليهود ، وفي أديان الهند نشأ هذا التعبد ، وله طابع العنف، وقد انتشر بمختلف الأشكال ، ومن الهند انتقل هذا التعبد إلى غربي وأواسط آسيا ، حيث كان يتخذ بين الفينة والفينة أكثر الأشكال خيالية ، فحيثما وجد هذا التعبد ، كان يفرض التخلي عن جميع أشكال التجارة مع العالم الخارجي وترك العائلة وما يربط المرء إليها من

روابط والتزامات ، وتركيز عقل الانسان على موضوع واحد ، وترك المواضيع الأخرى ، وفي الواقع ، فان هذا يمثل لب التعبد الصوفي •

ثم قال : ذكر أبو نصر السراج في مؤلفه (اللمع) حول فلسفة الصوفية •• أن جنيد قال : لو لم يكن علي" مشغولا بكثير من الحروب ، لكان قد وهب العالم قدراً كبيراً من العلم اللدني الذي كان قد وهبه إياه الله •

وفي (تذكرة الأولياء) لفريد الدين العطار ، أعطى المقام الأول في قائمة الأولياء الطاهرين إلى الامام جعفر الصادق ، وهو سادس الأئمة ••

وإنه لجدير" بالذكر أنه في حالة كل ولي" صوفي على الغالب كأن النسب الروحي يرجع إلى علي" ، ومنه الى النبي ، وقلائل هم الذين أرجعوا هذا النسب إلى أبي بكر ••

وفي القرن الثالث ، عندما ظهر جنيد ، كانت الصوفية قد أصبحت معترفاً بها ، كاحدى فلسفات الاسلام ، ولكنها بالنظر للمجال الواسع الذي تقدم في ميدانه انطلاق الفكر ، نراها أخذت تدخل إلى مختلف العقول بأشكال لا تمت إلى الاسلام بصلة •

وقد شجب أبو نصر السراج الميول التي في غير مواضعها ، والتي انبثقت من فوضى الآراء والمعتقدات القديمة •

ايجابيات هذا البحث
بين التسليم والمناقشة

لم يكن (سيد أمير علي) وهو خير من عالج هذا البحث وطلع علينا باستنباطات تلقي الضوء الكاشف على مزايا هذا البحث ، أجل

لم يكن عندما قال : (المذاهب التأملية ، تنشأ في الأديان جميعها ، ولكنها تختلف بالنسبة لخصائص الأفراد والأجناس للجمع بين المحسوس واللا محسوس) مبالغاً فيما يرى ، فالمذاهب التأملية ، لا بد وأن يكون لها مسرحها الخاص ، وانطلاقاتها المعينة ، حيث يكون باستطاعتها استجلاء ما وراء المحسوس ، عن طريق قوة التصورات الخيالية الكامنة في المحسوس ، ولا بد للأدوات الحسية أن يكون لها عمل" تتشاغل به في تركيب المادة الحسية ، وخلق الصورة الملائمة لها ..

ومنذ كانت الذات الآلهية ، قناعة حاصلة في ذهن الانسان كان لا بد له من التحقق عن ماهية هذه الذات ، فتوصل منها إلى أنها .. الجوهر الفرد أو الوجود المطلق .

ولكن ، هذا الجوهر الفرد ، لا بد أن يتشكل في صورة ، تكون دونها جميع صور الموجودات .

ولما عجز الانسان عن اعطاء هذه الصورة ، الصفة التي تليق بها ، خلع عليها ما يلائم تصوراته من جوارح الانسان الحسية الملحوظة في استعمال البطش والقوة ، كاليد والوجه ، وذهبت التوراة إلى أكثر من ذلك ، فجعلت الانسان مخلوقاً كشبهه ، ومن هنا اتخذ الانجيل اعطاء المسيح الانسان الابن ، صفة الآله الأب فقيل في الصلوات المسيحية : (إله حق من إله حق ، مساوياً للأب) فكانت اشارات أولية إلى تجسيد الذات .

وجاء القرآن ـ ومع كل تأكيداته على غيبية الذات ـ لم يخرج في وصف حالاتها الغضبية(١) ، والرضائية(٢) ، عما يتصف به

(١) ان بطش ربك لشديد ، وانه هو يبدىء ويعيد .

(٢) ولمن خاف مقام ربه جنتان .

الانسان ، مع اشارات صريحة الى مادية الأعضاء ، كاليد والوجه ، والنطق وغير ذلك .

وإذا كانت الأديان ، بمختلف أزمنة ظهورها ، لم تستطع التخلص من صفات التجسيد ، فما بالك بالتجسيد عند الوثنية ، التي لم تعتمد على غيره ، سواء" بذلك عبدة الكواكب السماوية ، أو العناصر الأرضية (الاستقصات) .

وإذا كانت هذه المعبودات ، ذات أثر تسليمي عند السواد من الناس فهي عند الخاصة ، لا بد أن تكون مصدراً لتوترات داخلية ، تستلهم منها قناعاتها العقلية ، متجاوزة بذلك ، أن تكون ذات وجه واحد لمنظور واحد ، وليس من المسلم به ، أن يحدث مثل ذلك ، إلا بترويض النفس على التأمليات الروحية ، يرافقها عقل فعال ، يدرس أحوالها السلبية والايجابية ، ينتهي بصاحبه ــ إما لتعطيله سلبياً ، أو لتحجيره ايجابياً .. ومن هنا كانت فكرة نشوء المذاهب التأملية واختلافها بحسب الأفراد والأجناس .. وعلى هذا الأساس ظهر القول باعطاء التصوف حالة القدم التاريخي ، حتى لا يكون الاسلام الذي فشا فيه هذا النوع من التحرك الروحي منفرداً في نشوئه ..

والمسلمون ، الذين خرجوا من العهد الأموي مشوشين بآراء أصحاب الكلام ، ودخلوا في العهد العباسي ، فتشوشوا بآراء أصحاب المذاهب الفلسفية ، حاروا بين المتكلمين والفلاسفة ، وحاروا بين الرغبة في الدنيا ، التي هي سبب الصراعات القائمة بين الناس ، وبسببها يقتل الانسان الانسان ، ويستبيح شعب" شعباً آخر ، تحت تأثير البطش الأشد ، والقهر الأقوى .. وبين الزهد فيها ، وبما يحلو منها ، وطبعاً ، هذه الحيرة .. حتى يخرج الانسان منها ، ينبغي أن يلجأ الى التأمل الجاد في تحديد الموقف المنقذ المريح الذي

سيتخذه .. ولا يكون التأمل الجاد في سواد الناس وعامتهم إنما يكون حصيلة الاغراق فيه عند الأفراد الخصوصيين الذين تتوامض في أذهانهم أشعة البحث عن الحقيقة المقنعة ، والأسلوب المؤدي إلى امكانية الجمع بين المحسوس الذي يعيشونه واللا محسوس الذي يتخيلونه ، وأخيراً وبما استعرضوه من خيبة مريرة في الحياة ، غلبت فكرة الزهد عند بعض أفراد المسلمين كأبي اسحاق ، ابراهيم بن الأدهم ، ومن جاء بعده ممن رغبوا عن الدنيا ، وأثروا الزهد فيها ، وأخذ مذهب الزهد ينتشر وصار له بين الناس دعاة وأنصار ، حتى أخذ مظهراً مزرياً تماماً ومخالفاً لكل مظاهر الترف والبذخ والحياة الناعمة ، حتى أنهم يروون ، أن بعضهم قال : رأيت فقيراً يجود بنفسه غريباً ، والذباب على وجهه ، فجلست أذبّ الذباب عن وجهه ، ففتح عينيه وقال : من هذا ؟ أنا منذ كذا سنة في طلب وقت يصفو لي ، فلم يبق إلا الآن جئت أنت توقع نفسك فيه ، مُرّ عافاك الله تعالى ..

وقال عمران الأصطخري : رأيت أبا تراب – أبو تراب النخشبي – في البادية ، قائماً ميتاً ، لا يمسكه شيء ..

ورووا أن سبب موت ابن بنان .. أنه ورد على قلبه شيء فهام على وجهه ، فلحقوه في وسط متاهة بني اسرائيل في الرمل ففتح عينيه وقال : ارتع ، فهذا مرتع الأحباب . وخرجت روحه .

وهناك روايات كثيرة من هذا النوع المشوه لفضيلة الزهد والذي يصرفنا الى فهم الزهد بغير معانيه الفاضلة التي تحدث عنها الرسول ، وتحدث عنها أقطاب المتصوفين ، كأبي القاسم الجنيد وغيره ..

ويلاحظ أن هذا المفهوم الأبله للزهد ، حدا ببعضهم إلى اعطاء مظاهر التصوف لوناً فلسفياً ، فعمدوا إلى جعله منطقاً ، يستفيد منه

الفكر والعقل .. ولكن الفكر والعقل ، لا بد لهما عند المسلمين من الربط بين الأمور الشرعية ، وأحوال التصوف ، فلجأوا الى ايجاد الفكر الأعمق ، وعدم الاكتفاء بصراحة النص ، مما سبب اجتهادات فوضوية سلمت الحلاج والشلمغاني إلى أعواد الصلب ، ثم الحرق بالنار على ضفاف دجلة ..

ونظر الغزالي وابن طفيل إلى لغة الفلسفة ، والاعتماد على العقل فوجدا فيهما المحرض الأكبر على خنق التصوف ، فالتمسا طريقاً غير الفلسفة والعقل ، وتصديا لهما بهوس مجنون ، وبحرب لا هوادة فيها ، وبالرغم من الصولات والجولات في (المنقذ من الضلال) و (احياء علوم الدين) و (حي ابن يقظان) لم يحققا نصراً كافياً ، ولكنهما عملا على صرف الباحثين عن الاعتماد على العقل والفلسفة ، لأنهما لا يعطيان حقائق الأشياء بالنسبة الى الايمان بالله والرسل والشرائع ، وأعطيا أمثلة محرجة بذلك ، وبهذا خرجت مظاهر التصوف من اطار التحليل والبحث ، إلى اطار الاستسلام والتسليم بغير جدل ، فساعد ذلك على انتشار التصوف مجدداً على وجه جديد من التطبيقات والممارسات ..

وانطلاقاً من هذه القاعدة ، قاعدة ترك العلم بطريق البحث عنه حدثت مقولة (العلم اللدني) بديلا عنه ، وتعويضاً عنه ، عملا بقول الله تعالى (وعلمناه من لدنا علماً) ، فأدخلوا إلى عقول الناس ، ان العلم يأتي من المعلم الأعلى ويصدر عنه ، وليس عن سواه ، فمن يخلص في علاقته مع الله يستحق هذا العلم ، ويصل بسرعة ، وان الحديث القدسي صرح أن الله سبحانه قال : (ان السماوات والأرض لا تسعني ، ويسعني قلب عبدي المؤمن) فمن كان عبداً مؤمناً بالله ، سكن الله قلبه ، وأخلاه مما سواه ، ومن سكن الله قلبه كان من الفائزين عنده ، ولا يتأتى ذلك عن غير طريق العبادة ، التي هي نور

يشرق على القلب ، وليست علماً عملياً مكتسباً بالدأب والجهد ، واحتجوا بالنور القلبي الذي كان يتحدث به علي وفاطمة في الأدعية والخطب ..

أما الذين لا يروقهم ذلك فقد احتجوا : ان النور القلبي الذي تحدث به عليٌ بن أبي طالب ، لا يدعو للتخلي عن الأمور الدنيوية ، والانصراف للعبادة ، وهذا شيء ملحوظ غير صالح للجدل والحوار .

وإذا كان كما قلنا في سالف كلامنا بهذا البحث : للتصوف حال قديم مع الأديان ، فيكون كما قيل : ليس التعبد الصوفي جديداً ، لا في المسيحية ، ولا في الاسلام ..

وهذا القول ، ترك الباحثين في جدلية مستمرة عن نشوء التصوف، ولماذا ترك هذا الأثر في المسلمين واصبح التصوف مرافقاً للتاريخ الاسلامي ويشار اليه من خلاله ، ولم نجد من بحث التصوف كحركة فعالة في أديان أخرى رغم انتمائيته اليها حسب تصور المؤرخين ، واذا كان سر الخمرة في العنب ، فأين سر العنب يا ترى ؟..

ابو نصر السراج شجب الميول التي في غير مواضعها ، والتي انبثقت من فوضى الآراء والمعتقدات القديمة ، وكان محقاً بذلك .

* * *

التصوّف الظنين

التصوّف الظنين

في مجلة (علم النفس) لصاحبها الدكتور يوسف مراد ، وفي المجلد رقم (١) عدد (٢) اكتوبر ١٩٤٥ قال ابراهيم ابو غرة في تعليقه على كتاب (ابن الفارض والحب الإلهي) لمؤلفه الدكتور مصطفى محمد حلمي ، مدرس الفلسفة والتصوف بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول :

يقوم التصوف في جملته ، رياضة وسلوكاً ومعرفة ، على التجربة الوجدانية ، وليس هذا مما يسهل دراستها دراسة موضوعية ولا مما يمكن أن ينفذ الى طبيعتها العقل ، فيكشف عن خصائصها ، ومن اجل هذا ، فقد ظل التصوف ظنيناً عند الباحثين ، يهدمه البعض هدماً تاماً ، ويرى في أصحابه احد اثنين ، اما ماجن ، او منحرف مريض ، ويعطف البعض الآخر على أهله باعتبارهم فئة قد يكون في تمايزها ما يوجب دراسة أسلوب حياتها ، من جملة ما خلفه لنا المتصوفة من آثار ، ولا سيما ما يتفق منها مع ما انتهت اليه البحوث التجريبية ، والاستدلالية المنطقيـة .

وفي الحالين لا يمكن للباحث ، أن يصل إلى اليقين ما لم يتخذ من علم النفس أساساً لدراسته ، ولا سيما ذلك المنهج الذي ينفرد به علم النفس عن سائر العلوم الطبيعية ، وهو منهج التأمل الباطني ، أو النظر النفسي ..

ثم قال ... وأخيراً نرى التصوف كمعرفة بالكون ، وبالله ، لا يقوم على استدلال ولا منطق ، بل على صدى العاطفة ، وما تثيره في نفس الصوفي ، من معان يترجمها ويصبغها بصبغة ادراكية فإذا بها، عقيدة ، ومبدأ ، وفلسفة ..

ثم قال : على أن أهم الآراء التي انتهي إليها في هـذا البحث الضافي الذي اعتمد في أكثر أجزائه على التحليل النفسي ثلاثة :

١ ــ اتخاذ الأذواق والمواجيد ، كسبيل للمعرفة اليقينية .

٢ ــ اعتبار الحب والمعرفة شيئاً واحداً يلزم عنه منطقياً القول بالجبرية ووحدة الوجود القطبية .

٣ ــ اتفاق الأديان جميعها في الجوهر ، واختلافهـا بالشرع المتغير بتغير الظرف والمكان .

ـ التعقيب حـول هذا الكـلام ـ

التجربة الوجدانية ، كما يقول صاحب المقال ، هي التي يقوم عليها التصوف وهذه التجربة ، ليست خاضعة لحكم العقل ، متعاطفاً بذلك مع صاحب احياء علوم الدين .

وهذا التحرر من حكم العقل جعلها ظنية عند الباحثين ، الأمر الذي جعل الباحثين قسمين .. قسم يتعاون معها ، وقسم يهاجمها ويحمل عليها ..

وكان المتعاونون معها فئة تلتمس لها دراسة من علم النفس لمعرفة مرضاها من أصحائها ، وهذا رأي ليس في ايجابيته مـا يسيء إلى الموقف المتأني حيال حركة مبهمة ، ويستطيع أن يخلد إلى ما فيه مـن ترويض على التروي في الجزء بأمور فيها إشكال ..

كان هذا في وقت كثر فيه الجدل حول شرعيتها ، أو خروجها على الشرعية ، ولكن كل هذا لم يحل دون سريانها بشكل أو بآخر ..

ويلاحظ أن صاحب المقال استقر على رأي قاطع هو أن التصوف كمعرفة بالله وبالكون ، لا يقوم على استدلال ، ولا على منطق ، وهو بهذا يكون مع الامام الغزالي رفض الاستدلال والمنطق كوسائل مفضية إلى المعرفة ، وانما اعتمد على ما تثيره العاطفة من معان في نفس الصوفي تتحول إلى عقيدة ومبدأ وفلسفة .

ومن مقتضيات الحال ، أن نتساءل عما إذا كانت العاطفة وهي الحب المضغوط ، بمقدورها أن تتحول الى عقيدة ومبدأ وفلسفة .

وبتعبير آخر ، العاطفة ، احساس وشعور في القلب ، لا يعرف كيف ينبض بها ، لأن القلب مصدر الهواجس والخواطر النفسية ، المتأثرة بهجمات التصورات الوهمية ، من داخل النفس ، إلى ما هو خارجها ..

أما قصة المواجيد والأذواق ، كسبيل إلى المعرفة اليقينية ، فلا أرى في المواجيد والأذواق . معرفة .. وانما هي نوع" من الخبل والانحراف وفقدان السيطرة على الارادة ..

وأما اعتبار الحب والمعرفة ، شيئاً واحداً يؤدي بالقول إلى الجبرية ووحدة الوجود ، فهذا ما جنح إليه الحلاج وأمثاله ممن أعياهم النفاذ إلى الحقيقة الآلهية .

وأما القول باتفاق الأديان في الجوهر ، فلا أجد من يعارضه ولكن كان لا ينبغي أن تتغير تشريعاً بتغير الزمان والمكان وانما ينبغي أن تتغير بتغير أحوال الانسان ، فالزمان والمكان لا يغيران ، وانما يغيرهما الانسان بطموحاته وحاجته وتبدل أحواله وتفكيره .

وهنا يتجلى صدى العاطفة الذي لا يقوم على استدلال ولا منطق في معرفة الله والكون ، لأن الصوفي الخاشع المتذلل الطموح يتحرق أملاً في أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتي علت بالصلوات بفضل الله ونعمته إلى الرؤى الطوباوية والصحبة الآلهية كما يقول بعضهم •

* * *

التصوف

من المسائل التي شغلت أفكار المسلمين

التصوف
من المسائل التي شغلت أفكار المسلمين

بحث الدكتور حسن ابراهيم حسن ، في كتابه (تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) حركة التصوف بعد أن تم انتصار السنة على الاعتزال ، بتأثير حجة الاسلام الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) فقال ، تحت عنوان : المتصوفون المعتزلون :

ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر (التصوف) ذلك أن كثيراً من المسلمين ، الذين اشتهروا بالورع والتقوى ، لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى فرأوا أن يتقربوا إليه ، عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبّه تعالى ، ومن ثم سمّوا المتصوفين .. ويقول (براون) : انه ليس ثم علاقة بين اسم الصوفية ، وبين الكلمة اليونانية (سوفس) وتكتب بالسين لا بـ (ص) ويقابلها بالعربية (فيلسوف)، أو سفسطي ، أو بكلمة (صفاء) كما يدعي الصوفيون أنفسهم ، أو بأهل الصفة ، وهم جماعة من الفقهاء ، ظهروا في صدر الاسلام ، وكانوا يجلسون على صفة المسجد ، ويجمعون معاشهم من أهل الورع عن طريق الفتاوى .. ولكنه مشتق من الكلمة العربية (صوف) كما يتضح من قرائن أخرى ، كاسمهم بالفارسية (بشنيمايوش) ومعناها الملابس الصوفية ، مما يتميز به المسلمون الأولون الذين عرفوا بالبساطة والتقشف ..

ويقول المسعودي : ان عمر بن الخطاب ، كان يلبس الجبة الصوف ، المرقعة بالأديم ، ويشتمل العباءة ، على حين أن سلمان الفارسي ، كان يلبس الصوف ، ويقال هذا عن أبي عبيدة بن الجراح الذي كان يظهر للناس ، وعليه الصوف الجافي .

ولما تقدم الزمن بالمسلمين ، وسادت المادية والبذخ ، حافظ بعض المسلمين على سنّة الرسول والخلفاء بالملبس ، واحتجوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادية والتبذير ، اللذين انغمس فيهما معاصروهم ، فأطلق عليهم (الصوفيون) ولحق بهم ما يلحق عادة بالمحافظين . وقد تكلم القشيري ، المتوفى سنة ٥٦٩ هجرية الموافق ١١٧٣ م على المتصوفين الأول ، فقال : فلما ظهرت البدع ، وتشاحنت الفرق ، وصار أصحاب كلٍّ بدعة ، وأنصار كل فرقة ، يدعون أن فيهم زهاداً ، انفرد خواص أهل السنّة ، المراعون أنفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية ، وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثاني الهجري بقليل ..

وقد أوضح عبد الرحمن جامي ، الشاعر الفارسي المشهور في كتابه (نفحات الأنس) : أن أول من تسمى بالصوفي ، هو أبو هاشم الذي ولد بالكوفة ، وأمضى سواد حياته في الشام توفي سنة ١٦٠ هجرية الموافق ٧٧٧ م ، وإن أول من حدد نظريات التصوف ، وشرحها (ذو النون المصري) سنة ٢٤٦ هجرية الموافق ٨٦٠ م تلميذ الامام مالك .. وان الذي شرحها وبوبها ونشرها ، هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ الموافق ٩١٠ م ودعا إليها فوق المنابر الشبلي ، المتوفى سنة ٣٣٤ هـ الموافق ٩٤٥ م ، ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص ، هي رابعة العدوية بنت اسماعيل ، التي اشتهرت بالصلاح والتقوى وكان النساء يجلسن إليها ، ويسمعن وعظها ، وقد أشار جامي إلى ذلك في هذين البيتين :

ولـو كان النسـاء كمـن ذكرنـا
لفُضلت النسـاء عـلى الرجال

فلا التأنيث لاسـم الشمس عيبٌ
ولا التذكيـر فخـرٌ للهـلال

وكانت رابعة تقول في مناجاتها : إلهي تحرقُ قلباً يحبك ؟ ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم ، كما تكتمون سيآتكم ، ومن قولها في حب الله سبحانه :

إني جعلتـك في الفـؤاد محدِّثي
وأبحت جسـمي من أراد جلوسي

فالجسـم منـي للجليس مؤانسٌ
وحبيـب قلبـي في الفـؤاد أنيسي

وكانت رابعة تصلي الليل كلـه ، فاذا طلـع الفجر هجعت في مصلاها خفيفة ، حتى يسفر الفجر ، ولما ماتت ، كفنت في جبتها ، وهي خمارٌ من صوف كانت تلبسه ، وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ وقيـل ١٣٨ هـ وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقيه .. وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين وخاصة عند الفرس في عصر متأخر ، وأصبحت فلسفة المتصوفة ـ ان صح هذا التعبير ـ قائمـة على الأفلاطونيـة الحديثة ، وعلى عناصر فارسية وأخرى هندية .

وللمتصوف نفس المذهب في حبّ الله ، فهـم يحبونه حبـاً روحانياً، خالياً من الرغبات والنزعات، أي أنهم يحبونه حباً أفلاطونياً، ولا شك أنهم اكتسبوا هذا الحب ، وصيغ التعبير عنه مما وصلهم من هذه الفلسفة ، ويظهر هذا الشبه من قراءة أشـعار المتصوفين ، فاقرأ مثلاً قول عمر بن الفارض :

سقتني حميًا الحب راحةُ مقلتي
وكأسي بحب من عن الحسين جَلَّتِ

وبالي أبلى من ثياب تجلدي
به الذات في الأعدام نيطت بلذةِ

فما شاهدت مني بصائرهم سوى
تخلل روح بين أثواب ميتِ

فلو كشف العوّاد بي وتحققوا
من اللوح ما مني الصبابة أبقتِ

ومنك شقائي ، بل بلائي منّةٌ
وفيك لباس البؤس أسبغ نعمهِ

وهكذا فإنك لا تجد إلا روحانية تنبعث في هدوء واستكانة ، كما ينبعث النفس بين شفتي المريض ، فانظر في هذه الأبيات ، فهل تجد إلا انكار الذات ، وفناء الجسم ، وتيقظاً في الروح ، في البيت الأول أحبّ بعينيه ، وفي الثاني وجد لذة في انعدام ذاته أمام ما يفكر فيه من جمال المحبوب (قدرة الله) وفي الثالث والرابع في جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنفة التي تجد في (البيت الخامس) لذة الألم واستمراء البؤس ..

وكما اتخذ بعض أهل التصوف ، وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى ، كذلك لم يتخذه بعضٌ آخر إلا وسيلة ، لتحقيق مآربهم الشخصية وفي ذلك يقول محمود الوراق :

تصوّف كي يقال له أمينٌ
وما يعني التصوف والأمانه

ولـم يـرد الآلـه بـه ، ولكـن
أراد به الطريـق إلى الخيانـه

وقال ابن السماك للصوفية : (والله لئن كـان لباسكم وفقـاً لسرائركم ، لقد أحببتم أن يطّلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفاً ، لقد هلكتم) • ويقول (فون كريمر) : يظهر من غير شك ، أن التصوف جمعٌ بين عنصرين مختلفين ، تقشف مسيحي قديم ، دخل بقوة حتى في فجر الاسلام ثم دخل بعد ذلك بكثير ، من عنصر بوذي ، هـو عنصر التأمل ، والتفكير العميق ، وذلك نتيجـة لتأثيـر الفرس في الاسلام ، وكانت لهذا العنصر الغلبة في تكوين التصـوف الاسلامي الخالص •

فالأول يعبر بجلاء عن تأثير ذلك العنصر في العقل العربي أكثـر من غيره ••

والثاني يعبر عن تأثيره في الطبيعة الفارسية ••

ويظهر أن التأثير الهندي في التصوف الاسلامي ، لم يكن كبيراً بالدرجة التي تصورها (فون كريمر) ، فإن تأثير الأفلاطونية الحديثة والعناصر الاسلامية ، كان في الواقع أعظم منها بكثير ، وقد أجـاد (دي بور) في كلامه عن التصوف ، فقال : واذا تكلمنا عن التصوف الاسلامي فنحن نتناول بالبحث نظاماً عملياً ، أساسه ديني ، أو روحي ، غير أن الأنظمة العملية ، تتخذ من الفكر مرآة تتجلى فيها دائماً ، وهي تتخذ من ذلك صبغة نظرية ، ولم يكن بدٌّ من أفعال لها أسرارها ، ومن أشخاص يقرّبون ما بين الانسان وربه •

ويحاول هؤلاء الأشخاص ، أن يطلعوا على أسرار تلك الأفعال ، ثم يظهروا خواص مريديهم عليها ، وأن يتخذوا لأنفسهم في سلسلة

مراتب الوجود ، مكاناً يصلون فيه بين الله والناس ، و لابد أن تكون نظريات المذهب الأفلاطوني الجديد خاصة قد أثرت تأثيرها في ذلك •

ويظهر أنه كان لمذهب التنسك (البرجا) الهندي تأثيراً عظيماً في بلاد الفرس على الأقل ، ولكن التصوف ظل في الجملة ، في داخل دائرة أهل السنة وقد كان هؤلاء من الحكمة ، بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجد المتحمسين ، والمتكلمون ، وأهل التصوف ، متفقون تمام الاتفاق في القول بأنه لا فاعل في كل شيء إلا الله •

غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا ، بأن قالوا : لا موجود في شيء إلا الله ، ومن هذا نشأ مذهب وحدة الوجود الذي خالف مذهب جمهور المسلمين ، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالاً لا حقيقة ، كما وحد بين ذات الانسان ، وذات الله ، وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الآلهية ، قال الصوفية بوجدة شاملة لكل شيء ، وبعد أن كان الأولون يقولون بفعل الله في كل شيء ، قال الآخرون بوجوده في كل شيء •

وقد نظر السنيون إلى هؤلاء المتصوفة الغلاة ، نظرتهم إلى المشبهة ، الذين يشبهون الله بالانسان ، والمجسمية الذين يجسمون الله ، فيجعلون له جرماً واحداً ، والحلوليين الذين يقولون بحلول الله في الأجسام •

حول هذا البحث وما يدور حوله من آراء

يرى الدكتور حسن ابراهيم حسن في حديثه السالف عن التصوف والصوفيين : أن الذين لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع

نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى ، هم الذين رأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف ، وفناء الذات في حبه ، ومن هنا ألحقت بهم تسمية (صوفيين) •

وهذا رأي" لا يعتمد عليه كثيراً ، فحب الله مرتبط بما يحب هو ، وهو سبحانه ، أحبّ أن يطاع ، واطاعته تتجلى بالالتزام فيما فرض على عباده ، والحساب والعقاب ، يترتبان على اقامة الفرائض ، أو اهمالها ، وما عدا الفرض ، فهو نافلة ، والنوافل لا ننكر أنها من القربات ، ويثاب المرء على اقامتها ، دون أن يعاقب على تركها ، وهي أيضاً معروفة إلى جانب الفرائض •

وإن الله سبحانه عندما خلق الانسان من جسد وروح ، جعل لكليهما حقاً على الآخر ، رعاية لنظام الحياة ، فمن حق الجسد على الروح ، أن تمده بالقوة ، ومن حق الروح على الجسد أن يحفظها وكل اخلال بينهما ، اساءة لكليهما ••

وإن الله سبحانه ، عندما جعل السماء سقفاً مرفوعاً ، وجعل الأرض بساطاً ، لم يكن ذلك عبثاً منه ، ولم يكن محض مصادفة ، كما يزعم الطبيعيون ، وإنما كان ذلك لحكمة من الحكيم •

كانت الأرض للانسان أكثر من غيره ، من بقية المخلوقات ، فقد وجد عليها ليعرف ذاته ، من هو ؟؟ وماذا ينبغي عليه ، فاذا عرف من هو ، وما ينبغي عليه ، ارتفع بذاته عن المخلوقات الأخرى وأخذ معراجه نحو الكمال ، وهذا الكمال ، الذي لا يجوز عليه النقص ، هو معشوق أهل التصوف ، ولا يتسنى بلوغه إلا بممارسة التكليف الشرعي ، وهو الذي ينبغي على الانسان أن يلتزم به حتى يعرف وجه الطاعة ، ويتحاشى مزالق العصيان ، وغوايات أفاعي الفردوس••

وللمكزون السنجاري شعر" طرح في بعض أبياته سبب وجوب التكليف ، سؤالاً وجواباً ، قال :

قلت : فالتكليف ، ما أوجبه
قال : تكليفي ، أعلى نعمتي

إذ به الجاهل يضحي ، عالماً
وبزاكي أجره ، يمسي زكي

وقد شرح هذين البيتين علامة جيله الشيخ سليمان الأحمد ، فقال : التكليف ، الأمر بحمل الفرائض المشروعة ، من كلفه ، أمره بما يشق عليه ، ونعمتي ، مثنى النعمة ، والمراد نعمة الدنيا والآخرة ، أي إن تكليفه إيانا بحمل شرائعه ، أعلى النعم وأسناها ، لما فيه من التلذذ بمعرفته ، وحلاوة توحيده ، وطاعة أنبيائه ودعاته ، الموجبة نوال النعمتين ، الظاهرة والباطنة ، في النشأتين الأولى والآخرة .

من هذا الشرح الذي اقتصرنا به على البيت الأول يتبين ــ خلافاً لما ذهب إليه ابن عربي[1] ــ هو وحده الذي يجب على الانسان ، وما زاد عليه فليس منه ، وهو نقص في التكليف الآخر ، الذي هو لصالح الجسم ، وفي رأي المناطقة : كل زيادة في شيء ، هي نقص فيما يقابله .

وعلى هذا ، فان الزهد ، والتقشف المفرط ، مخالف لمنطق الحياة ونظامها الاستمراري ، وهو بالتالي تعطيل لنواميسها الطبيعية ، لأن الله سبحانه ، لا يكلف عباده فوق طاقتهم ، وقد قال سبحانه ، على لسان عباده : (ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به) .

---

(١) ابن عربي يقول : التكليف مرفوع عن أصحاب المعرفة .

وتبقى التسمية لا تجد مجالاً للأخذ بكل ما قيل فيها ، وليس في نفي (براون) لعلاقتها بكلمة (سوفس) اليونانية ، أي شيء جديد ، وبالرغم من كثرة المقولات في سبب التسمية ، فقد أجمع كل الباحثين على عدم علاقتها بكل الكلمات التي يمكن أن تشتق منها كلمة (صوفية) وإن نسبتها للصوف هو الصحيح الذي لا ريب فيه، وليس ذلك لأن المسعودي يروي ، أو روى : أن عمر وسلمان وابن الجراح كانوا يرتدون الصوف ، أو أن أردية الصوف كان الأوائل من المسلمين يتميزون بارتدائها ..

ولم يخطىء القائلون : ان انتشار الأمور المادية ، والبذخ والانغماس باللذة ، هو من أوكد الأسباب الداعية إلى اعتناق الزهد عند الصوفيين ، واحتقار الحياة العابثة ، وقد تكون كما قيل احتجاجاً صامتاً على تلك الظاهرة المخالفة للمبادىء الاسلامية .

أما الأستاذ القشيري ، فلا أراه فيما وصف به جماعة مخصوصة من الصوفيين ، إلا متعاطفاً مع جماعة أخرى ، وان رسالته — مع ما فيها من وصف لأحوال الصوفيين — بقيت فائدتها غير تامة ، ولذلك لا نعتبره حجة ضد من يعنيهم ، والذي يريد أن يعرف التصوف الواعي ، عليه أن يطلبه عند الجنيد والشبلي ، فهما إماما هذه الحركة، أو قل هذه الطريقة ولا أجد في تصوف رابعة العدوية ، إلا نوعاً من الهوس المحموم ، للتعويض عما فرطت في شبابها من العبث واللهو أما ابن الفارض ، فقد غاص في اللجّة حتى غرق ، فأصبح لا يدري بأي حبل نجاة يتعلق .

وندع الآن الأشخاص ، لنظل مع الباحثين في موضوع التصوف، ومنهم (فون كريمر) ، وألاحظ أنه يتلاقى مع صاحبه (هملتون جب) في إيجاد حبل سرّة بين الحركة الصوفية في الاسلام ، والتقشف

المسيحي القديم ، ويرى أن عنصراً هاماً في التصوف ، هو عنصر التأمل والتفكير العميق ولا بد أن يجد له منشأ يربطه به ، فألحقـه بعنصر التأمل البوذي ، نتيجة لتأثر الفرس بالاسلام .

ومن الغرابة بمكان ، أن يكون الدين الجديد ، بالنسبة للفرس هو المؤثر به ، بدلاً من أن يكون ، هو المؤثّر ويتغاضى كل المؤرخين عن فاعلية الدين الاسلامي بالعالم الفارسي والقضاء على كل عقائدهم وطقوسهم ، ولا يتغاضون عن حركة بسيطة مماثلة ، يجعلونها امتداداً وأثراً باقياً ، ينقله الفرس الى عقيدتهم الجديدة ، ولا أدري ماذا يراد من وراء كل ذلك ؟ إذا لم يكن التهوين من شأن فاعلية الاسـلام ، واضفاء صفة الاقتباس فيه عن الآخرين .

وماذا يريد القائلون في التصوف، انه ظل في الجملة داخل دائرة أهل السنة ، ويرجعون في نشأته إلى امام الشيعة الأكبر، ويقولون انه: هو وفاطمة وعلي بن الحسين ، أول من تحدث عن النور القلبي .

إن حصر التصوف في فئة معينة من المسلمين ، من شأنه أن يثير جدلاً غير مرغوب ، ولهذا لا نريد أن نتبسط به ورغم كل ذلك نعود ، فنذكّر بكتاب (الصلة بين التصوف والتشيع) وقد أشرنا إليه فيما سلف من أبحاثنا ..

وتعم الحيرة في الباحثين ، فمنهم من يرى : أن التصوف علم" ومنهم من يراه طريقة ، ومنهم من يراه حركة ، أما السيد (دي بوار) فيرى التصوف نظاماً عملياً أساسه ديني روحي .

وعند هذه النقطة نتوقف قليلاً لنعالج مفهوم كلمة (نظـام) ماذا تعني ؟؟ بالنسبة إليه ، فاذا كان الاسلام نظاماً قائماً بذاته ، كيف يقبل أن يكون التصوف فيه نظاماً آخر ، وهل يجتمع نظام ونظام في

شرعة واحدة ، لا بد لأحدهما أن يفسد الآخر ، ولذلك فنحن نختلف مع الدكتور حسن ابراهيم حسن في اعتبار (دي بوار) مجيداً في نظريته ، ولا سيما ضرورة الأمر لأشخاص في هذا النظام يكونون وسطاء بين الناس وبين الله ، الأمر الذي استنكره (لوثر) في المسيحية ، فكيف نقبله في الاسلام ، ولأن في هذا الغاء لدور الاسلام الذي علمنا : أن واسطة القرب من الله هي العمل بأركانه ، والعمل بالأركان ، لا يحتاج الى فلاسفة أو متفلسفين ، ولا لأشخاص يتخذون لأنفسهم في سلسلة مراتب الوجود ، مكاناً يصلون فيه بين الله والناس وما يدرينا بما سيتصرف به من يتخذون لأنفسهم هذه المراتب ، فقد لاحظنا : أن أمثال هؤلاء هم الذين أحدثوا البلبلة ، لا في صفوف المتصوفين فحسب ، وانما في صفوف المسلمين عامة ٠

إن هؤلاء الأشخاص الذين اتخذوا لأنفسهم مكاناً في سلسلة مراتب الوجود ، هم الذين شوشوا على المتصوف الورع وعلى المسلم المؤمن ، علاقته بربه ، ولو لا هؤلاء ، لما حصل هذا الخلاف في تحديد مكان الله من الوجود ، ونوعه وجنسه وهل هو الوجود بكامله ، ولا موجود في شيء إلا الله ، فانطلقت من هذا فكرة وحدة الوجود ، ومن هنا صار القول بفعل الله في كل شيء عند قوم ، وبوجوده في كل شيء عند آخرين ٠٠

ومن هنا انطلقت فكرة المشبهة والمجسمة ، والحلولية ٠

إن الدكتور حسن ابراهيم حسن في بحثه هذا استعرض أقوال الباحثين استعراضاً ، ولم يناقش ، ولم يحلل ، ولم يعطنا شيئاً مما يرتسم في ذهنه حول هذه القضايا ، ومر على ذي النون المصري ، المنسوب إليه : انه أول من حدد نظريات التصوف ، وشرحها ، مروراً سريعاً ، فلم يشر الى هذه النظريات ولم يرسم لنا حدودها ، واكتفى

بهذه الاشارة إليه ، والمعروف عن ذي النون المصري ، أنه دعا المريدين إلى طاعة الرجال تأثراً بالمبدأ الكيساني القائل : (الدين طاعة رجل) .

إلا أن ذا النون المصري لم يقف عند هذا الحد من شعار الكيسانية ، فجعل عبارته مصوغة بقالب آخر ، حين حدد أبرز صفات المريد بقوله : (ليس مريداً البتة من لم يكن أطوع لشيخه من ربه).

أليس في هذا القول ما يدعو للوقوف عنده ، ومناقشة ذي النون في عبارته هذه ، التيجعلت الذهن يرتبك في قبولها ، وأين منها عبارة الكيسانيين : (الدين طاعة رجل) ، فقد يمكن أن نجد لهذا الشعار تخريجاً صالحاً ، أما عبارة ذي النون ، فقد ظهر عليها من الحرج ما لا يقبله عقل المريد ، ولا غير المريد ، وما أصعب أن تقول للانسان ، أو للمسلم : اعص الله وأطع شيخك، بالاضافة إلى ما في ذلك من خطر كبير على المريد ، إذا كان هذا الشيخ على غير ما يرام من الألمعية الرفيعة ، والمعرفة العالية الجليلة ولقد رأينا العبر من التسليم الأعمى لبعض الشيوخ والالتزام بطاعتهم ، وليست الفتاوى في الملة الاسلامية إلا أثراً من آثار هذه المقولات ..

ولا ندري إذا كان صاحب الرسالة القشيرية، يعتبر هذه المقولات من البدع التي أشار إلى حصولها بين الفرق بقوله : (ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا : أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف) ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المايتين من الهجرة ..

وأخيراً ليس في بحث الدكتور حسن ما ينفرد به عن سواه الا رواية المسعودي عن عمر بن الخطاب ، وسلمان الفارسي ، وأبي عبيدة بن الجراح وما نسب اليهم من ارتداء الصوف ..

التشيّع والتصوّف والصّلة بينهما

التشيّع والتصوّف والصّلة بينهما

قالَ الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) تحت عنوان الاتصالات بين التصوف والتشيع ما يلي :

لقد رأينا فيما مضى ، كيف كان الشيعة سباقين الى التلبس بالزهد(١) الذي انبعث من الاسلام الأول ، وكيف شارك التشيع في تشكيل الزهد ، باشكاله المتطورة ، التي ادت به الى التصوف ، ورأينا كيف كان علي بن الحسين ، يعد من رؤوس الزهاد في عصره ، وكذلك ابنه الباقر ، وحفيده الصادق ، وكيف اشتهر زين بن علي والثوار الزيديون من بعده بلبس الصوف ، كمحمد بن جعفر الصادق الذي كان يصلي بمايتين من اتباعه ، وكلهم كان يلبس الصوف ..

ورأينا أيضاً كيف كانَ الثوار العلويون ، يحيى بن عبد الله الثائر أيام الرشيد ، ومحمد بن القاسم الخارج سنة ٢١٩ هـ = ٨٣٤ م

---

(١) انظر كيف يختلف المؤرخون في أقوالهم ، الدكتور حسن ابراهيم من القشيري فيقول : (انفرد خواص أهل السنة بالتصوف) وهنا الدكتور الشيبي يقول : (كان الشيعة سباقين الى الزهد **الذي هو أساس التصوف**) .

وأبو بكر علي بن محمد الخراساني ، وابراهيم بن محمد بن يحيى الثائر بمصر سنة ٢٥٦ هجرية ، الموافق ٨٧٠ م ، وأبو محمد ، القاسم بن حمزة ، من نسل العباس بن علي بن أبي طالب ، يلقبون جميعاً بـ (الصوفي) ، بل لقد ذكر عن عبد الله بن معاوية ، قائد الغلاة الجناحية: (أنه لبس الصوف) .

ولما اتضحت حركة التصوف ، وتبلورت ، وظهر أنها تتطلع إلى تكوين مجتمع جديد ، ونظام له طابع خاص ، وطراز من الحياة متميز ، وتهدف كلها إلى منافسة أصحاب المذاهب الفقهية ، والعقلية ، في الزعامة الروحية ، من جهة ، وأصحاب الطموح من الأرستقراطيين والمتغلبين في الزعامة المادية من جهة أخرى ، لم يتح للشيعة من اتباع الأئمة أن ينضموا الى مدارس التصوف ، أو يكونوا مريدين لشيوخهم ، ولهذا ينبغي أن تحمل لقب (صوفي) الذي ربما أطلق على عدد قليل من رواة الشيعة ، لا على صدور عن التصوف المعهود، وانما المبالغة في الزهد ، أو أي تفسير آخر .

غير أن أصحاب كتب التصوف ، أوردوا ذكر بعض العلويين بوصفهم صوفية حقيقيين ، فبصرف النظر ، عن عبد الله حفيد الثائر الزيدي ، ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، الذي يذكره الشعراني في الطبقات الكبرى .. يذكر الصوفية ، أبا الحسن العلوي ، بوصفه مريداً للخواص توفي سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٣ م ، وأبا حمزه الخراساني المتوفي سنة ٢٩٠ هـ باعتباره صديق أبي سعيد الخرّاز ، ومصاحب أبي تراب النخشبي ، ومحمد بن الحسن العلوي ، الذي روى الهجويري : أن الحلاج نزل في منزله بالكوفة ، ومم ثم التحق بهما الخوّاص، وحمزة بن عبد الله العلوي مريد أبي الخير التيناتي المتوفي سنة ٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م ، وابراهيم بن سعد العلوي ، الذي كان يقال

له (الشريف الزاهد) وقد صحبه أبو سعيد الخراز المتوفي سنة ٢٧٩هـ الموافق ٨٩٢ م وروى عنه ، وقد ذكر أيضاً : ان رفاعــة الهاشمي ، الذي روى : أنه شارك في تحرير رسائل اخوان الصفا : قد صحب الشبلي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م وأخذ عنه ..

ونسب التصوف أيضاً الى محمد بن أبي اسماعيل علي العلوي المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، الذي سافر الى الشام ، وصحب الصوفية ، وصار كبيراً فيهم .

ومن أن هذا العدد من العلويين الملتحقين بالتصوف ضئيل اذا قيس بالثائرين منهم ، والمتفقهين والأئمة ..

زعم عبد الله الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ = ١٠٨٠ م : أنــه بين ألف ومائتي صوفي عرفهم : لم يزد عدد العلويين ، من أصحــاب الكرامات منهم على اثنين فقط : هما ابراهيم بن ســعد ، وحمزة العلوي ..

وقد روى الهروي في استنكار : كيف أن أبا زيد ، وكان مــن شيوخ الصوفية ، المعاصرين له في مرو .. كان يقول لمريده العلوي : (لن تشم رائحة التصوف ، حتى تخرج من علويتك كلية ، ويقصد بها التجبر والترفع) ..

وكانت هذه المقالة ، تعبر تعبيراً دقيقاً عن العلة التي حالت دون اتصال الشيعة بالمتصوفة أيضاً .

فقد كان التشيع يعني الأيجابية المطلقة ، اما بالسيف كما فعل الزيدية ، الذين يمكن أن يطلق عليهم بحق خوارج الشيعة . واما بالدعوة السرية ، كالاسماعيلية ، واما بالاستعداد للثورة ، كما عنـد الاماميــة ..

أما التصوف ، فقد كان قائماً على الاعتراف بالعجز ، بل على التسليم بالضعف ، وقلة الحيلة ، والاعراض عن المادة كلها ، وعن الأمجاد والطموح ، وعن الشرف الذي يتصل بالنسب الأصيل ..

وكان التصوف في الحقيقة حركة اتخذت الجانب السلبي من المثل ولم يحسب حساباً للعصبية والنسب ، وانما جعل ملاك أمره اطراح ذلك كله ، أملاً في بناء مجد روحي ، يكون هو الحسب والفخر والعصبية(١) .

وكان المتصوفة ينفرون من العلويين ، ولا يريدون لهم أن ينضموا الى حركتهم لهذا السبب بالذات ..

وهكذا زاد استقلال المشربين ، وبلغ الموقف بينهما حد الانفصال والتنافر ..

غير أن التشيع ، أخذ يدب الى التصوف ، أملاً في استغلال مكانته وتطويعه لأغراضه .

وهكذا ، أخذ التشيع يسير في موازاة التصوف ، يتبنى الزهد الشديد ، والظهور في لباس الصوف الذي يعبر عنه ..

وكان التصوف ، يسير في موازاة التشيع أيضاً ، من حيث الأصول والجذور ، وتفصيلات الروحانيات ، وأوصاف الأمامة والصلة بين الشيخ والمريد ، وغير ذلك ..

ومن هنا وجدنا تنفيراً من الأئمة للشيعة عن الالتحاق بالمتصوفة التحاق أتباع ، مع اباحة التظاهر بالتصوف تقية ، او استمالة للناس عن طريق التصوف ..

---

(١) على غرار المدينة الفاضلة عند افلاطون .

ومن أبدع الأمثلة على هذا ، أن أبا عبد الله الشيعي الذي وطد للفاطميين بناءهم ، وأسس دولتهم قبيل سنة ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م كان يتظاهر بالزهد الشديد ، بل لقد عدّه الفاطميون أنفسهم من الصوفية .

وينبغي أن نتذكر ، أنه لما اتصل معروف (معروف) بـ (الرضا) على فرض صحة هذه الواقعة ، كاد التصوف والتشيع ، أن يكونا شيئاً واحداً لولا رد الفعل الذي أحدثه المتوكل في نفوس المتصوفة ، وهم من ضعاف الناس وجبنائهم ، واضافة المتصوفة وغيرهم ممن كانوا تحت قيادة (الرضا) أيام ولايته للعهد ، وتحت حماية أخويه من بعده كالمعتصم والواثق ..

وليس من البعيد ، أن نجد من الأدلة والبراهين ، ما يثبت أن الحلاج نفسه كان داعياً اسماعيلياً ، أو قرمطياً أو شيعياً ، على كل حال استخدم طاقته الصوفية ، ونفوذه الروحي ، للتأثير في الناس ، ودعوتهم الى نصرة الفاطميين ، أو القرامطة ، وكانوا فرعاً لهم ، داعياً اليهم أولاً ، ولكنهم خرجوا عليهم ، ونازعوهم نفوذهم في الشرق ، حتى انتزعوا منهم سورية بقوة السلاح بعد أن كادوا يستولون عليها ..

وينبغي أن نلاحظ : أن نفور الصوفية المعاصرين للحلاج ، منه بناء ، على بوحه بالأسرار الآلهية ، يمكن جداً أن يتأسس على فضيحته بوصفه داعياً سياسياً ، أكثر منه صوفياً ، سار بولايته الى أبعد من المدى المرسوم وجاوز حد التقية الى التصريح بولايته وقربه .

لقد كان في امكان الصوفية ، أن يعالجوا حركة الحلاج بالسكر والمحو والشطح ، وغير ذلك من أحوال الصوفية ، غير أنهم لم يفعلوا بل تجنبوه امارة على أهمية العامل السياسي في هذا الموضوع ..

ومن هذا التوازي ، ولعله التأثير الصوافي التشيع ، بوصف

التصوف حركة يثق بها الناس ، كان اطلاق الاسماعيليين على أنفسهم لقب (الصوفية) في فاتحة رسائلهم ، وتسمية جماعتهم (الثقافية) بـ (اخوان الصفا)[1] أيضاً ، وكان الصفا أفضل ما تمنى الصوفية أن يكون أصلاً لاشتقاق مشربهم ، ومن هذا التأثر أيضاً : ان اخوان الصفا جعلوا المجاهدة الصوفية السبيل للترقي من مقام إلى مقام ، للوصول إلى مقام الحجة عندهم ، ويعتبر قمة ما يستطيع المريد الاسماعيلي أن يصل إليه ، من معرفة ومن تصفية ..

وكان أطرف وأوضح ما خلفه التصوف من أثر في التشيع الاسماعيلي ، بوجه خاص ، ظهور الحاكم بأمر الله الفاطمي قبل سنة ٤١١ هـ الموافق ١٠٢٠ م بمظهر صوفي كامل ، لا بلبسه الصوف فقط ، بل بما أضيف إليه من ادعاء الألوهية ، فأعاد الى الحياة صورة أخرى من الحلاج بعد قرن من الزمن ، وعادت مع الحاكم ، ذكرى أبي يزيد الخارجي ، الذي كاد يعوض دولة الفاطميين في صورة (أبي ركوة) الذي كان يعتبر نفسه من المتصوفة ، ويجمع الناس حوله بناء على زهده وتصوفه اللذين كانا يتمثلان في ركوته ، التي كان يحملها دائماً ، وكانت من تقاليده الصوفية الى جانب تعلقه بالمهدية امارة على عظم نفوذ التصوف في العالم الاسلامي ورواج سوقه في أذهان المسلمين..

مساقط هذا البحث ومآخذه

في هذا البحث ، يتحرى الدكتور الشيبي كل الأسباب التي تصل التشيع بالتصوف ، وتربطه به نشوءً وانتماءً ، والأسباب التي جعلت الشيعة تتوارى خلفه ، وتتخوف من المجاهرة به ..

---

(١) تألفت جماعة اخوان الصفا في القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي .

إننا عندما ندرك ، أن الاسلام الحقيقي ، تلتمسه الشيعة عند أئمتها ، وترى فيهم خير من يفهمه ، ويحافظ عليه ، وعنهم يأخذون تعاليمه ، وعندهم يرصدون مقاصده ... لم نتردد في قبول أصالة التصوف بالتشيع ، فالأئمة يعملون بمقتضى دين الله ، والشيعة يعملون بما يزودهم به أئمتهم من تعاليم هذا الدين ..

ويجمع كل الباحثين ، على أن الأئمة ، بدءاً من أبي الحسن (ع) كلهم أعرضوا عن متاع الحياة ، وزهدوا بما فيها .. حتى أن أبا الحسن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال لها : (اليك عني يا دنيا، غري غيري) . وقال عن المال : (ماذا يصنع بالمال من عما قليل يسلبه . وتبقى عليه تبعته وحسابه) وقال عن الدنيا: (ما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة) ومن يرجع الى نهج البلاغة يجد صفحاته ملأى من أمثال هذه العبارات التي أقل ما يفهم منها ، التزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة التي هي غاية الصوفيين ، حتى ليخيل إليك أن الدنيا خلقت عبثاً ولهواً ، وان الانسان فيها عابر" يلتقمه الضياع ..

وإذا كان هذا منطق علي بن أبي طالب ، ومنطق أبنائه من الأئمة ، كيف لا ترى فيهم شيعتهم ، نواة الصوفية الأولى ، إذا كان من مزاياها الورع ، وخلع حب الدنيا ، ولا يمكن أن يخرج علي بن أبي طالب وأبناؤه عن منطق القرآن ... وبهذا يكون القول : ان الشيعة كانوا سباقين إلى التصوف والتلبس به ، آخذاً محله ...

وإذا كان الزهد والورع والتقوى : جماع فضائل الزهد ، فغير غريب أن يكون التشيع هو التصوف ، وأن يكون التصوف هو التشيع .

وإذا كان التصوف ، أريد به ، غير ما أسس عليه ، كان من حق الشيعة أن ترفضه ، وأن لا تأخذ به ، وهم غير ملومين .

لم يكن التصوف حركة ، بل كان رفضاً طوعياً في بدايته لكل ما أقبل عليه الناس من لذاذات الحياة وشهواتها ، وإذا كان ينحرف عن مساره ويتحول الى حبائل للاصطياد !! لماذا لا تتحرّج الشيعة من تبعاته ومما يخفيه وراءه ..

لقد ربطوا التصوف (تأملاً) في موروثات العقائد القديمة في الهند والفرس ، (وتفكيراً وفلسفة) بالفلسفة اليونانية ..

هذا فيما يرى الباحثون الأجانب من مستشرقين وغيرهم، وربطوه (تقشفاً وزهداً) بالشخصيات العربية ، منهم من اقتصر على الشخصيات الاسلامية الأولى ، ومنهم من استورثه من شخصيات قبل الاسلام ...

وكل هذا الاسراف في جدلية الانتماء ، لا يعطينا المردود المنتج، ولا يزيدنا إلا بعداً عن تقبل هذه الاحتمالات .

وكان الشيعة المتصوفون ، عندما رفضوه حركة ، وقبلوا به علماً ، على غاية ما يكون التحري الصائب ، لاختيار أصلح الأمرين ..

وحسبك بالعلم ، لا يضلك ولا يغويك ، ولا خوف على هذا العلم إذا كانت الأفلاطونية ، تمده وترفده بفلسفتها الزكية المتحررة، وهو الجانب الأفيد ، والأسلم ، والأنقى ، في التحولات التصوفية ، التي أعطيت شكلاً عرفانياً يبحث مشاكل الروح والنفس بالفكر الفارسي يُبقي على هيبة التصوف ووقاره عند الناس ..

ولا نتحدث الآن عن الشخصيات الصوفية المتشيعة التي مرّ ذكرها على لسان الدكتور الشيبي لأننا لسنا بحاجة إلى ذكرها بعد أن عرفنا المبررات في اغفال التصوف عندهم مؤخراً ، ولكن هناك عبارة يوردها الشيبي ، ويعتبرها من الأسباب التي أجفلت الشيعة من

التصوف ، وهي منسوبة برواية الهروي إلى أبي زيد أحد شيوخ الصوفية في مرو ، انه كان يقول لمريده العلوي : (لن تشم رائحة التصوف حتى تخرج من علويتك كلية ، ويقصد بها الترفع والتجبر)٠

لقد استوقفتني رواية الهروي هذه ، عند كلمتين منها ، وهما (الترفع والتجبر) ٠٠٠ كان على الهروي ــ وهو يروي هذه العبارة ــ أن لا يذهب بعيداً بتفسير القصد منها ، بل كان عليه أن يترك تفسيرها لتذوق القارىء ٠

ليس في عبارة أبي زيد ، ما يشير إلى هذا التفسير ، وانما يقصد منها ٠٠ أن يقطع المريد كل علائقه ، حتى بأعز الأشياء عليه ، وأحبها اليه ، ويكتفي بعلاقته الأصيلة بخالقه ، لأن الاقبال على الله بالكلية يكون بالأدبار عما سواه بالكلية ٠٠٠ فاذا كان المريد العلوي، يبقى متمسكاً (بعلويته) وعائليته ، يبقى في قلبه شريك لله عز وجل وهذا شيء يتنافى مع صحة السلوك ، فمن أين جاءنا هذا الهروي بهذا التفسير الغريب (ويقصد بها الترفع والتجبر) ٠٠٠

وإذا أردنا أن نستريب بهذه الرواية فنكتفي بأنها منسوبة إلى أحد شيوخ (مرو) والمرويين معروفين بمزاياهم وميولهم ، وربما كانت الغاية منها اسقاط كل اعتبار شعبي واسلامي للبيت العلوي الذي تقدسه الشيعة وتتمسك به ، ومن أراد أن يعرف شيئاً عن مرو وأبنائها فليقرأ بخيلاء الجاحظ ٠

ولوحظ أن في أقوال الشيبي في هذا البحث ، مواقف وآراء متناقضة ، منها ما يجعل التشيع هو التصوف، والتصوف هو التشيع٠

ومنها ، ما يجعل من كلمة أبي زيد ومواقف غيره من الصوفيين من أبناء البيت العلوي ، يحسبون حساباً لموقف الصوفية منهم ، إذا

كانت رائحة التصوف ممنوعة على أبناء هذا البيت إذا ظلوا ينتسبون إليه ، ويعتبرون الانتساب إليه شرفاً وفخراً ، فكيف على موالي أبناء هذا البيت !!

ولكن رغم كل هذا بقي التشيع يسير في موازاة التصوف . وذلك لأنه يتبنى الزهد الشديد الذي دعا اليه الأولون بزعمهم، وسلم للاستسلام والعجز خلافاً للذين يدعون للثورة كالزيدية وغيرهم، وكان ارتداء الصوف خير شعار يعبر عنه ..

ومنها ما يجعل التشيع يسعى لاستغلال مكانة التصوف وتطويعه لأغراضه ومصالحه .

ومنها : أن التصوف يسير بموازاة التشيع ، من حيث الأصول والجذور وتفصيلات الروحانيات ، وأوصاف الأمامة ، والصلة بين الشيخ والمريد ..

ثم يقول : إن الأئمة ، نفّرت الشيعة من التصوف ، وأباحت التظاهر به تقية ، واستمالة للناس ، عن طريق التصوف ..

ويقول : ان عبد الله الشيعي ، مؤسس دولة الفاطميين ، كان الفاطميون يعدونه صوفياً .. ثم يتذكر أن (معروفاً) الكرخي ، اتصل بالامام الرضا (ع) .

ولا أدري كيف يوفق بين الجذورية ، والتفصيلات ، والأصول، وبين السعي للاستغلال ، وبين السير بالموازاة ، وبين التنفير من التصوف واباحة التظاهر به تقية ..

وأخيراً بين صلة (معروف) بـ (الرضا) وما يقابلها من تنفير الأئمة ، كل هذه أمور تبقى بحاجة الى المعالجة الجدية على ضوء الواقع التاريخي ، لأن ما ورد بهذا الصدد ، لا يعطي البرهان عن

حقيقة موقف الشيعة من التصوف، حتى ولا على حقيقة موقف الحلاج من التشيع ، وكيف ينبغي أن يسلم الباحث في هذه الالتواءات العجيبة في هذا المنعطف التاريخي ..

إن الشيعة ، التي حتى الآن لم تسلم بشرعية امامة المفضول على الأفضل ، ولم تستعمل التقية بها ، وتحملت ما جرّت وراءها من أخطار وتبعات عبر التاريخ ، لأمر من الأمور البسيطة ، تجامل وخلافاً لما تعتقده تتظاهر بالتقية لاستمالة الناس ، هناك أمور أخطر وأهم كان استعمال التقية بها أوجب ، وأدعى لاستمالة الناس ، إذا كان القصد التقرب من جماهير الناس ..

في ذهني ، ليس للأئمة علاقة بقضية التنفير ، ولا باباحة التقية وإنما الذي جعل الشيعة تتردد في قبولها مؤخراً ، هو أنها أخذت تنحرف عن حقيقتها ، وتتطلع الى تكوين مجتمع جديد ، غير مجتمعها الذي قامت عليه وإلى نظام له طابع" خاص ، وطراز من الحياة مميز، وانها استهدفت منافسة أصحاب المذاهب الفقهية ، والعقلية ، وأصحاب الطموحات الارستقراطية ، هذا في تصوري ، هو أصح الأسباب لانكماش الشيعة عن التصوف ــ كتصوف زاهد ــ وعدم تنشيط اهتماماتها به .

ومما جعل أكثر طوائف الباطنية من الشيعة تنتصر للتصوف ، هو أنه تلاقى معها في جوهر القصد، كاخوان الصفا عند الاسماعيلين، ويبدو أن هؤلاء اعتبروا التصوف مشتقاً من الصفاء ــ كما زعم بعضهم ..

ولكن الأمر الذي لا يزال غامضاً عندي هو محاولة أبو حامد الغزالي تبرير شطط ، ولا أقول شطح الحلاج الذي استنكره عليه الصوفيون أنفسهم في أيام حياته ، في حين أنه هاجم الباطنية بكتاب

مستقل وكل المؤرخين يقولون : ان الحلاج كان داعياً من دعاة الباطنيين ، وقد تعرض هو والسهروردي لأقسى العقوبات ..

وأخيراً يرى الدكتور الشيبي أن التشيع انفصل عن التصوف بسبب حركة أمراء القزلياش في ايران ، وما رافق هذه الحركة من خطر على الحكومة والذي قام بعملية الفصل هذه هو شيخ الاسلام محمد باقر المجلسي سنة ١٠٣٧ هـ الذي أنكر التصوف على أبيه ، هذا ولم يثبت أن الباقر الذي كان يقول : اللهم أعني على الدنيا بالغنى ، وعلى الآخرة بالتقوى ، انه كان صوفياً كما زعم الدكتور الشيبي ، وهل يطلب الغنى من يدعو إلى الزهد ؟؟

* * *

منحىً جديد للصّوفيّة

منتمىً جديد للصّوفيّة

في كتاب (حركة التصوف الاسلامي) لمؤلفه السيد محمد ياسر شرف منتمى جديد للصوفية ، فهو يرجح : أن كلمة (صوفي) وجدت في العربية قبل الاسلام ، ولا ينكر استمدادها من اليونانية من اللفظة (سوفس) التي تعني حكيم ..

وإذا رجعنا إلى التاريخ الذي بدأ يرصد الحركة الصوفية ، نجده يحدد منتصف القرن الثاني الهجري ، لنشوء هذه الحركة ، وأنها قبل هذا التاريخ لم تكن معروفة عند المسلمين ، فكيف عند العرب . وكل الأقوال والأقلام التي عالجت هذا الموضوع ، وقفت عند هذا الحد ، وكل ما ذهبت به بعيداً عن هذا الحد ، فهو قائم على التخريج الترجيحي القائم على الفرضيات المتخيلة ، وليس على الأدلة والمستندات ..

الذين يريدون للصوفية منتمى عربياً ، يذهبون به إلى قبيلة عربية ، أو الى شخص في الجاهلية اسمه صوفه ، وربما الى هذا الشخص استند السيد شرف في بحثه ، وفي ترجيحه لوجود هذه التسمية قبل الاسلام في لغة العرب ، وقد استبعد المؤرخون هذا الرأي كما استبعدوا غيره من بقية الأسماء التي يفترض أن تعتبر مصدراً اشتقاقياً لهذه التسمية .

والذين يريدون له منتمىً اسلامياً ، يربطونه بما حدث الرواة به عن زهد الرسول والصحابة ..

ولا أجد أغبى ممن يحدث أن فاطمة بنت محمد جاءت لأبيها بنصف قرص من الشعير بعد ثلاثة أيام من الطوى ..

ولا أغبى ممن يحدث عن لسان عائشة ، أن النبي (ص) بقي هلالاً،وهلالاً، وهلالا على الأسودين ــ التمر والماء، تمهيداً لتأسيس اتتمائية التصوف ، الأمر الذي يتنافى مع المصادر الأخرى التي تشير إلى أن عمه أبا طالب كان من أهل الوجاهة والثروة في قريش ، وكل من يتأمل ببصيرة ثاقبة ، يدرك ان الثروة في قريش كانت مصدر الوجاهة ، كما أن محمداً (ص) كان ينعم في عيش رحراح مع خديجة ابنة خويلد التي وضعت ثروتها بين يديه قبل الزواج وبعده ، هذا كله في مراحل حياته الأولى • فماذا يقال عنه بعد أن أصبح نبياً وله أتباع ومناصرون ، وكان يكسب الغنائم في الغزوات ..

وهل يقبل ، فرضاً واحتمالاً ، أن محمداً ، يعيش على الطوى ثلاث هلالات وحوله الناس ، يهدد بهم ، طواغيت قريش ، وجبابرتها إلا اذا كان ذلك صياماً طوعياً منه ..

وهل من ذلك ، أن هذه الحاجة المضنية ، ظهرت عليه في عهد السيدة عائشة فقط ، ولماذا ؟؟ رغم أن عهد السيدة عائشة معه كان في قمة ازدهاره المعنوي ، واذا كان مرد التصوف الى مظاهر الفقر والزهد عند النبي ، وعند صحابته ، فلا غرو أن نقول ان زهد الصحابة والتابعين ، لم يكن من نوع الزهد الذي طبقه المتصوفون في بداية عهدهم ، ولو كان من نوعه لما استطاعوا اخضاع كسرى الفرس، وقيصر الروم ومقوقس مصر وغيرهم من جبابرة العالم ..

إن زهد الصوفيين يخالف تماماً زهد الصحابة والتابعين ولا يعكس شيئاً مما كانوا عليه ، ومثل ما بدأ زهد الصحابة طموحاً تنفجر من خلاله ينابيع القوة والعزم ، ورصد أبعاد الأمور ، بدأ زهد المتصوفين خانعاً ذليلاً جباناً ، حتى ان بعضهم كان لا يأنف أن يصفع، فأين هو الرابط المحكم الذي يربط الصوفية بأوائل المسلمين ، ويلحقه بهم ..

إن جدلية هذه الانتماءات بقيت تتقاذفها أقلام الباحثين كلٌ حسب تصوراته وتخيلاته ..

والذين يرون بها انطلاقاً روحياً ، يقاوم تيارات الجسد ، ذهبوا بها إلى روحانية الكنيسة الشرقية ، حيث تستمد جذوريتها من هناك تشبهاً بالرهبان المنقطعين ...

ولكن إذا رجعنا إلى الدين الاسلامي في منظوره العام ، فلا نجده يقر هذا السلوك ، وهو بالمفهوم العام ، عند جميع المسلمين . دين علم وعمل ، ولذلك لم يقر رجاله ، فصل الدين عن الدولة ، بل بقي تشريعه هو مصدر السلطة ... وهذا ما يجعلنا نعارض هذا الانتماء ونعتبره غير وارد ، وهو مجرد رأي شخصي ، ينطلق من تصورات مهزوزة الملامح والسمات .

بعد هذا يبقى علينا مناقشة التسمية ، التي أجهد نفسه السيد محمد ياسر شرف في تحليلها ، واعطائها الطابع المقنع فيما ذهب إليه من تخريج بقي خارج دائرة المنطقية .

ويلاحظ أن الذي استخدمه في هذا الموضوع من أدوات فلسفية لم تعد على قارئه بالتسليم الميسر ، فهو رغم كل براعته في امكان استخدام الحروف ، مكان بعضها البعض ،بقي عاجزاً عن ادراك البيان المفيد في هذا المجال .. ولماذا نذهب في امكانية استخدام

السين بدلاً من الصاد ، أو الصاد بدلاً من السين ، ما دام الأمر لا يحتاج إلى كل هذا الارهاق ..

إن كلمة (سوفس) اليونانية ، وهي تعني الحكمة إذا صدق معربوها ، لا تنطبق على المواصفات ، التي ظهر بها الصوفي من حيث هي زهد وتعبد ، وتبقى لها دلالتها الخاصة من حيث اشاراتها المعينة في دائرة الحكمة ..

وما دمنا نستطيع أن نجد لها دلالة في الذهن العربي ، لماذا تتمحَّل لها دلالات من غيره ..

المستشرق (براون) يقول : انه ليس ثمة علاقة بين اسم الصوفية ، وبين الكلمة اليونانية (سوفس) وتكتب بالسين ، لا بالصاد ، ويقابلها بالعربية (فيلسوف) أو (سفسطي) .

أما السيد شرف ، فيقول : انها ـ أي كلمة صوفي ـ استمدت من اليونانية من اللفظة (سوفس) التي تعني حكيم ، وهي تشترك في المصدر نفسه مع الكلمة اليونانية ، التي تعني (صافي) واضح متميز . ظاهر ..

المستشرق براون يكتفي بنفي العلاقة بين (صوفي) العربية . و (سوفس)اليونانية ، أما السيد شرف ، فهو يتشبث في صحة هذه العلاقة ، على حساب الفلسفة الحرفية في قلب (السين) (صاداً)، وفي تجويز كلمة (فيلصوف) بدلاً من (فيلسوف) و (صافة) بدلاً (سافه) وغير ذلك من التمحلات التي لم ترق إلى مستوى الصحة المقنعة ..

ونحن نعتبر القرآن هو الحجة في كل ما هو ثابت به ، ولا نقبل التحويل عنه ، فلم يرد في القرآن (والتفت الصاق بالصاق) ، ولا في

حديثه عن بلقيس عند دخولها صرح سلمان ، وكشفت عن ساقيها فلم يقل (صاقيها) ، حتى ولم يؤشر عند أي شاعر عربي ، أو كاتب عربي أنه وضع هذا الحرف بغير صورته الأصلية، أو أشار الى جواز وضعه، ولو كان ذلك جائزاً، كما يرى صاحب الكتاب، لاستغني عن أحد الحرفين حيث الدلالة فيهما واحدة ، وكم يختلف المعنى في قولك (صرح) وقولك (سرح) اذا جازت هذه القاعدة ، وفي قولك (صفح) بدلاً من (سفح) • ويا ليت المؤلف الكريم ، أراح نفسه من هذا العناء الذي لا طائل تحته ، واقتنع بنظرية (براون) في هذا الموضوع •

ويلاحظ الباحث : أن الأنماط السلوكية في حركة التصوف ، يمكن حصرها في فترة نشوئه ، باتجاهين اثنين ، الزهد ، والتوكل ••

ويلاحظ أيضاً : أن التصوف بهذا المعنى الأولي البسيط هو الذي استمر في الاسلام حتى عصرنا ••

وإذا أخذناه على الزهد والتوكل ، الذي بدأ في العصر التاريخي المحدد لنشوئه ، نجد أنه قد انقرض ، حتى قبل عصرنا ، وان الذي عرفناه في بعض المتصوفين (الطرائقيين) ، ما هو إلا نوع من التدريب على تحمل الصعوبات في حال تعرضه لها حين تستدعيه الحاجة الى ممارسة القوة وهو أشبه بالتدريب العسكري في بداية التجنيد الاجباري ، وإلا ماذا يعني صبغه بصبغة الجماهير ، ودفع جماهيره إلى الساحات والشوارع باستعراضات حافلة بكل الظواهر المريبة •

إن صاحب (حركة التصوف الاسلامي) كان في تحركه بهذا البحث مخالفاً لأكثر الباحثين الذين سبقوه ، ولا يعنينا هذا لو جاءنا بمقنع ••

ومن الخير لنا ولكل باحث في هذا الموضوع أن نتمسك بالاشتقاق العربي الذي أجمع عليه غالبية الباحثين وأهل الرأي انه من (الصوف)،

وأن نوافق على أن حركة التصوف الاسلامي كانت ردأ في وقت ما ، على ظاهرة من ظواهر الحياة الجانحة الى الانغماس بالمادية الصرفة . وإذا كنا نلاحظ مما حمله إلينا التاريخ ، ان المجون والخلاعة ، بلغا مداهما في ذلك العصر ، فلا نستغرب أن يكون التصوف تظاهرة احتجاج وصرخة استنكار ، ومن هنا يصح أن نسميه حركة ، وأن نجرده من المزايا الأخرى .

* * *

صُوفيَّان أغفلهُمَا التّاريخ

صوفيان أغفلهما التاريخ

١ ـ المكزون السنجاري

٢ ـ حسن بن حمزة الشيرازي

حَــيٌّ عــلى تصــوفٍ بمثلــه
فليَطُل العجب لأربــابه القصــر

(المكزون)

تجرَّد وجدي فيك عن كل صورةٍ
وعدت بهــا الزهــاد في جنة الخُلْد

فأصبحت في قصدي إليكَ موحــداً
لحسنِك لما كــان في غيــره زهدي

(المكزون)

طريقتــي في غرامــي ليس يعرفُهــا
عــلى الحقيقــة إلا مــن تعرفَهــا

مــن لــه ربهــا في البــدء عرفهــا
ولــم يُدعهــا الى غمــرٍ يحرفهــا

عن عينها ثم يُلقيهــا إلى السَّفل

(المكزون)

١ ــ المكزون السنجاري المتوفى سنة ٦٣٨ (١) :

قال عنه الكاتب المصري مصطفى محمود في الفصل الثاني من كتابه (الوجود والعدم) بأنه صوفيّ عارف ، وقال عنه أيضاً : أنه يقول : ان الذات الأحدية لا تقبل التعدد ، وهو أي المكزون ينصح بضرب الصوفي المجذوب ، الذي يقول : (أنا الله) بقوله :

حاجج لمن قال : أنا أنت
بالضرب وبالسبّ وبالصك

فأن أبى ذا منك ، قل ملت عن
توحيدك المحض الى الشرك

وهذا يعني أنه يعارض فكرة الحلول التي يقول بها الحلاج أو غيره) انتهى .

إن المكزون السنجاري هو فعلاً من متصوفة القرن السابع الهجري وهو يعارض فكرة الحلول والاتحاد معاً وله في ذلك غير ما ذكره صاحب كتاب الوجود والعدم فمن قوله ضد الاتحاد : (وكيف يصح الاتحاد وشاهد العيان على الأضداد بعض الأدلة) وقوله في الحلول :

تعالت ذاتُ مولاي عن الحيز والوصف

---

(١) لم يذكر احد من المؤرخين على وجه الضبط أين ، ولا كيف حصلت وفاة المكزون السنجاري ، وان عدم العثور على ضريح له في بلادنا أو خارج بلادنا على ما يتمتع به من مكانة علمية رفيعة يجعلني ارجح أنه مات قتلا في حوادث سنة ٧٠٠ هجرية لا سيما وان رسالة شيخ الاسلام الى ابن تيمية في ذلك الحين فيها تعريض صريح به دون ان يذكره . ويبدو ان المكزون كان يتوقع القتل .

إلى قوله :

وعن قول حلواني حوى المقصود بالطرف

وهو معاصر للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي المتوفى أيضاً ٦٣٨ هجرية ، وقد جاء كلاهما بعد أبي حامد الغزالي المتوفى في أوائل القرن السادس الهجري ، وهو معاصر أيضاً لأبي حفص عمر بن الفارض ، المعروف باسم عمربن أبي الحسن بن المرشد بن علي الحموي المتوفى ٦٣٢ هجرية ، أي قبل المكزون وابن عربي بست سنوات ..

ولهذا نجد صوفيته تعارض صوفية هؤلاء بشكل خاص ويعرض بنظرياتهم تعريضاً ملحوظاً لأنه كان يطلعُ عليها من مريديهم ومن رواتهم ، وكانت معارضته هذه قائمة على حجج وأدلة وبراهين ، ومن يطالع ديوانه يوافقنا على ذلك .

كتب عنه أديبان معاصران ، هما الأستاذ حامد حسن ، والدكتور أسعد علي في فترة زمنية متقاربة .

الأول : ألف كتاباً من مجلدين بعنوان (المكزون السنجاري ، بين الأمارة والشعر ، والتصوف ، والفلسفة) ولكنه لم يفرد لكل واحد من هذه المواضيع بحثاً خاصاً، بل ساق بحثه على سجية المعلومات التي تقتضيها سيرة المكزون الأدبية والصوفية والحوارية والفكرية وتوسَّع بهذه البحوث توسعاً جيداً ومفيداً ولكنه ظل بعيدا عن المنحى الذي انتحاه الدكتور أسعد علي .

الثاني ، وهو الدكتور أسعد أحمد علي ، ألف أيضاً كتاباً من مجلدين بعنوان (معرفة الله والمكزون السنجاري) ، وقد بحث بهذا الكتاب المنهج والمعرفة والحياة عند المكزون ، حيث تتخذ هذه المواضيع الثلاثة شكلا طرائقياً من أشكال المعرفة المبنية على أركان

ثلاثة ، هي الدليل والسبيل والمعرفة ولم يشر مطلقاً إلى علاقة هذه المعرفة بالتصوف الذي عرف به المكزون واكتفى باعتبار آن المنهج في هذا كله هو قرآني شرعي وبحث المعرفة عند المكزون على الأساس الذي اعتبر به المعرفة هي الثمرة الطبيعية للحوار بين طرفي الوجود ـ الله ـ والانسان • ولم يشر الى التصوف في كتابه هذا إلا في موضعين ، الأول قال فيه : إن الاشارة أعادته الى شجاعة الجهاد ففهم ضعفاء التصوف جهادا شجاعاً في الحياة •• والثاني عندما أشار الى تحدث المكزون عن خرقته ونسبه الصوفيين مشيرا إلى منبعهما القرآني فقد قال : والتصوف عنده طريقة معرفة ، وبما أن طريقته صارت حقيقة فان تصوفه صار معرفة ••

وهنا نلاحظ أن الدكتور أهمل التصوف عند المكزون كأساس وعالج المعرفة عنده كنتيجة وهو بهذا كمن يتجاوز العلم الى العمل مباشرة ••

المهم في هذا الأمر أن المكزون السنجاري استطاع أن يؤسس من نفسه ولنفسه طريقة صوفية عارض فيها صوفية أبناء عصره ، وانه لم يعالج التصوف المعروف عند غيره كمذهب يعتنقه أو كطريقة يسير عليها ، ولكنه تعرض لها كطريقة ظهر عليها الانحراف ، وانطلقت منها نظريات فاسدة في بعض الاتجاهات عملت على خلخلة العقائد الاسلامية وقامت على التأويل الشاطح المغرب ••

إن المكزون يحدثنا عن صوفيته التي اختارها طريقة لنفسه وعن الشيوخ الذين لبس الخرقة على طريقتهم بهذه الأبيات من شعره وهي طريقة لا يعرفها غيره[1] :

---

(١) المكزون هو الذي يقول :

طريقتي في غرامي ليس يعرفها　　على الحقيقة الا من تعرفها

يا حسنها من خرقة بلبسها
خرقت ثوبَ اللبس عني فانحسر

وأصبحت طريقتي حقيقة
سارت بها في فرق الجمع السير

ما هانَ من (ماهان) فيها شيخه
ومن بني بشار وافته البشر

فيها غدا (معروف) معروفاً ، وكم
فيها (السري) مطلقَ البال آسر

وأصبح (الجنيد) من جنودها
وشبله (الشبلي) بالنار اختبر

حيَّ على (تصوف) بمثله
فليطل العجبُ لأرباب القصر

في هذه الأبيات تتضح صوفية المكزون التي اختارها لنفسه ورسم خطوطها على النهج الذي رسمه هؤلاء الشيوخ الصوفيون ، الذين لبس الخرقة على طريقتهم • هذه الطريقة المثلى التي أوصلته الى الحقيقة ، وهو يدعو إلى التصوف الذي يتسلسل بنسبته الى هؤلاء الشيوخ ويحبيه ••

وإذا كنا قد عرفنا تصوف المكزون وطريقته التي سلكها في هذا التصوف فعلينا أن نشير اثباتاً لصوفيته إلى الملامح التعبيرية ، أو الكلمات التي يستخدمها الصوفيون عادة في تعابيرهم ، كالأنس والوحشة والفناء والبقاء ، والزهد والرغبة ، والفقر والغنى ، وغير ذلك من التعابير المحمولة على مقاصد صوفية معروفة عندهم ، فقد تجدها مشحونة في أبيات المكزون بأسلوب رائع جميل ، لكن الدكتور

أسعد لم يبحثها إلا من جهة المعرفة فقط لا من جهة صفات خاصة في المتصوف ، يقول المكزون :

اليــك أنسي بناسي زاد ايحــاشي
ومنــك قربي عني أبعــد الواشــي

وفيــك جمع العدى عني اثنوا فرقا
لما استجاشــوا بما لاقوه من جأشي

إنهقدس الله سره حشر في هذين البيتين مجموعة من الاستعمالات الصوفية يعرفها كل من درس طريقتهم ، منها الأنس والوحشة والقرب والبعد .. الى آخر هذه العبارات .

ومثل قوله :

حــرام دمي لمــن أهــواه حلٌ
وفي قتــلي بــه للموت قتــلُ

وكالثمــر الــذي يبــدو مريــراً
ويحلو ... فيه عقبى الصبر تحلــو

وهذا الحرام ، وهو سفك الدم بغير حله ، الذي صيَّره حلالاً لمن يهواه ، وهذا القتل الذي هو قتل للموت ، هو أشبه ما يكــون بـ (نرفانا) بوذا في عمق جمع الخاطر وربما انحط دونه قول سلطان العاشقين :

فلم تهونــي ما لم تكــن فيَّ فانيــاً
ولم تفــن ما لم تنجل فيك صورتي

وما غدرت في الحب أن أهدرت دمي
بشرح الهوى ، لكن وفت اذ توفت

ويتابع المكزون اشاراته الصوفية في قوافيه المختلفة ، ويتابع في هذه الاشارات مخالفته للآخرين الذين لم يذوقوا طعم طعامه وشرابه، ولم يستقيموا على سواء سبيله ولم يدوروا معه في الدار التي يدور بها ليتذوقوا لذة النعيم الدائم ..

ويزيدنا المكزون من هذه القطرات فيقول :

أنا بالموت عشتُ بالأحياء
ناعم العيش في الهوى بشقائي

وله بالبراء من عذلي فيه
لديه قد صح عقدُ ولائي

أي وجد بين الورى مثل وجدي
بفنائي وجدت فيه بقائي

وبذلّي لديه لاقيت عزّي
وبفقري إليه نلتُ غنائي

فهو لي صاحب" إذا أنا سافرت ،
وفي الأهل أرأفَ الخلفاء

جامع" للنقيض فيّ عليه
دون قومي جعلت وقفاً هوائي

ويخاطب المكزون في أبياته التالية أولئك الذين ينظرون الى فقراء الصوفية بعيون فيها اعراض واستعلاء فيقول :

يا راغباً بغناهُ عن فقرائنا
بالزهد فيك الفقر قد أغنانا

لو ذقت طعم طعامنا وشرابنا
ما عشت عمرك جائعاً ظمآنا

ولو استقمت على سواء سبيلنا
لم تمش في تيه العمى حيرانا

ولدرت بالدار التي دُرنا بها
ولثمت فيها الحور والولدانا

كل بيت من هذه الأبيات ينطوي على اشارة معينة من اشارات الصوفية وعلى تعبير خاص بهم ، كالذوق ، والاستقامة ، والدورة ومنه قولهم : (ذق مذاق القوم ، ثم انظر ماذا ترى) !![1].

ومن هنا ندرك أن الزهد الذي يتغنى به المكزون لا ينصرف الى الرغبة في الفقر ، وكلنا يعلم أن الفقر عند الصوفيين له رمز أصيل ويطلق على كبار مفكريهم ، ومن هنا نشير إلى قوله :

ليس زهدُ الفتى بتحريم حل
من نكاحٍ ومطعم وشراب

وارتباط بالربط أو باعتزال
في جبالٍ ولا برقع ثياب

بل بقصد فيما أحل وزهدٍ
في حرام ورغبةً في ثواب

أصبح واضحاً أن المكزون السنجاري يبدو متصوفاً من خلال شعره ولكن صوفيته لها قواعدها الخاصة ، وهي غير القواعد المعروفة

(١) يقول ابن عربي في الفتوحات الملكية : الذوق اول مبادىء التجلي، ثم يقول : لكل تجل مبدأ هو ذوق لذلك التجلي .

عند الآخرين ولها ركائزها التي يعرف كيف يرتكز عليها ، وهو بهذه الصوفية يهاجم ما عداها القائمة على قهر الجسد بصرفه عما هو مطلوب له ، والحيلولة دون تمكينه من رغباته المشروعة ، وهو عندما يطل على الزهد من نافذة شعره ، نجده في الوقت نفسه يعلن هجوماً على الزهد وعلى الذين ألزموا أنفسهم به خارج حدود الشرع ، فكأن للزهد عنده معاني غير المعاني المفسرة عند القوم ، ولا يأخذ بعين الاعتبار مقولة بعضهم : زهدك في الحرام واجب ، وزهدك في الحلال فضيلة ..

من خلال هذا الأسلوب ، ومن خلال هذه التعابير يمكن دراسة صوفية المكزون ، وآثار الصوفية فيه ، ومن خلال هذه القصائد الغنية بالروحانية الصافية ، يمكن التعرف على صفاء جوهره فيها ، فالمكزون يعتبر من شوامخ أصحاب الأفكار الصوفية المتحررة من عقائد الحلول والاتحاد وكلية الجزء ، وتجزئة الكل، ووصل المفصول، وفصل الموصول وغير ذلك من الآراء التي حارت فيها عقول القوم خلافاً لابن الفارض وابن عربي وغيرهم ، وهو يؤمن بصفات التجلي ويتخذ من تجليها دليلاً لقلبه إليها ، عملاً بالصفات المشتركة التي أشار اليها بقوله :

إلى الرحمن نسبةُ كلّ عبدٍ ظهور صفاته الحسنى عليه

ولهذا قال :

فعليها ما دلّ قلبي سواها وإليها لم تدعني بسوائي[1]

---

(١) ابن عربي يقول عن الذات الآلهية : انها ذات أزلية قديمة ، لا تعرف أنها إله حتى يعرف المألوه ، فهو الدليل عليه ، ويبدو ان المكزون يخالف هذا القول .

ولا أدري اذا كان هذا يتفق مع مقولة أبي حامد الغزالي (ان المعرفة نور يقذفه الله بالقلب) نفياً لوساطة العقل ونظريته ، ورحم الله البستي فهو الذي قال :

تنازع الناس في الصوفي واختلفــوا
فيه ، وظنــوه مشــتقاً من الصوف

ولست انحل هــذا الاســم غير فتى
صافي، فصوفي، حتى لقب (الصوفي)

ونريد أن ننوه هنا أن أديباً لبنانياً يدعى منير العكش كان هاجم المكزون الصوفي على صفحات مجلــة الحوادث البيروتية بعددهــا الصادر بتاريخ ١٢/٧/١٩٧٣ بمقال عنيف أنكر فيه الصوفية التي تتصف بها الأمامية • وقال عن المكزون أنه شاعر تافه مسخ شعر ابن الفارض ، وقد رددنا عليه بمقال في كتابنا (أضواء كاشفة) بتاريــخ ٢٢/٧/١٩٧٣ في حينه ••

المتصــوف الثــاني

حسن بن حمزة الشيرازي الصوفي البلانسي

حسن بن حمزة الشيرازي ، هذا المتصوف الكبير ، الذي حذا في تصوفه حذو شيخه الأكبر ، الشيخ محي الدين بن عربي بمعارفه وفنونه ، فقد بلغ من المعرفة ، مستوى رفيعاً ، لا يماثله به غيره ، وقد ظل هذا الصوفي الجليل مغموراً طوال هذه المدة ، غير معروف ، إلا عند قلة من الفرق الباطنية ، يتناقلون ويتناسخون كتابه المعروف بينهم باسم كتاب (التنبيه) وقد سماه صاحبه (فرائد الفوائد العلوية ، في قواعد العقائد الغلوية) ••

ومما يثبت عراقته بالتصوف ، مجمل أبحاثه ، التي هي أشبه ما تكون ، بأبحاث ابن العربي في (فصوص الحكم) ان لم تكن توسعاً لها ، وهو لم يخف استناده على هذا الشيخ الكبير ، وقد اعتبره شيخه في هذا الاتجاه الصوفي ، وقد افتتح كتابه هذا ، بالتعبير الصوفي المحض ، قال :

يقول الفقير ، من الفقير ، إلى الفقير ، حسن بن حمزة بن محمد الشيرازي الصوفي البلانسي ، جمع الله له ، بين مشاهدة العين ، ومكاشفة الكون ..

إلى أن يقول :

وبعد ، فهذه رسالة دالة ، وعجالة مختصرة ، تشتمل على اثبات وجود الحق تعالى الذي هو مفيض الخير والوجود بالوجود ، على كل قابل له ، وتجليه لخلقه من طريق الاستدلات عليه بالموجود ، كما هو دأب المحققين من أهل الشهود ، ومن طريق النظر في الحركة والسكون ، كما هو دأب المتكلمين ، من أهل الحدود ، وسميتها بـ (فرائد الفوائد العلوية في قواعد العقائد الغلوية) ورتبتها على مقدمتين وأربع قواعد ، وخاتمة ، وهي عدة كاملة للطالبين في أصول الدين غنية ، وافية بمقاصد السالكين ، من مقام علم اليقين ، الى حق اليقين ، الى عين اليقين ، لتكون تبصرة للضعفاء من المؤمنين ، المصدقين للرواة ، المسلمين لما نقلوه عن الأئمة الطاهرين ، المستسلمين لأحكامهم في الدين ، بعلم اليقين ، وتذكرة للمستبصرين ، الذين طلبوا تحقيق أخبار الرواة ، مع تصديقهم لها بحق اليقين ، وتكملة ورحمة ونوراً وهدى وبشرى للبالغين ، الذين شاهدوا الحق بعين اليقين .. وجعلتها هدية مني إلى اصدقائنا الحاضرين في الديار المصرية ، والساكنين في الأقاليم الشرقية والغربية ، حاطهم الله برعايته،

وأعانهم على الرجوع إلى طاعته[1] حيث كانوا ، وأينما كانوا من الأقاليم والبلدان ، فلعل الحائد عن الطريق يرجع ، والغافل ، يتدارك ويسمع ، ومن به سنة من الغفلة يتيقظ ، فلا يهجع ، كما أمر الله في كتابه العزيز ، فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ..

ولما احصرت عن الترحال ، وتعذر عليّ الاجتماع بالاخوان في الحال ، ألّفت هذه الرسالة ، ليقف عليها أعيان المؤمنين ، وسادات الموحدين ، وكبراء المحققين ، وقوفاً شافياً ، ويتدبروها ، تدبراً كافياً، فان وجدوها لأدوائهم شافية ، ولما أشكل عليهم من أصول الدين نافية ، حمدوا الله على ما أولاهم من الفهم الثاقب ، والرأي الصائب، في كشف ما بهم من غمة ، والرجوع الى أعلى المراتب في المعرفة بعلو الهمة .

فان لم تصادف قبولاً ، ولا لحظت لسوء الحظ احتراماً ، ولا تبجيلا ، أعادوها الى مؤلفها ، فما عليهم عارها ، ولا عاق بهم غبارها ، فمؤلفها أولى بسترها ، وأحرى بتجرع مرها ، وهذا أليق بذوي المكارم، وأجدر بالعاقل اللبيب العالم، فان العقول تتفاوت ، والأغراض تتباين ، ولكل مقام مقال ، ولكل عمل رجال ، وفي تفاوت الافهام ، حكمة آلهية ، وأسرار ربانية ، كما قال تعالى : وفوق كل ذي علم عليم ، وقال عز وجل : يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات .

فبان لكم وجه الحكمة في تفاوت العقول ، وسبب تباين القبول، لما يرد عليها ، من المسموع والمنقول ، فتقبلها بقدر صفاء المرايا في القلوب ، لأن بعضها أصفى من بعض ، فتقبل الاشراق الآلهي ،

---

(١) يلاحظ من هذه العبارة ان ارتدادا كان قد حصل عند المخاطبين بهذا الكتاب من اصدقائه بمصر والأقاليم .

وتستنير بالفيض الرباني •• ولهذا لا يستوي اثنان في درجة من العلم والايمان ، والعمل والاحسان ، والكشف والعيان ، والبيان والبرهان، لقوله تعالى حكاية عن الملأ الأعلى : وما منا إلا له مقام معلوم ••

فإذا كان هذا حال عالم الشهادة والملك ، وهو عالم المزاج ، أعني الانسان ، فان الله عز وجل ، أبدعه من النور والظلمة ، وهو مجموع العالمين وهو الصراط ، بين الجنة والنار •• وبين عالم النور، وهو العقل ، وبين عالم الظلمة، وهو الحس ، وهو برزخ" بين الوجوب والامكان ••

وقد قال الله تعالى في حق من غلبت على مزاجه الظلمة ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا •• والعلم هو نتيجة العقل ، فلذلك خاطب الحق سبحانه وتعالى أهل العلم ، ونعتهم بذوي الألباب ، فقال : يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب •••

فاذا كان الواقف على هذه الرسالة ، لاحظ له في فهمها وعلمها ، كما قال الله : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ••

وقال الله تعالى : وإذا لم يهتدوا به ، فسيقولون هذا أفك" قديم ، ونقول في عدم فهمه لها ، ما قاله الله تعالى لرسوله (ص) وآله: وان كذبوك ، فقل : لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون •

فمؤلفها أولى بستر عوارها ، واحتمال المكروه من شنارها ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب •••

وهذه فهرست الرسالة :

المقدمة الأولى في بيان تذكرة نافعة ، وموعظـة حسنة جامعـة واردة ، عن الأئمة الأطهار ، في الحث والحض لأخواننا المؤمنين الأبرار على (رياضة النفس ، وقمع الطبع) والمحافظة على ظواهر الشـرع التي هي التقية والكتمان ، ورعاية حقوق الاخوان[1] .

المقدمة الثانية : فهي لبيان سر حصر هذه القواعد في الأربعة من سائر الأعداد ، لا أقل ولا أكثر ..

أما القاعدة الأولى ، فهي لبيـان معرفة اثبات وجـود المعنى القديم وظهوره بذاته ، ووجوده لخلقه كخلقه ، وفيها سبعة تنبيهات..

وأما القاعدة الثانية ، فهي لبيان اثبات وجوب المعرفة لله تعالى على الانسان البالغ الراشد ، وفيها ثلاثة تنبيهات ..

وأما القاعدة الثالثة ، فهي لبيان معرفة الانسان نفسه ، ووجوبها عليه ، اذ بمعرفتها يعرف ربه ، وفيها تنبيهان ..

وأما القاعدة الرابعة ، فهي لبيان حقيقة الايمان ، ومراتبـه ، وصورته ، وروحه ومقاماته ، ودرجاته ، وما يجب على المؤمنين مـن حقوق بعضهم بعضاً وفيها خمسة تنبيهات ..

وأما الخاتمة ، فهي لبيان شروط الايمان وحقوق الاخوان .

---

(١) الشريعة أن تعبده ، والحقيقة ان تشهده ، والشريعة قيام بما امر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، (ورياضة النفس وقمع الطبع من مبادىء التصوف) (الرسالة القشيرية) .

فصل، من التذكرة والموعظة :

اعلموا اخواني ، وفقكم الله لمرضاته ، ان المبايعين أربعة : الرسل ، والأئمة ، والمشايخ ، والسلاطين •• والمبايع في هؤلاء الأربعة على الحقيقة واحد ، وهو الله تعالى ، لقوله لنبيه (ص) وآله : إن الذين يبايعونك ، إنما يبايعون الله •

وهؤلاء الأربعة شهود الله تعالى على بيعة هؤلاء الأتباع ، وعلى هؤلاء المبايعين الأربعة شروط تجمعها المبايعة لهم فيما أمروا به •

فأما الرسل والأئمة ، فلا يعصون ، ولا يأمرون بمعصية أصلاً ، لأنهم معصومون منها ، وكذلك المشايخ فمحفوظون ••

وأما السلاطين ، فمن لحق منهم بالمشايخ كان محفوظاً ، وإلا كان مخذولاً ، ومع هذا فلا يطاع في معصية ••

والفرق بين المعصوم والمحفوظ ، أن المعصوم هو الذي لا ينوي الشر ولا يصدر عنه ، والمحفوظ ، هو الذي ينوي الشر ، ولا ييسر الله له فعله ، والمتبعون له كذلك •

والبيعة لازمة حتى يلقوا الله تعالى ، ومن نكث من هؤلاء الأتباع فجزاؤه جهنم خالداً فيها •• وهو كمن قال الله تعالى فيهم : **أولئك لا خلاق لهم في الآخرة** ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ••• هذا حظه في الآخرة•• وأما حظه في الدنيا والبرزخ فالنسوخية ، والمسوخية ، والفسوخية ، والرسوخية ، حتى يلج الجمل في سم الخياط ••

حكي : أن بعض تلامذة أبي يزيد البسطامي الذي كان سقاء الامام جعفر الصادق منه السلام ، خالف أمره ، فقال لأصحابه : دعوا

من سقط من عين الله ، فرئي بعد ذلك مع المخنثين ، وسرق فقطعت يده ، فهذا لمن نكث ، : أين هو ممن وفى ببيعته مثل تلميذ أبي سليمان الداراني ، إذ قال : الق نفسك في التنور ، فألقى نفسه ، فعادت عليه النار برداً وسلاماً[1] .

هذه نتيجة الوفـاء ، فالسعيد من وُعِظ بغيره ، والشقي مـن وعظ بنفسه وما وعظ الله أحداً بنفسه ، حتى وعظه بغيره ، من لطفه. هذا وقد قرأت في كتاب (التكوين والتجلي) للشيخ أحمد حيدر أن المذكور قد قـام بشرح كتاب التنبيـه هذا ، ولكني لم أطلع عليه لأنه لا يزال مخطوطاً ، كما قالت لجنة نشر آثاره ..

---

(١) حكاية تلميذ أبي سليمان الداراني المشار اليها في هذه الموعظة ، أوردها ابو القاسم : عبد الكريم بن هوازن القشيري في رسالته القشيرية كما يلي : قال محمد بن الحسين ، سمعت محمد بن عبد الله يقول : سمعت ابا بكر السباك يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : كان بين أبي سليمان ، واحمد بن الحواري عقد لا يخالفه أحمد في شيء يأمره به ، فجاءه يوماً وهو يتكلم في مجلسه ، فقال : إن التنور قد سجر ، فما تأمره ، فلم يجبه ، فقال مرتين او ثلاثة ، فقال أبو سليمان : اذهب فاقعد فيه ، كأنه ضاق بـه قلبه ، وتغافل عنه ابو سليمان ، ساعة ، ثم ذكر ، فقال : ادركوا احمد ، فانه في التنور ، لأنه آلى على نفسه أن لا يخالفني ، فنظروا فاذا هو بالتنور لم تحترق منه شعرة . (انظر بـاب الارادة في القشيرية) ولكن الأميني صاحب الغديـر يعتبر هذه الحكايـة اسطورة .

نموذج من المعرفة الصوفية عند
حســن بـن حمــزة الشيرازي

لما كانت القاعدة الأولى من كتاب التنبيه ، تتشكل من سبعة تنبيهات، فقد رأينا أن نقتطع منها تنبيهين فقط لعرضهما كنموذج للبحث المعرفي عند حسن بن حمزة ..

وكان التنبيه الأول في معرفة اثبات وجود المعنى القديم(١) من طريق الاستدلال عليه بالوجود .. قال :

اعلموا اخواني ، أيدكم الله بروح منه : إن حق اليقين في اثبات وجود المعنى القديم ، أن يستدل عليه بالوجود الذي هو جنس الأجناس وهو المعلوم ، ثم المذكور ، ثم الشيء ..

وهو الجنس الأعم ، الذي لم يخرج منه معلوم ، ولا مذكور أصلاً ، ولا خلقاً ، ولا حقاً ، ولا ممكناً ، ولا واجباً ..

ولا محال أن ينتهي الى النوع الأخير الذي لا نوع بعده إلا بالصفات ، وتظهر أعيان الأشخاص ، وهو عبارة عن شخص واحد في الخارج ، به يكون الشيء ، هو ، ما هو ، وهو هو لذاته ، فلا هو هو ، ولا هو لا هو أي هو النفس ماهيته ..

وقيل الوجود ، هو ما به وجدان صورة كل تعيين تجد منهـا

---

(١) جاء في كتاب التجربة الفلسفية للدكتور عادل العوا ان (دي اوكام) المولود في انكلترا سنة ١٢٩٥ م انتقد العلم بالمعنى القديم ووضع اسس الفكر الحديث ، وبعضهم يقول : المعنى صوت في الهـواء ولم يعترف بأن المعنى مفهوم قائم في العقل .

نفسها ومثالها ، موجوداً ، وروحانياً ، ومثالياً ، وجسمانياً ظاهراً في كل مرتبة ، بحسبه وحكمه ..

فإن الموجود في مرتبة الأرواح ، لا يجد نفسه ومثله إلا جسمانياً محسوساً ..

وقيل : الوجود ، هو الذي يشمل الثبوت ، بكل اعتبار ، حتى يدخل في العدم الاضافي ، وليس هو معروضاً للماهية ، حتى يكون عرضياً بل الماهية ، هي عرضٌ في الوجود ..

وقيل الوجود من حيث هو هو ، غنيٌّ عن التحديد والتعريف لوضوحه وظهوره عند الزكي والبليد ، والغوي والرشيد ، وتصوره بديهيٌ فطري ، إذ لا يفتقر أحد في ادراكه إلى دليل من خارج ولا إلى سُلَّم ومعارج ، لأن كل واحد بقوله (أنا) يشير الى وجوده ، وهو أنانيته التي يشير إليها غيره ..

ولهم ها هنا ، قياسيٌّ يقيني ، وبرهانٌ نظري ، لا يشك به عاقل لبيب ، وهو قول القائل : (تصور وجودي بديهي) ..

وهو من حيث مفهومه ، لاجزء له ، ولا أعم منه ، فلا جنس له ، فلا فصل له ، فلا حد له ، ولا لازم أظهر منه ، فلا رسمٌ ..

إذ أن الحد عبارة عن الجمع بين الجنسين ، وليس الفصل ، وللوجود جنس أعم منه ، حتى يضاف إليه فصله ، فيحصل منه الوجود ، والرسم عبارة عن تعريف الشيء الخفي ، بالواضح من الوجود ، ولا أظهر منه ، ولا أشهر ، حتى يعرف به الوجود ..

ولكن إذا ذكر لفظ الوجود المعجم ، ولم يفهم بدله بالعجمية ، ليفهم المراد باللفظ ، فان الوجود هو الأمر الذي لا تخرج عنه حقيقة من الحقائق الموصوفة بالوجود ، ولا يوصف ، و لاينعت ، ولا يسمى ،

ولا يحد ولا يوسم بالنظر إلى ذاته سوى أنه موجود ، ولم يوصف أيضاً بالوجود إلا بالنظر إلى الموجود ، ولله در القائل شعراً :

وجودٌ ، وحسبي أن أقول وجودُ
لــه كــرمٌ منــه عــليٌّ وَجــودُ

تنــزه عــن نعــت الكمال ، لأنــه
لمعنى اعتبــار النقص فيــه يعــود

ولكنه فيــه الكمــال .. وضــده
له منه ، والمجمــوع فيــه صمــود

وليس في الوجود موجود ، يوصف باطلاق ، إلا وله وجه إلى التقييد ، ولو من حيث تعيينه ، من تعقل متعقل ، أو متعقلين ..

وكذلك ليس في الوجود موجود محكوم عليــه بالتقييــد ، إلا وله وجه إلى الاطلاق ، لكن لا يعرف ذلك إلا من عرف الأشياء معرفة تامة بعد معرفة الوجود ، ومن لم يشهد ذاتاً لم يتحقق معرفة الحق والخلق .. واعلموا اخواني ، وفقكــم الله لمرضاتــه وأداء مفترضاته ، ان الحقية والخلقية ، والربوبية ، والمربوبية ، والعابديــة والمعبودية ، للوجود الحق ، الذي هو هو في جميع هــذه النسبب ذاتي ، فلا تحصره العين ، والغير منحصر لذاته في حقية وخلقية ، فإنه حق باعتبار انه خلق ، فهو حق خلق ، فاذا نظرتم الى الرب الحق، فلا تغفلوا عن العبد الخلق ، الذي لا انفكاك له عن عينه .. وإذا نظرتم الى العبد الخلق ، فلا تحصروا في كونه سواه .. فهو من حيث وجوده الحق ، عين ربه الحق ، مع قطع النظر عن وجود ربه ، نسبة عدمية تعيينية ..

فالوجود الحق ، كسوته التي بها ظهوره في الوجود وإذا شهدتم هذا فأنتم اذن نزهتم الذات المطلق عن الحصر والتقييد والتحديد في أعيان التشبيه ، لكونها مطلقة عن الاطلاق الذي في مقابلة التقييد، فقيده في عين اطلاقه ..

وإذا شهدتم هذا المشهد ، فأنتم قائسون مقام السواء ، والبرزخية العظمى ، فتكونون في الجمع والتفرقة مجموعاً أحدياً ، وان شئتم كنتم في الجمع الأحدي جامعين للكثرة ، فانكم لا تبالون ، لكونكم جامعين للكثرة ، فانكم لا تبالون لأنكم جامعين للكل ، وحائزين قصب السبق في الكل .. إذا ظهر كل متميز بشهود الجزئي الخصيص به ، إذ لا خصوص لكم إلا أحدية جمعكم ، الذي هو أحدية جمعه ، فلا تفنون ، لأنكم عين من لا يفنى ولا تبقون لأنكم غير متميزين عنه حتى يضاف اليكم البقاء ، بل بقاؤكم عين بقائه ، ولا تفنون أنتم ولا تبقون ما كنتم تفنونه وتبقونه في حضرة شهود التمييز ولا يلقى إليكم من خارج ذواتكم الهام" ووحي ، بل منكم ، وفيكم ، وعليكم ، له ، ومنه ، وفيه ، ولهذا أشار شيخنا محي الدين بن عربي ، قدس الله سره ، شعراً

فلا تنظر إلى الحق	وتعريه عن الخلق
ولا تنظر إلى الخلق	وتكسوه سوى الحق
ونزههُ ، وشبهه	وقم في مقعد الصدق
وكن في الجمع ، إن شئت	، وان شئت ، ففي الفرق
تحز بالكل ، من كل	لديه قصب السبق
فلا تبقى ، ولا تفنى	ولا تفني ، ولا تُبقي
ولا يلقى عليك الوحي	ادماناً ، ولا تلقي

فما أكمل الانسان ، لو عرف قدره ، وملك أمره ، وكتم سره ، ولم يتعد طوره ، ولزم مركزية حقيقة الاعتدال ، وتحقق حقيقة الاطلاق في الجمع والكمال ..

ولما كانت ظاهرية الانسان ، مجموع العالم الكياني من حيث حجابيته ، ومجمع النقائص والمذام والشرود ، الخصيصة بالمقام الأمكاني ، فالأفعال والأخلاق والأعمال الصادرة عن الانسان ، إن كانت قبيحة ، يستحق عليها المذام ، إما عرفاً ، وإما عقلاً ، وإما شرعاً ، فالأحرى ، والأليق ، أن ينسب إلى نفسه تأديباً وتحقيقاً ، ناظراً في ذلك نظراً دقيقاً ، فان الصادر عن الحق ، خير محض ، وهو الجود لا غير ، وهو غير محض بالنسبة الى الموجودية والنقائص والقبايح راجعة الى الكيان ، من حضر الامكان ، والعدم يلبي أحد جانبي الامكان بالنسبة إليه أولاً ... وما كان فيها من الكمالات والفضائل ، والمحامد والمحاسن ، أضف إلى الحق ، إلا انها في الحقيقة راجعة إلى الوجود الحق ، فيكون قد جعل نفسه وقاية الحق في اضافة المذام إلى نفسه ، كما قال الله تعالى : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وجعل الحق وقاية لنفسه في اضافة المحامد كلها إليه وإليه ترجع عواقب الثناء ، وهذا مقتضى التحقيق الأتم ، والأدب الأعم ، والتقية والتقى الأكمل ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، وإذا فهم هذا فنقول : اعلموا اخواني رحمكم الله .. أنه لو لم يكن في الوجود قديم ، لما كان في الوجود موجود أصلا البته ، وذلك لأن الوجود ينقسم قسمة حاصرة الى محدث وقديم ، والقديم أعني ما ليس لوجوده أول ، وما ليس لوجوده بداية ، فلو لم يكن في الوجود قديم ، لم يكن به حادث أصلاً ، إذ ليس في طبيعة الحادث أن يوجد بذاته ، فان الموجود بذاته يكون واجب الوجود ، والواجب بذاته ، لا يتصور له بداية ، وها هنا برهان عقلي ، يسمى بالشرط المتصل ،

وهو قولهم : لو كان في الوجود موجود ، لزم بإلزام الضرورة ، أن يكون في الوجود قديم ، والوجود معلوم" قطعاً ... ينتج من هذين الأصلين وجود موجود قديم بالضرورة ، فهذا هو طريق الاستدلال بالوجود على اثبات وجود المعنى القديم .. ولا يقال : ان الباري ليس بموجود ولا بمعدوم ، إذ لو كان موجوداً ، يكون مثل سائر الموجودات ، ولو كان معدوماً ، يكون مثل سائر المعدومات ، وهو قول" باطل ، لأننا نقول : لا فرق في العقل ، بين أن يقال : الشيء الفلاني ليس بموجود وبين أن يقال : هو معدوم ، فانه إذ لم يكن موجوداً ، يكن معدوماً جل جلال القديم عن ادناس أنفاس المحدثين، وخطرات أوهام المتوهمين وتمويهات المبطلين ، وتخيلات المتخيلين ، وتمثيل المشبهين .

التنبيه الثاني

في اثبات وجود المعنى القديم على طريق النظر في الحركة والسكون

قال الشيرازي ، قدس الله سره :

اعلموا اخواني رحمكم الله ، إن أهل الكلام في أصول الدين يستدلون على حدوث العالم بالحركة والسكون ، فيقولون : أجسام العالم لا تخلوا من الحركة والسكون ، وهما محدثان ... وكما لا يخلو جسم من الحركة لشرط وان كان قاراً في مكانه ، فهو متحرك، وان لم يكن قاراً في مكانه فهو ساكن ، فقد علم : أن الجسم ، لا يخلو من حركة أو سكون ..

وأما بيان ، إن الحركة والسكون محدثان ، فهو ان الحركة عبارة

عن حصول الجوهر في مكان ، بعد أن كان في مكان آخر ومعلوم ، ان ما كان مسبوقاً بغيره يكون محدثاً ..

وأما بيان أن السكون محدث ، فلأنه لم يكن محدثاً ما جاز عليه العدم ، لأن العدم لا يجوز على القديم ، فان ما ثبت قدمه استحال عدمه ، وبالعكس ..

وأما بيان ، أن كل ما لا يخلو عن الحدث فهو محدث ، فهو ، إن الحادث ، إما زوج ، واما فرد ، وعلى التقديرين يكون متناهياً ، فيكون لهذه الحوادث أول ، ونحن بيّنا : أن الجسم ، لا يخلو من أوّل ، وكل مالا يخلو من شيء ، يكون له أول ، فيكون هو أيضاً له أول ، فيجب أن يكون الجسم محدثاً ..

وقد يستنبط أيضاً من الميزان المعنوي العددي ، العلم بحدوث العالم ، فلنفرض الكلام في اليوم الذي نحن فيه مثلاً ، فنقول : لا تخلو الأيام التي قبله ، أن تكون متناهية الأعداد ، أو غير متناهية الأعداد ... والقسم الثالث لا يُعقل ..

فإن كانت متناهية الأعداد ، فلها أول ، وهو دليل" الحدوث وان كانت غير متناهية الأعداد ، استحال وجود اليوم الذي نحن فيه لأنه لا يأتي حتى يتناهى ما قبله من الأيام ، مما لا يتناهى ، وتناهي مالا يتناهى مُحال ...

وأيضاً مثل ذلك ، ان تفرض الكلام في شخص من أشخاص الحيوانات ، كالآدمي مثلاً ، فنقول : لا يخلو الآباء والأجداد الذين مضوا قبله ، أن يكونوا متناهي الأعداد ، أو غير متناهي الأعداد ..

فإن كانت أعدادهم متناهية ، ثبتت أوليتهم ، ومن كان له أول فهو مفتتح الوجود ، ومن كان مفتتح الوجود ، فهو حادث ، وان كان

آباؤه وأجداده غير متناهين استحال وجود الشخص الحاضر ، لأنه لا يوجد ، حتى يمضي ما قبله من الآباء ما لا عدد لهم .. وتناهي ما لا عدد له محال ، كقول القائل : إذا جاء زيد" أعطيناه ديناراً ، ولا نعطيه ، حتى نعطي من قبله من الدراهم ما لا نهاية له ، فرد على هذا الترتيب اعطاء الدينار لزيد ...

وأيضاً ، فانه إذا كان يجوز أن يكون حدوثه في العقل سابقاً على ذلك الوقت ، أو متأخراً عنه ، فاختصاص حدوثه بذلك الوقت ، مع أنه جائز" في العقل ، أن يكون قبله ، أو بعده ، ليس إلا لمخصصٍ ، فعلم ، أن للعالم صانعاً وحده ..

وأيضاً إذا ثبت حدوث العالم ، ثبت أن له محدثاً ، اذ يستحيل حدوث فعل ، إلا عن فاعل حي عالم مريد قادر .

ثم لنفرض الكلام في ذلك الفاعل ، فان كان بينه وبين فعلـه مشابهة في ذاته وصفاته وأفعاله لزمه من الحدوث ما لزم فعله وان كان لا مشابهة بينه وبين فعله من جميع الجهات ، فهو المعنى القديم عـلى الحقيقة ..

كتمـان الأسـرار الصوفيـة

قال حسن بن حمزة الصوفي :

ورد عن الصادق (ع) أنه قال : سر الله تعالى مبثوث بين خلقه، لا يعرفه أكثرهم ، ولو أراد الله عرفهم ، فمن أذاع سر الله فقد عانـد اللـه ...

وعنه (ع) ما لله سر ، إلا وهو على ألسن خلقه ، ولا له خزانـة أحرز من جهلهم به ، فمن عرّف أعداء الله بسر الله ، فقد حـاد عن أمـره ..

وعنه (ع): ظهور الله بين ظهراني عباده سر، وعلمه فيهم مستسر، كذلك ما عرفكم مستتر عمن ليس منكم ، فكونوا على طريق الله ومنهاجه ، فإنه لو شاء هتك ما ستر ولكن ليبلو بعضكم ببعض ..

وعنه (ع) كل سر مستتر بالسر ، فمن فهم من ذلك شيئاً ، وأذاعه للجهلة ، أو أراد به المعاندة ، فقد هتك سر الله ، ومن هتك سر الله أذاقه الله حر الحديد ..

وعنه (ع) : جاحده شاك ، وقائله عند غير أهله كافر ، وقيل : افشاء سر الربوبية كفر ، ولله در القائل :

صُن سرهم إن كنت تطلب وصلهم
فالحاسدون على الوصال كثيرُ

واحفظ وقارك إن وقفت ببابهم
فالباب من آدابه التوقير

فإذا وجدتم أهل السر ، فاخلصوا لهم مودتكم ، ولا تكمتوهم شيئاً مما تعلمونه ، فان الرواية عن السيد المسيح (ع) أنه قال: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها ، فتضيعوها ، ولا تمنعوها أهلها ، فتظلموهم ، ولقد أحسن الشافعي بقوله :

أأنثر دراً بين سارحة النعم
وانظم منثوراً لراعية الغنم

لعمري لئن ضيعت في شر بلدةٍ
فلست مذيعاً بينهم درر الكلم

فإن وفق الله الكريم بفضله
وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

بثثت مفيداً ، واستفدت ودادهـم
وإلا فمخزون" لـدي" ، ومكتتـم

فمن منح الجهـال علماً ، أضاعـه
ومن منـع المستوجبين فقد ظلـم

ثم قال : وبالجملة ، انما منعوا اظهار أكثر العلوم ، وافشاء أكثر الأسرار لاختلاف الحقائق في الأمزجة والطبائـع البشرية ، وضعف الاستعداد لقبول العلوم اللدنية الوهبية ، والأسرار الحقيقية ، ومن ها هنا قال السيد الرسول (ص) لا تطرحوا الجواهر تحت أرجـل الخنازيـر ...

وقال بعضهم : ربما أصاب من أكتم الحق عن أهله ، خشية من سطوة الغبي وجهله .. وقال الشيخ محي الدين بن العربي :

فافهـم فديتك سر الله فيـك ولا
تظهره ، فهـو عن الأخيـار مكنون

وغَر عليـه وصنـه ما حييت بـه
فالسر ميـت بقلب الحـر مدفـون

وقال بعضهم :

مـن لم يصن سر مولاه وسـيده
لم يأمنـوه على الأسرار ما عاشـا

فمـا ثمَّ إلاّ الحيـرة

قال الجنيد القواريري : إذا تناهت عقول العقلاء للتوحيـد ، تناهت إلى الحيرة ..

أما صاحب كتاب التنبيه (الشيرازي) في آخر التنبيه الرابع ، فيقول : وبالجملة ، فما ثمّ إلا الحيرة ..

وصورة الحيرة في ذلك : إن من أثبت اعيان الأسماء والصفات زائدة على الذات المسماة الموصوفة ، فقد أثبت العدد والكثرة في الله سبحانه ، وهو واحد من جميع الوجوه ، فكيف يكون هذا ؟!(١).

وإن قلنا : لا يلزم من هذا اثبات العدد على وجه ما ، فثم ما هو أشد علينا من العدد ، وهو أن أشد علينا من العدد ، وهو أن تكون الذات كاملة بغيرها وكل كامل بغيره ،ناقص بذاته ، ومن نفى اعيان الصفات فر من الكثرة والنقص ، لكن تلقاه أمرٌ آخر ، وهو أن الحكم لا يقدر من جهة الدليل الذي نصبتموه على معرفة الله تعالى ، إن ثبتت هذه الأحكام للذات مجردة ، فإنه إذا ثبت كونه قادراً لنفسه وقع الفعل أزلاً ، وهو محالٌ ، واثباته لنفسه قادراً محال ..

ثم إن القلب ، لا يجد ذلك الجلاء بقياس الشاهد على الغائب لا سيما وقد عرف مأخذ العقول من أين هو ، ومن أين تركبت براهينها وأدلتها ، فالقصور بها منوط ، والاقدام على هذه الأمور غير حسن، وكل ما لا يمكن حصوله إلا بالمشاهدة والرؤية والتعريف ، فحصوله من غير هذا الطريق افتئات وجرأة .. :

فالأولى لأصحاب العقول الاقرار بالموجود ، واحكام الصفات ولا سبيل لمتعرض لنفيها ، ولا لاثباتها ، فان العقل أعجز من أن يقف على مثل هذا ، بل على أقل شيء منها ، فما ذلك إلا حيرة في حيرة فلو كان (الهو) ظاهراً لما صح هذا الخلاف ، ولو كان الهو غير ظاهر

---

(١) يقول محي الدين بن عربي في الفصوص : الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها متكثرة بصفاتها واسمائها لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والاضافات .

لما كان (الهو) ، وما كان إلا (الأنا) ولا بد من (الهو) ولا بد من (الأنا) ، فلا بد من الخلاف والله أعلم وأحكم ..

ولا بد لنا ونحن نغادر هذا الصوفي الكبير حسن بن حمزة ونتركه يفلسف حيرته التي عجز عقله عن أن يخرجه منها ، فرأى أنه من الأولى لأصحاب العقول الاقرار بالموجود ، وهذا الموجود يعني أنه غير خاضع لحكم العقول ، لأن العقل أعجز من أن يثبت صفات هذا الموجود أو أن ينفيها .

وتراءى لي أن هذا الكلام يترافق مبدئياً وأساساً مع ما يراه القديس توما الأكويني المولود سنة ١٢٢٥ م في بلد يقع بين روما ونابولي . يقول ميخائيل ضومط أستاذ اللاهوت في جامعة القديس يوسف : إن توما يرى : أن العقل أعجز من أن يسد جوع الانسان الى الحق بل ان العقل قد يبلغ إلى حد يعترف فيه هو بقصوره ، وكأني بالعقل إذ ذاك يود التقدم ولا يقوى عليه ، حتى إذا ما أشرق عليه نور الوحي تبين فيه ، على غير توقع منه ، تمام الحق الذي رأى ، وما زال يتوق منه إلى مزيد ، وان شئت توضيح ما تنطوي عليه هذه النظرة الى العقل وجدت أن العقل له وجهان ، وجه أول يبدو فيه العقل قوة على استكناه الحقيقة وتمثلها ، ووجه آخر أعمق غوراً يبدو فيه العقل حاجة الى الحقيقة وقوة على تبينها ، والعقل في وجهه الأول جلي الرؤية ولكنه محدود وهو في وجهه الثاني ظمآن لا تروى له غلة ..

يبدو مما مر أن نظريات المتدينين تتراوح بين الايمان والعقل فما لا يقبله العقل يقبله الايمان ، وما لا يقبله الايمان يقبله العقل ، وأكثر ما يكون عليهم ثقيلاً في هذا المعترك مخالفتهم لآراء أريسطو الذي يعتبر إمام العقل عند المجددين ، فهم بين ويلين ان خالفوا

أرسطو نقم عليهم جمهوره ، الآخذ بنظريته وان وافقوه خالفوا عقائد ايمانهم • وهم يرون أن الايمان هو الحق وهو الذي يجب أن يغاروا عليه أكثر من غيرتهم على أرسطو إذا كان لا بد من الانحياز إلى طرف منهما ، ويبدو أن العقل يفر من معاقل الصوفيين فهـم لا يطمأنون إليه ، وهو لا يستطيع ترويضهم ، ولهذا لجأ الصوفيون في أمورهم إلى غير العقل ، لأن العقل له زواجر تمنعه من الانسياق وراء غير المعلوم والمعقول : ومن هذا القبيل نلاحظ المكزون السنجاري يخاطب أهل مودته قائلاً :

(إن لم أخالـف زاجر العقـل
عـن صبوتي فيكـم فواجهلي)

ويقول أيضـاً :

(وليس على شيء من العقل واجد"
بكـم وله باللوم عن قصدكم عقل)

ويقـول :

(ولا واجد بالعقل باطن حسـنكم
وكيف يُرى بالعقل من سره العقل)

ويجيب قدس الله سره على القائلين بوسائل المعرفة : (ومنهم من قال : عرفته في عقلي ولم يعرف سفه دعواه في أنه عرف عقله في غير الله . وذلك تصور الجاهلين) • هذه العبارة الأخيرة من رسالته (التزكية) •

ويقول ، وكأنه يرد على أرسطو :

(وتابعت أمر العقل حتى اذا لكم
دعاني الهول أضحى لي العقل يتبع)

وله من أمثال ذلك كثير في ديوانه لا يتسع لنا المجال لايراده ؛ إلا أنني رأيت فيما أوردت من هذه الأقوال : أن الصوفية هجوم على العقل وليس مع العقل ، وان المتصوف لا يؤمن بالعقل ولا برهاناً على ايمانه وعشقه للخلاص وانما يعتمد على النور الذي يقذفه الله في قلبه .

ولكن أبا العلاء المعري لا يعترف على كل هذه الفلسفات ضد العقل ويخاطبك أيها القارىء قائلاً :

ولا تقبلن ما يخبرونك ضلة ... إذا لم يؤيد ما أتوكَ به العقلُ

* * *

التصوّف بين مؤيّديه ومعارضيه

التصوّف بين مؤيّديه ومعارضيه

أ

جاء في مقال طويل للأديب شاكر هادي شكر من بغداد منشور في العدد الأول ، المجلد التاسع لعام ١٤٠٠ هجرية الموافق ١٩٨٠ م من مجلة المورد العراقية ، المقال بعنوان (رحلة بن معصوم المدني) ما يلي ، والكلام لابن معصوم مقتطع من رحلته :

وزرنا (بكلبرجا) هذه ضريح السيد محمد المشهور بكيسووراز أي طويل اللمة ـ وهو أحد الصوفية المشهورين ، والسادة المباركين، تقصده ملوك الهند للزيارة ، وتنذر له النذور ، وعلى ضريحه قبة عظيمة معلق فيها عقود من لآلىء ثمينة ، يقال : إن بعض التجار كان في البحر ، فأشرفت سفينته على الغرق ، فنذر ان أنجاه الله تعالى ، أن يعلق على ضريح السيد هذه اللآلىء ، وكانت معه فأنجاه الله تعالى ، ووفّى بنذره ، وكانت وفاة السيد المذكور سنة ٨٢٥ هجرية[١] وعلى ذلك فما ألطف قول أبي الفتح البستي :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه ، وظنوه مشتقاً من الصوف

وليس انحل هذا الاسم غير فتىً صافي،فصوفي، حتى لقب الصوفي

---

(١) وهذا من نوع الكرامات المذكورة في رسالة القشيري في باب الكرامات وقد سبق ان اشرنا اليها في هذا الكتاب .

وقد اختلف في مأخذ هذا الاسم والوصف به ، قال أبو نصر السراج : إنما قيل لهم الصوفية نسبة إلى ظاهر اللبسة إذ كان لبس الصوف دأب الأولياء والأنبياء والصديقين ، وعباد الله المخلصين . فنسبوا اليه ، حتى يكون ذلك اسماً مجملاً عاماً مخبراً عن جميع أوصاف التنسك وآداب التعبد إذ لو كان الاسم ببعضها ، لم يكن ذلك البعض بأولى من غيره ، فوصفوا باللبسة الظاهرة ..

وقال بشر بن الحارث : هو من صفاء قلبه لله ..

وقد قربت عباداتهم عن الصفوة على مخرج اسمهم ، فقالوا : هو من صفاء نفسه عن كدورة المخالفات ، وقالوا : هو من صفت لله معاملته ، وصفت له من الله كرامته .

وسئل محمد بن علي ، أستاذ الجنيد عن التصوف ، فقال : التصوف جملته أخلاق كريمة ، في زمانٍ كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام ..

وقال أبو الحسن الثوري : التصوف في الحقيقة هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق ، فقد زاد في التصوف ، وقيل أنه سئل عن التصوف فأنشد :

عـري" وجوع" وحَفـا ومـاء وجـه قـد عفـا
وليـس إلا نفـس" يخبرُ عما قـد خَفـا
قـد كنت أبكـي طربـاً فصرت أبكـي أسـفا

وقيل : التصوف ، صيرورة الأهواء هوى ، والهموم هماً .

وكلامهم في ذلك يطول ..

ومن املاء المولى الأعظم ، قطب الدين الشيرازي : التصوف في زماننا ، عبارة عن متابعة (التيوس اللحقانيــة) وتقويــة النفوس الشهوانية ، والرقص بالحركات الميلانية ، والانســلاخ من جميــع الأخلاق الانسانية ، ومخالفة رسول الله (ص) في جميع الوظائف الايمانية(١) .

وكتب بعض الأفاضل (لعل في قوله في زماننا ، دفعا لما يفهم من مذمتهم على الاطلاق) ، وعلى ذلك فما ألطف قول القاضي أحمــد بن عيسى المرشدي :

صوفيـــة العصـر والأوان
صوفيـة العصـر والأواني

فاقوا على قــوم لــوطٍ
بنقــر زانٍ لنقـــر زان

وبالجملة ، فالحال الآن ، كقولة من قال :

لقد هزلــت حتى بدا من هزالهــا
كلاها ، وحتى استافها كــل مفلس

نقل القرطبي عن أبي بكر الطرطوشي ، أنــه سئل عن قــوم يتجمعون في مكـــان يقرؤون شيئاً مــن القرآن ، ثم ينشـــد لهـم منشد" شيئاً من الشعرفيرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشبابة، هل الحضور معهم حلال ، فأجاب : مذهب السادة الصوفية .. إن هذا بطالة وجهالة ..

---

(١) ماذا يقول انصار التصوف في راي قطب الدين الشيرازي هــذا وقد تخطى به كل حدود المجاملة .

قال العلامة الدميري ، في حياة الحيوان الكبرى ، وقد رأيت أنه أجاب بلفظ غير هذا ، وهو أنه قال : مذهب الصوفية بطالة وضلالة ، وجهالة .. الى آخر كلامه . وما الاسلام الا كتاب الله وسنة نبيه (ص) .. وأما الرقص والتواجد ، فأول من أحدثه أصحاب السامري ، لما اتخذوا عجلاً جسداً له خوار" ، قاموا يرقصون حوله، ويتواجدون ، فهو دين الكفار ، وعبادة العجل .. وانما كان النبي (ص) يجلس مع أصحابه ، كأن على رؤوسهم الطير مع الوقار ، فينبغي للسلطان ونوابه ، أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك والشافعي ، وأبي حنيفة ، وغيرهم من أئمة المسلمين .. انتهى .

هذا المقطع من مقال السيد شاكر هادي شكر الذي تحدث فيه عن الصوفية ، نسبة ومزايا وأخلاقاً ، حمل رأيين مختلفين : أحدهما يستعرض آراء من قال : إن الصوفية مشتقة من صفاء القلب، أو صفاء النفس ، أو مأخوذة من لبس الصوف ، الذي كان من ظواهر حياة الأنبياء والأولياء أو من صفاء المعاملة مع الله ، وهؤلاء الأشخاص الذين اختلفوا على التسمية ، لم يختلفوا في مزايا الصوفي ، فالصوفية في مقتضى التطبيق هي أخلاق، وتنسك وتعبد، وانصراف من المخلوق نحو الخالق .. وثانيهما رفض كلي للتصوف ، من خلال تصرفات المتصوفين ، بما هو منسوب من الأقوال ، إلى قطب الدين الشيرازي والقاضي أحمد بن عيسى المرشدي ، وأبو بكر الطرطوشي ..

هذه الأقوال التي صورت أحوال المتصوفين بأبشع الصور وأقبحها ، حتى أن بعض أصحابها ربطها بعقائد فاسد قديمة كأصحاب السامري وعبادة العجل ، وكأنه بهذا يقول : انها من بقايا طقوس الاسرائيليين الأوائل :

ولعل تخريج بعض الأفاضل من أن قول الشيرازي (في زماننا) حتى لا يفهم أن هجومه على الصوفية مطلق ..

ولكن كل هذا لا يعطي المفهوم الواضح الذي يفيد أن معارضي الصوفية ، وخصومها كانوا متهادنين معها ، أو متهاونين مع أصحابها .

وهذا الخلاف الكبير ، بين المؤيدين والمعارضين ، جعل كل باحث فيها يتردد في قبول ما وصفت به قبولاً ايجابياً في حالتي التأييد والمعارضة ..

ولا أعرف حركة في الاسلام أخذت هذا المدى من الاهتمام القلق ، فقد عجز كل دارسيها والباحثين فيها عن التوصل الى رأي مقنع في سبب تسميتها ، كما عجزوا أيضاً عن التوصل الى رأي مقنع في اعتبارها علماً أو طريقة ، أو حركة ، وعجزوا أيضاً عن تحديد المواصفات المشروطة في المريد ، أو المنتسب إليها ..

وهذا العجز المتردي ترك آثاره السلبية في استقراء هذه الحركة ، فبدلاً من أن تكون سهلة مبسطة ، حولوها إلى أحوال صعبة معقدة ، حيث أصبح الباحث فيها كالذي ضيع طريقه في الصحراء وقد خفيت عنه المعالم لكثرة ما تشعبت وتعددت ... بحثوا عنها في العلم فغابت الطريقة ، وبحثوا عنها في الطريقة فغاب العلم ، ورأوا أن تكون حركة ، فلم تتبين فيها أهداف الحركة ، ولذلك لجأ معتنقوها إلى رفض كل هذه التسميات ، من علم ، وطريقة ، وحركة ، بما لكل منهما من دلالات وما تنطوي عليه من مضمون ، ذهني ، أو اعتباري ، أو خلقي ، يتعذر ايصاله الى الجماهير ، وحولوها الى ممارسات وطقوس عاطفية مثيرة ، كالغناء والرقص والانخلاع ..

ولعل جلال الدين الرومي عندما أباح هذا المتنفس لمريديه ، كان

يرمي الى غاية أبعد ، هي التأثير المطلق على هؤلاء المريدين بواسطة هذه الوسائل السهلة المريحة ، والتي تـؤول بنتيجتها الى فقـدان الأعصاب، وتعطيل قوى النفس ، فلا تترددفي قبول الأوامر، وتستجيب بسهولة الى ما يطلب منها ، وبمثل هذه السيطرة ، وبمثل هذا التأثير، يوجه أشياعه ومريديه ، الوجهة التي يختارها (ضد) أو (مع) وفقاً لمقتضيات المصلحة كما يقول السياسيون •

إلا أن هذا النهج الذي اختاره جلال الدين ، حول التصوف عن كل ما يسمونه علماً ، أو معرفة ، وبقي له صفة الطريقة التي ظاهرها البطالة والجهالة ، كما يقول الطرطوشي والدميري ولكن ربما يكون في باطنها غاية أبعد غير التي عبر عنها جلال الدين ، لا سيما في حركة الرقص ، التي رمز بها الى حركة دوران الكواكب ••

وقد يكون قطب الدين الشيرازي ، أدرك هذه الغاية عند جلال، ومن تابعه ، فشبه هؤلاء القوم (بالتيوس اللحياتية) إضافة الى ما نعتهم به من النعوت القبيحة تنفيراً للناس منهم ، ولعل مطالبة الدميري للسلطان بمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، وتحريم الحضور معهم مبني على هذا الأساس ••

فإذا كانت هذه هي النظرة نحو الصوفية ، النظرة المترجرجة المهزوزة حتى من كبار المفكرين فكيف يطمئن الى معرفتها عامة الناس، وأنّى لهم الاعتماد على الأخذ بها ، وكل آثارها مموهة ، ومصادرها مشوشة •

* * *

أدب التصوّف عِند زكي مُبارك

أدب التصوّف عند زكي مُبارك

ودخل التصوف في الأدب والأخلاق ، فلم يعد مقصوراً على التعبّد والتنسك والزهد ، كما كان في عصر ابن الأدهم ومن أتى بعده ، ولم يعد علماً وفلسفة ، كما أراده الغزالي وابن عربي ، ولم يعد رقصاً وغناءً وطرباً ، كما شاءه جلال الدين وأنصاره ، ولم يعد أمراً مرفوضاً على مذهب الطرطوشي والدميري وقطب الدين الشيرازي ، وانما أصبح في نظر الدكتور زكي مبارك الصوفي المرتد، مدرسة أدبية ، يتخرج منها أبو نواس الحسن بن هاني ، كما يتخرج منها سلطان العاشقين عمر بن الفارض ، ويتخرج منها كثير عزة ، ومجنون ليلى ، كما يتخرج منها المتنبي ، والبحتري ، وأبو تمام ..

ويعتمد زكي مبارك في (تصوفه الاسلامي) على صدق التعبير عن الفكرة عند أصحاب العطاء ، بصرف النظر عن اتجاهها فلا فرق عنده ـ كما يبدو لي من كتابه ، بين من يعشق امرأة وبين من يعشق الله ، ويتساوى في نظره عمر بن أبي ربيعة ورابعة العدوية ، فهو في هذا المجال تهمه حرارة الحرائق العاطفية واللهب الوجداني ، مهما كان نوع المقصود فيها ..

الدكتور زكي مبارك تاثر في هذا المنحى من التفكير الجديد براي (لويس ماسنيون) الذي يرى بان هناك روابطاً بين الحب العذري ،

وبين العشق الصوفي ، وانساق مع هذا الراي انسياقاً جدياً ، رغم مخالفة محمد احمد جاد المولى ، صاحب مقدمة الكتاب ، الذي قال :

ومن واجبي أن أحترس في الثناء ، فأصرح بأني لا أتفق مع الدكتور زكي مبارك في كل ما عرضه من آراء في كتاب التصوف الاسلامي ، ولا غرو في ذلك ، فالباحثون قلما اتفقوا على رأي واحد .

لقد ذهب بعيداً الدكتور المبارك في اصراره على هذا التصور ولم يعط شيئاً من الأهمية لمخالفة مقدم الكتاب الذي أصر أيضاً على التمسك بمخالفته ، حيث قال : وأصرح مرة ثانية بأني قد أخالف هذا المؤلف في كثير من الآراء التي عرضها في كتاب التصوف الاسلامي ، ولكني أتمنى أن يكون قدوة لسائر المؤلفين ، فما ينقصنا اليوم غير الابتكار ، وهو أول شرط في جودة التأليف .

قال الدكتور زكي مبارك في اعتماده على رأيه الجانح الى أبعد ما ترمي إليه الصوفية : (ان التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية ، والأساس أن يكمل الخلق ويسود الاخلاص بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به ، واطمأنت إليه في عالم المعاني وكذلك يتمثل التصوف في صور كثيرة ، فيكون في الحب ، ويكون في الولاء ويكون في السياسة ، حين تقوم على مبادىء تتصل بالروح والوجدان) وقد استعان بشواهد التصوف في الحب بقول جميل :

وانى لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقرت بلابلهْ

بلى ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آملهْ

وبالنظرة العجلى وبالحـول تنقضي

أواخـره ، لا نلتقـي وأوائلـه

وبشواهد من شعر قيس بن الملوح :

وأحبس عنك النفس والنفس حية"

بذكـراك والممشى إليـك قريب

مخافـة أن يسـعى الوشاة بظنـة

وأحرسـكم أن يستريبَ مريب

وقد استرسل في ايراد مثل هذه الشـواهد من شعر الشعراء للدلالة على روح التصوف العميقة في الأدب العربي ، ولكن عنـد قوم لا يعرفون عن التصوف شيئاً ، ولم يدر في خلدهم أن معانيهم وأغراضهم ستؤول إلى مخازن الصوفية ، وأنها ستتحول الى أوراد وأذكار في حلقات رجالها وأماكن انقطاعهم ... وربما يرى أن أبـا نواس ، أصدق في تصوفه من ابن الفارض ، لأنه يترجم عن احساس صادق ، وخوالج نفسية صادقـة ..

ويوغل أكثر فأكثر ، باحثاً عن التصـوف ، حتى في المذاهب السياسية فيرى أن أصحاب هتلر صوفيون ، وأن أنصار موسوليني أيضاً صوفيون . وان لهم أشباهاً في التاريخ الاسلامي ..

إن الدكتور المبارك أخذ الوجه المعاكس عند الغزالي الذي أعلن في المنقذ من الضلال : إن الشك عنده كان طريق اليقين ، ومن الشك البصير انتقل الى اليقين الأعمى ، فهو لا يرى دليلاً على الايمان الا خضوع القلب له ، فعلى الانسان المؤمن ، أن لا يبحث عن الايمـان بالطرق الأخرى ، ولا سيما طريق العقل والمنطق والبرهنة .

وهذا ، صاحب (التصوف الاسلامي) بدأ متصوفاً على الطريقة الشاذلية ، منذ كان طالباً في الأزهر ، وقد رآه شيوخه صالحاً للأستاذية بها ، فأضافوا اسمه الى قائمة الخلفاء ، ولكنه أخيراً رفضها، ولم ير فيها ما يروي عطشه ، وما يقنع عقله ، رغم اعجابه بالغزالي ..

ورغم هذا الارتداد العنيف أصبح يرى في كل شيء صوفية حتى في مغامرات عمر بن أبي ربيعة ، وجنون قيس بن الملوح ، ومجون أبي نواس ، وبكاء البحتري على المتوكل ..

ولا يتحرج أن يرى أصحاب هتلر ، وأنصار موسوليني ، على أتم الصدق في الصوفية ، وأخلصه وأوفاه ..

ولا أدري ؟ .. أهو بهذا يدعو الى الصوفية بطريق غير مباشر، أم أنه يهاجمها في منطق آخر ؟! بحيث لا يرى للصوفية شيئاً تتميز به أو أنه يجعلها حاوية لكل شيء .

نحن مع صاحب المقدمة في نشدان الابتكار ، ولكن ليس في التعتيم على الابتكار ، ونحن مع كل بحث جديد ، يفضي الى معلومات جديدة ، لا إلى تمييع المنطق والمعلومات ..

قال بعض الصوفيين بالحلول ، وبعضهم بالاتحاد ، وذلك عن الذات الآلهية ..

أما الدكتور زكي مبارك ، فقد قال بحلول التصوف ، حتى بالأفكار السياسية ، ووزعه في كل الاتجاهات العاطفية والوجدانية ، واستخرج من الحرائق العاطفية عند العشاق معاني صوفية لم تخطر على بال أحد قبله .

ولكن ، ماذا يقول الدكتور المبارك بأولئك الذين لم يجدوا في التصوف إلا ، البطالة ، والضلالة ، والجهالة ، !! ويقطب الدين

الشيرازي الذي وصفهم بالتيوس اللحيانية ، وبابن الجوزي ، الذي صور كل تصرفات الصوفيين من تلبيس ابليس !!

ماذا يقول لهؤلاء ، وهو يرى أن في أدبهم ما يفوق أدب المتنبي والبحتري ، وأبو تمام ، والجاحظ ، وغيرهم من أحجياء الأدب •

لقد حاول (الدكاترة) زكي مبارك أن يكون مجدداً ، وأن يتأثر بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد اقبال وعبد الحميد بن باديس برفض الصوفية ، لأنها من عوامل شيوع الذل ، أما هو فقد زاد عليهم حتى وجد في السياسة صوفية ، وبدون شيوع ذل ..

وقرأت لأحد الكتاب المعاصرين مقالاً في مجلة أدبية ، ظهر في هذا المقال تأثر صاحبه بفلسفة الدكتور زكي مبارك في شيوع الصوفية ومما قاله في هذا الكتاب[1] •

(إن الذات العلوية هي المحو ، وهي الطاقة الدافعة للحظة المطلقة ، لحظة الفارس ، والعاشق والشاعر والمخلص والعالم المرتقب الذي لا تحده الأزمان ، مهما تشرد الداعي ، أو أسر ، أو قتل ، فاللحظة الذاتية هذه ، هي لحظة لا تقاس بزمنيتها ، لأنها لحظة انفلات من قيد التسلسل ، ومن عجلات الزمن الأعجف) •

إن هذه العبارات تتفق جملة وتفصيلاً مع ما يراه الدكتور مبارك من سريان سنن التصوف في سائر الاتجاهات الشخصية ، ولكنها تختلف مع رأي الرئيس ابن سينا الذي ينزه جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، فهل الفارس والعاشق والشاعر جميعهم وراد !!

---

(١) المقال هو للدكتور محمد جبر ، وهو منشور في عدد أيلول سنة ١٩٨٥ من مجلة الثقافة الدمشقية ، وهو بعنوان ((السهروردي معلم حكمة الاشراق) .

وإذا كان الأمر كما يرى الدكتور زكي مبارك ، فكم هي عميقة صوفية حافظ الشيرازي[1] ، وسعدي الشيرازي .

يقول صاحب قصة الحضارة أن حافظ الشيرازي قد ارتدى ملابس الدراويش ، ونظم قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والنساء والغناء ، فيا لله ما أمجد هذه الصوفية وما أنبلها ..

إن حافظ الشيرازي وأمثاله ينطبق عليهم ما تحدث به أبو حامد الغزالي في احياء علوم الدين عن غرور الأدعياء والمتشبهين والمستغلين للمظاهر الصوفية .

* * *

---

(١) حافظ الشيرازي يقول : هل تعرف ما هو الحظ السعيد . انه الظفر بنظرة الى غادة هيفاء انه التماس صدقة منها في زقاقها وازدراء ابهة الملك ، ويرى أن الحرية ليست حلوة مثل حلاوة العبودية ، ويقول : فان سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل ، فاهجر عملك وقبل حبيبتك الآن ، اني لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ! .

ان هذا الحب الخالص المتناهي هو صورة واضحة عن حب رابعة العدوية ونسخة عنه الا انها هي تتوجه بحبها نحو الله وهذا تتوجه نحو المرأة .

توفيق الطويل .. ورحاب التصوف الاسلامي

توفيق الطويل .. ورحاب التصوف الاسلامي

في الفصل الخامس من كتاب (عالم المعرفة) الذي يصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت يشكل سلسلة ثقافية شهرية الكتاب السابع والثمانين الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٤٠٥ هجرية الموافق آذار ١٩٨٥ م للدكتور توفيق الطويل قرأنا بحثاً عنوانه في رحاب التصوف الاسلامي رأينا أن نقتطع منه بعض الفقرات تتميماً للفائدة واستكمالاً لحاجات الموضوع ..

وبعد أن عرض رأي ابن خلدون في المقدمة قال :

هكذا كان أهل السنّة ، المقبلون على العبادة ، والمنقطعون إلى الله المعرضون عن زخرف الدنيا وزينتها ، هم الذين سُموا في أول الأمر بالصوفية والمتصوفة وقوام التصوف ، سلوك يقوم على ضبط النفس ، وكبح جماحها ، ومجاهدة ميولها ، وصرفها بالارادة عن متع الدنيا ومباهجها ، وغايته تصفية النفس وتطهيرها من أدران الجسد، مع تأمل يؤثر الخلوة ، وتدبر في آيات الله حتى يغنى الصوفي عن نفسه ، ويبقى بالله ..

وبعد أن ذكر كيف كان التصوف في عهد النبي وصحابته ، قال: لكن التصوف قد مر بمراحل متعددة ، فكثرت مفاهيمه ، وان تضمنت

جميعها أخلاقيات مستمدة من الاسلام ، هي في الحقيقة قوام الشريعة الاسلامية وقد أدرك الصوفية ذلك ، فأقاموا تصوفهم على تربية الارادة لممارسة شاقة ، وأخلاقيات تقتضي مجاهدة النفس ، وترويضها على الاستخفاف بلذات الدنيا ومباهجها ، والسيطرة على الأهواء والشهوات والميول الفطرية والعواطف المكتسبة •• وأنشأوا علماً مكملاً لعلمي الفقه والكلام ، فالفقه يبحث في الأحكام الفرعية العملية •• والكلام يبحث في العقائد ويبرهن عليها بمنطق العقل ••

والعلوم الثلاثة مستمدة من القرآن والسنّة ، ولكل من الفقهاء والمتكلمين ، والصوفية والفلاسفة منهج في أمهات العقائد الاسلامية ويختلف أفراد كل طائفة بعضهم مع بعض ، ولكنهم متفقون في الانتهاء إلى الاسلام والانتماء إلى تعاليمه ، وهم يجتهدون في فهمه وللمخطىء منهم أجر" ، وللمصيب أجران ، وما دامت محاولاتهم تجري في ظل الاسلام فمن الضلال التسرع باتهام أحد بالإلحاد ••

وهنا أورد صاحب الكتاب تعليقاً للشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق على مادة التصوف في دائرة المعارف الاسلامية ، وهذا التعليق لا يخرج عما مر معنا في هذا الكتاب على ألسنة مؤرخي التصوف ولذلك أهملناه •

وتحدث صاحب الكتاب عن أدوار التصوف فقال :

بدأ هذا خاصة في مدرسة في الكوفة ، وأخرى في البصرة •• للنفس والجسد ، وبدأ هذا منذ القرنين الأولين للهجرة ، وكان ذلك تشبهاً بحياة الرسول والصحابة والتابعين ومن اقتفى أثرهم •• وقال :

بدأ هذا خاصة في مدرسة في الكوفة ، وأخرى في البصرة ••
فالحسن البصري ــ كما يقول صاحب الكتاب ــ كان أوضح مثال

للحياة الروحية في عصره بما اتسم به من زهد ، واعراض عن الدنيا، واقبـال على الآخرة توفي سنة ١١٠ هجرية[١] .

ورابعة العدوية المتوفاة سنة ١٨٥ هجرية أضافت عنصراً جديداً، هو حب الله ، لا طمعاً في الجنة ، ولا خوفاً من النار ..

ومن حقي هنا كباحث أعالج موضوع التصوف أن أقول : لا أعرف كيف قبل المتصوفون منها هذا (العنصر الجديد) المخالف للقرآن الذي يقول : (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) وكل آيات القرآن قامت على الترغيب والترهيب فإذا كان المتصوف لا يطلب الجنة ، ولا يخشى من النار ، فما الغاية من تصوفه ، وما هي نتائج هذا التصوف، وإلى ماذا يؤدي حب الله ؟ إذا كان الأمر كذلك ؟! وليس بعد الحياة الدنيا إلا الجنة والنار ..

وأشار صاحب الكتاب الى الاتجاه بالتصوف بعد ذلك فقال :

واتجه التصوف بعد ذلك الى دراسة النفس ، فتحدث الصوفية عن الحب الإلهي ، وبدأ هذا عند ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية مؤسس التصوف النظري ، وأبي يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦٠ هجرية صاحب نظرية الفناء التي أدت إلى القول بنظرية الاتحاد، اتحاد الناسوت باللاهوت أي الطبيعة الانسانيـة بالطبيعة الآلهيـة والحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية صاحب نظرية الحلول ، حلـول الله في مخلوقاته ، حتى قال ما في الجبة إلا الله ..

ثم قال : وكان من كبار صوفية القرن الثالث الهجري ، الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هجرية ، وكان يؤثر الصحو على السكر ..

والمحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ هجرية ، والتستري المتوفى سـنة ٢٧٣ هجرية .

وبهذا كان القرن الثالث والرابع للهجرة العصر الذهبي للتصوف الاسلامي وقد تأسست فيهما مذاهب التصوف ، وكثر شيوخه ..

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري ، ظهرت الطرق الصوفية وفيها يلتف مريدون حول الشيخ يرشدهم في سلوك الطريق إلى الله.

ثم تطورت في القرنين ، الثالث والرابع للهجرة ، فأصبحت دراسة لبواطن القلوب ، وأسرار النفوس ..

وأصبحت في القرن الخامس طريقاً الى المعرفة ، عن طريق (الذوق) الكشف ، لا البرهان ، وأداة لتحقيق السعادة ..

فبدأ التصوف على خلاف علم الكلام ، بعد أن كان قائماً بينه وبين الفقه ..

وكان الغزالي أظهر صوفية القرن الخامس المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية الموافق ١١١١ م وعلى يديه سيطر التصوف على الحياة الروحية في الاسلام ، بعد أن عزف عنه الكثيرون ، بل عدوه مروقاً ، أو خروجاً على تعاليم الاسلام ، إذ كان تصوفه سنياً ، يقوم على تعاليم الكتاب والسنّة ، وينفر من مناهج العقل التي اتبعها الفلاسفة والمتكلمون .. كان التصوف مجرد طريقة للعبادة والخلوة والتقرب إلى الله ، ولكنه كان على يديه إلى جانب هذا طريقا إلى المعرفة اليقينية ، عن طريق الكشف الصوفي الذي يتحقق بعد تصفية النفس، وتجريدها من علائق البدن وسبيلاً الى السعادة الحقيقية ، وقد رحب بذلك أهل السنّة.

وفي كتابه (المنقذ من الضلال) عرض سيرة حياته العقلية والروحية ، وأبان أنه حين وقع في حيرة من الشك درس علوم عصره فكان علمُ الكلام عنده غير وافٍ بمقصوده ، ولا لدائه الذي يشكوه شافياً ، ودرس الفلسفة ، فلم يجد فيها ما تصبو إليه نفسه من كشف

للحقيقة ، ومعرفة لليقين ، ووجد الطريق السليم إلى ادراكها التصوف الذي يعتمد على القلب في ادراكه للحقائق الآلهية ، بالذوق والكشف دون البرهان العقلي ... ومن هنا تكون المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية .. وهذه لا تكون معرفة العوام ولا المتكلمين، ولا الفلاسفة بل هي المعرفة التي يتوصل إليها الصوفية بعد تصفية النفس ، وتكون إلهاماً ، ونفثاً في الروع ، لا يدري العبد كيف حصل له ولا من أين جاء إليه ..) .

وهنا تتوقف قليلاً عن المتابعة في حديث الباحث (الطويل) لنقول : إن نظرية الغزالي هذه في المعرفة الألهامية ، المنفوثة في الروع مستلهمة من دعوة السيد المسيح إلى الحب ، دون الركون الى بواعث أخرى ، لأن الحب عملية لا تحتاج إلى براهين عقلية ، لأنها عطاء" ، وليست أخذاً ، وهي لا تقبل المناقشة والجدل مثل بقية العلوم ، فهي هواجس من القلب وتتحكم بالقلب ، راضياً بها ، ومستسلماً لها ..

وهكذا نظرية الغزالي بالمعرفة الصوفية ، فهي ليست علماً ولا فلسفة كلام ، وانما هي الهام" في القلب ، ونفث في الروع ، لا يستخدم فيها اللسان ، ولا يتحكم فيها الجنان ..

وكما عطل السيد المسيح كل الاحساسات العقلية ، ورفض أن تكون دليلاً على غير الحب ، أو مشغولة بغيره من أساليب التفكير ، كذلك فان الامام الغزالي ، عطل كل هذه الاحساسات ، ورفض أن تكون دليلة على أية معرفة من المعارف الصوفية ، ولهذا هاجم الفلسفة التي تستند على العقل في تقرير قضاياها ، مشيراً إلى أن الجهة التي تستند إليها عاجزة عن القيام بمهمتها ، ولا سبيل الى سكون النفس ، إلا بالتسليم والقبول للالهامات القلبية فهي وحدها الكفيلة بتأمين راحة الانسان وتحصيل المعرفة اليقينية عنده ...

والايمان المجرد عند السيد المسيح ، ينطبق تماماً على الايمان المجرد عند الحجة الغزالي ، وهو بالفعل أقرب سبيل الى نشدان السعادة في الحياة ، السعادة المؤدية الى الطمأنينة النفسية ..

ويرى صاحب الكتاب الأستاذ الطويل : أن التصوف في القرن السادس وما بعده ظهر فلسفياً عند السهروردي المقتول سنة ٥٨٦ هجرية في حكمته الاشراقية ، وقولاً يدعو الى وحدة الوجود عند ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هجرية ، وقولاً في الوحدة المطلقة عند ابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٥ هجرية وقولاً في وحدة الشهود عند ابن الفارض ..

ويرى : أن شعراء الفرس ، فريد الدين العطار المتوفى سنة ٦٢٧ هجرية وجلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧١ هجرية ساروا في شعرهم على ذلك النهج ، فكان من تأثير ذلك نشوء النظريات الفلسفية في تفسير الوجود والمعرفة ..

وبعدها تدهور التصوف وأصبح منذ القرن السابع مجرد ترديد لتعاليم السلف وأقوالهم ، ومال شيوخ الطرق بعد ذلك إلى السيطرة على عقول السذج من العامة والتزلف الى أصحاب النفوذ .

ويرى الأستاذ الطويل : أن المعارف عند الصوفية لها مصدران :

١ ــ الحس ، وهو أدنى مراتب المعرفة ..

٢ ــ العقل ، وهو يزودنا باستدلالاته المنطقية ، إلا أن له حدوداً لا يتجاوزها ، يبقى وراء معارف الحس والعقل ، نوع آخر من المعارف هو الادراك الحدسي ، هذا النوع ، وهو وحي مع الأنبياء وإلهام مع الأولياء ، ومع بعض الناس ، نموذج من الرؤيا الصادقة ..

واختلف المتصوفون في علمه وتعليمه ، فأهل السنّة يستمدونه من الكتاب والسنة •• والمتكلمون يستمدونه من الفقه ، والفلاسفة يستمدونه من العقل ••

وللقضاء على هذا الخلاف ، أعرضوا عن هذه المصادر الثلاثة واتفقوا على مصدر منفرد ، هو طريق الحدس ، لأن العلم اليقيني لا يستفاد إلا منه ، وهو ما يسمونه الذوق ، أو الكشف •

وهكذا أصبح التصوف ، يهدف إلى تذوق العقيدة عن طريق القلب لا عن طريق البحث ، فتذوقها يكون بنورٍ يشرق في النفس من مصدر يقوم وراء العقل •

وعرّف الغزالي (العلم اليقيني) فقال : انه العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً ، لا يبقى معه ريب ، ولا يقاربه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ أن يكون مقارناً لليقين ، مقارنة ، لو تحدى باظهار بطلانه ، من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، ولم يورث ذلك شكاً ، أو انكاراً ••• ومثل هذا العلم ، لا يجيء عن طريق حسي ، ولا عقلي ، فالعلم الذي يجيء عن طريق الحس ظني ، لا يرتقي قط إلى مرتبة اليقين •

وضرب على ذلك مثلاً العين التي ترى الظل واقفاً وهو يتحرك وتنظر الكوكب صغيراً ، وهو برأي العلم أكبر من الأرض ••

وينتقل الغزالي من اثارة الشك في المعرفة الحسية والعقلية ، الى القول بالحدس الباطني أداة لادراك العلم اليقيني ، وبه تدرك الأوليات العقلية ، التي تجيء بنور يقذفه الله في الصدر ، بغير دليلٍ وترتيب كلام وهذا الحدس مقيد بالكتاب والسنّة بصورة أوضح عند الغزالي ، مما يبدو عليه الحال مع جمهرة الصوفية ، لأن منهم

من صرح بأن الشريعة لـم تحصل إلا للمحجوبين ، لأن الشريعة للمحجوبين والمعرفة الصوفية للمختارين .

وتعرض الأستاذ الطويل في كتابه لالتزام الصوفيين بالشرع ظاهراً موافقة للفقهاء ومخالفتهم لهم في طريقة فهم الشرع ومناهج تفسيره .. ومن هنا كانت (الثورة الروحية)[1] التي كشفت عن اختلافهم مع الفقهاء منذ المائتين من الهجرة في الفكر والمنهج والعاطفة، وبدأ الصراع بين الفقهاء والصوفية في النصف الثاني من القرن الثالث ، حين سيق إلى المحاكمة أمام قضاة بغداد ، ذو النون المصري، والحلاج ، والنوري ، وما تبع ذلك من اضطهادات في مصر والشام والعراق ، انتهت بمأساة الحلاج .

واستعرض رأي (نيكلسون) بسبب أقوالهم : إن رياء العارفين أفضل من اخلاص المريدين ..

وأشار إلى أن البسطامي كان يبشر بمذهب الحلاج في رفع التكاليف الدينية ، خلافاً لأحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هجرية الذي خاف على الاسلام من ثورة الصوفيين . وجاء أتباعه فكانوا أشد مقتاً للصوفية ، وبلغ هذا المقت للصوفية ذروته في محنة الصوفية، المعروفة بمحنة غلام الخليل المتوفى سنة ٢٦٢ هجرية ، وفيها اتهم نحو سبعين صوفياً ، بينهم الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هجرية شيخ الطائفة ببغداد ، وقد حوكموا وأدينوا ، وصدر حكم باعدامهم ، وان أفرج عنهم بعد ..

وكان ابن تيمية في القرن السابع الهجري من أشد خصوم الصوفية ، فقد هاجمهم في عدة رسائل أبان فيها انحرافاتهم حتى أنه

---

(١) يبدو أن أبا العلا عفيفي أخذ اسم كتابه من هذه العبارة .

أصدر فتوى عام ٧٢٦ هجرية أعلن فيهـا تحريم زيارة الأضرحـة والتوسل بالأولياء مع تكفير الصوفية ، وقد اتهم بعضهم ابن عربي وابن الفارض بتعاطي الحشيش ..

وأدى الخلاف بين الصوفية والفقهاء والمتكلمين إلى أن يقولوا إن حياة الصوفية مفضية لا محالة الى الزيغ ، لأنهم يقولون إن النية مقدمة العمل ، وان السنة خير من الفرض ، وان الطاعة خير العبادة، وكان الخوارج أسبق إلى اعلان العداوة للصوفية وهذا بادٍ فيما وقع للحسن البصري .

الخلافات فيما هو واضح من بحث الصوفية في كتاب الأسـتاذ الطويل تشعبت كثيراً ، فقد اختلف الجنيد مـع البسطامي فالأول يفضل حالة الصحو والثاني حالة السكر .

وأبو منصور الحلاج صاحب نظرية الحلول ، فيقال أنه أخـذ نظريته عن ثنائية الطبيعة الانسانية عـن المسيحية ورفض الفارابي نظريتي الاتحاد والحلول معاً ، وقال بنظرية الاتصال ويعتبر الصوفية الاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود عند الصوفية هو امتزاج" بين الناسوت واللاهوت فتتلاشى (أنا) في (أنت) تماماً ولا يتميز الخالق من المخلوق .

وتعرض التصوف لحملات العقليين ، الذين لا يعترفون بغير العقل منهجاً لاكتشاف المعرفة الصحيحة ، وهم من أجل هذا ينكرون الطرق التي يستخدمها الصوفية في تصفية النفس توصلا الى الحقيقة ولكن الصوفية لم يقفوا مكتوفي الأيدي .. أمام تنكر هؤلاء العقليين وانما بادلوهم انكاراً بانكار ، فاستخفوا بالعقـل الذي يعتز بـه العقليون طريقاً للمعرفة ، وأبانوا عن تضليله لأهله في قيادتهم إلى معرفة الله ...

أنكر الغزالي العقل طريقاً إلى المعرفة في حملته على الفلسفة لما فيها من اثبات افلاس العقل ، ليمهد لعقيدة (الذوق) والكشف عن طريق القلب الذي هو وحده يدرك الحقائق الآلهية وقد قال في (المنقذ من الضلال) : إن من لا يقف على منتهى علم ، لا يقف على فساد .

والغزالي ألزم الفلاسفة سمة الكفر والالحاد لبعدهم عن الحق وتكلم الأستاذ الطويل في كتابه عن فرقة الملامتية الصوفية[1] التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث وقال : إن تعاليم الدين قد تدهورت على يد المتأخرين منهم ووصفهم أنه أشيع عنهم العبث بأمور الدين ، والمباهاة بالفجور والمعاصي ، وقال : قد كان الأصل في مذهبهم كتمان الحسنات وتعمد المخالفة والظهور في الناس بالمظاهر التي تثير لومهم وتجلب عليهم السخط والازدراء ، وكان هذا في نظر الملامتية طريقاً من طرق تقويم النفس وتأديبها وتعريفها وزرها .

ويرى (الطويل) أن وجود الشبه بين بعض مظاهر التصوف النظرية والعملية في الاسلام ، وما ورد في بعض الكتب الدينية ، الهندية ، من عقائد وأدعية وأناشيد ، وما يبدو في طرق العبادة والرياضة ، والتفكير والمعرفة عند فقراء الهنود ، وزهادهم ، هي التي جعلت بعضهم يردون التصوف إلى مصادر هندية .

---

(١) ماذا يقول مؤرخو الصوفية عن هذه الطريقة وما هي علاقتها بالعلم والصحابة والتابعين ؟؟ نشر هذه الطريقة في نيسابور أبو صالح، حمدون بن احمد بن عمارة القصار النيسابوري المتوفى سنة ٢٧١ هجرية وشيخ هذه الطريقة هو أبو محمد عبد الله بن منازل توفي بنيسابور سنة ٣٣٠ هجرية (راجع أسماء مشاهير الصوفية في هذا الكتاب) .

ويرى أن أبا الريحان البيروني المتوفى سنة ٩٦٢ هجرية من أدق المؤرخين الذين كتبوا عن الهند في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة) هذا الكتاب الذي كان مرجع المستشرقين الذين ردوا التصوف الاسلامي إلى أصول هندية ، ومن وجوه هذا التشابه القول بتناسخ الأرواح ، وما يترتب على ذلك من قول بالحلول ، ثم القول بالخلاص من الدنيا ، وطرق ذلك الخلاص ، وما يتحقق أثناء ذلك من معرفة .

ومنها اتحاد النفس بمعقولها ، مما يؤدي إلى القول بأن اقامة الشعائر الدينية ، وتأدية فروض العبادة ليستا السبيل إلى سعادة الانسان ، بل السعادة هي الذكر الدائم لاسم الله ، والتأمل المتصل في ذاته ، مما يؤدي إلى الاتحاد بالله والكون اللذين هما حقيقة واحدة (وهذه هي وحدة الوجود) .

إلا أن الدكتور الطويل يرى أن الاعتماد على كتاب البيروني في هذا المجال لا يعوّل عليه ، لأنه جاء بعد ظهور التصوف بزمن طويل ، إلا أنه لا ينكر أن بعض الأفكار الهندية كانت ذات أثر في متأخري الصوفية ، متوافقاً بذلك مع (فون كريمر) .

أما (ادور براون) وهو من أكبر الباحثين في تاريخ الفرس يرى أن البحث عسير جداً في ارجاع التصوف الاسلامي نشأة وتطوراً إلى مصدر فارسي اعتمادا على ما كان بين الفرس والعرب من صلات اجتماعية وثقافية ودينية في التاريخ القديم ، وعلى عكس ذلك فهو يرى أن لصوفية العرب أثراً كبيراً في صوفية الفرس ، وذكر من أصحاب هذا الأثر ابن عربي وعمر الفارض وأوحد الكرماني ، وعبد الرحمن جامي ، وغيرهم ..

وبعد أن استعرض الدكتور الطويل الانتماءات التي أشار إليها

المؤرخون ، والمصادر التي يردون إليها التصوف من يونانية ، ومسيحية وهندية وفارسية ، وبعد أن أشار الى الملامح والتعابير التي يستند عليها المؤرخون مثل جواب ابن عطاء لمن سأله : (لما كان هذا العلم قد شرف بنا ضننا به على غير الصوفية ، ولما لم نستعمل لغة الناس ، وضعنا له لغة خاصة بنا) وكقول داود الطائي : (اعطوني اليوم شراباً ، يقال له : شراب الأنس ، فاليوم عيد" اسلمت نفسي للابتهاج فيه) وكقول رابعة العدوية : (سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته) وغير ذلك فقد ختم بحثه قائلاً :

ضمت محاولات الفكر الاسلامي ، فقهاً ، وتصوفاً ، وفلسفة ، وكلاماً وكان التصوف حديث القلب والروح أكثر هذه المحاولات خصوبة واشراقاً وأعمقها أثراً في توجيه الحياة الروحية في الاسلام ، ومع تقديرنا البالغ لذلك كله ، لنا على التصوف تحفظات أهمها :

١ ـ إن مغالاة الصوفية في الدعوة إلى الزهد والتقشف والترغيب في حياة الحرمان من متع الدنيا ومباهجها حتى البريء منها ... دعوة تجاوزت كل تصور تقتضيه تعاليم الاسلام ، أو تستوجبه مقتضيات العصر ، ومن ذلك أن الغزالي كان يمتدح في (الأحياء) فضيلة الخمول ، والاسلام يتميز عن غيره من الأديان ، بأنه جمع بين الدنيا والآخرة في قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) أي لتستعين بما تكسبه على مطالب الحياة ، ولا تعش كبعض الزهاد الذين يعيشون عالة على غيرهم ، وقد أباح الاسلام من متع الدنيا ، ما لا يتعارض مع تعاليم الكتاب ، قال تعالى : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) (الأعراف) ، وقال تعالى : (وكلوا مما رزقكم الله

حلالاً طيباً ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) (المائدة) ، ومثل هذا في آيات الله وأحاديث رسوله كثيرة ..

وحث الاسلام على العمل ، ونفر من التكاسل والتواكل ، قال تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله) (الجمعة) ، وفي الأثر : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ...

وروي : أن إمرأة عثمان بن مظعون ، دخلت يوماً على نساء النبي ، فرأينها سيئة الحال ، فقلن لها : مالك ؟! فما في قريش رجل أغنى من بعلك ، قالت : ما لنا منه شيء ، أما ليله فقائم ، وأما نهاره فصائم ، فدخلن على النبي ، فذكرن له ، فلقيه ، فقال : يا عثمان ، أما لك بي أسوة ، فقال : بأبي أنت وأمي ، وما ذاك ؟ قال : تصوم النهار ، وتقوم الليل ، قال : إني لأفعل ، قال (ص) لا تفعل : إن لعينيك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً ، وإن لجسدك عليك حقاً ، فصل ، ونم ، وصم ، وافطر ... ومثل هذه الوقائع كثيرة ..

وتبعاً لما مر في بحث الدكتور الطويل عن السهروردي ، وفلسفته وآرائه ، نجد من المفيد أن تثبت رأي الامام الأكبر الدكتور محمد عبد الرحمن بيطار ، شيخ الجامع الأزهر ، نقلاً عن كتابه الفلسفة اليونانية ، الصادر عن المكتبة والمطبعة العصرية في صيدا سنة ١٤٠١ هجرية الموافق ١٩٨١ م قال :

وإذا ضممنا إلى هذه المذاهب الثلاثة ، وجهة نظر أصحاب النزعة التصوفية ، جدّ نوع رابع من أنواع المعرفة له منهجه المتميز كذلك عن مناهج الأنواع الثلاثة المتقدمة ، وهي المعرفة الأشراقية التي لا يتحدد طريقها في العقل حتى تكون عقلية ، ولا في الحس حتى تكون تجريبية ، ولا في المجموع منها حتى تكون نقدية ، وانما يتحدد

طريقها في الفيض الآلهي والاشراقية النفسية ، التي يتبعها الهامات بالمعارف ، وفيض لها من أعلى ، وكما وجد لكل مذهب من المذاهب المتقدمة ، أنصار" وخصوم ، كذلك وجد لهذا النوع من المعرفة الاشراقية أنصار وخصوم ، فمن مثبت له ، مؤمن بامكانه عن طريق تصفية الروح وتبرئة النفس من علائقها المادية ، وشوائب اللذائذ والمشتهيات ، حتى تطهر وتصفو وتصبح مستعدة ، لأن تتلقى فيضاً آلهياً من المعارف يُفاض عليها متى استعدت لأن تتلقاه ، ومتى صارت قمينة به ، ومؤهلة لاكتسابه •• ومن منكر لامكان حصول المعرفة عن هذا الطريق معتقد لضرورة تقيد العقل بمقدماته الضرورية ، والحس بأسبابه وآلاته لتحصيل أي نوع من أنواع المعارف ••

ومهما يكن فان أنصار النزعة الصوفية ، يتمسكون بامكان المعرفة الاشراقية ، ويرون : أن المنكر لها كالأعمى الذي ينكر ضوء الشمس لأنه لا يراها ، والأصم الذي ينكر الأصوات لأنه لا يسمعها ، وكأنهم يتمثلون بقول الشاعر :

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وإلى هذا المعنى نفسه يشير الرئيس ابن سينا الفيلسوف الاسلامي وصاحب النزعة الاشراقية في المعرفة بقوله :(جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد وأن يدركه من الناس إلا الواحد بعد الواحد) انتهى •••

أما الدكتور حسين مروه في كتابه (النزعات المادية) وبعد بحث مستفيض متعدد الجوانب في أسباب نشوء التصوف والظروف السياسية والاجتماعية والتداخل الشعوبي ثقافياً ودينياً واجتماعياً فقد انتهى به القول إلى أن التصوف كان يتبنى ثورية رافضة متحدية

ليس للنظم الاجتماعية والتصرفات السياسية وحسب ، وانما للظواهر الفقهية التي أخذت تفرض سيطرتها على العقول والأذهان • قال :

غير أن ثورية الرفض والتحدي هذه بقيت منغلقة على عالمها في أبراج المستحيل حاملة في ذاتها شهادة قصورها وعجزها عن التحول إلى ثورية فعلية فعالة أي الى قوة مادية تحقق معنى رفضها الثوري ، إنه العجز الذاتي الكامن في أساس النظرية والتجربة المستحيلة كليهما، سواء" تحددت فيهما علاقة الانسان مع الله بطريق (الكشف) المباشر دون وساطة ، أم بطريق الاشراقات المتعددة الوسائط ، وقد أوضحنا قبل مصدر هذا العجز الذاتي الذي يدفع ثورية الفكر الصوفي كله بكونها ثورية ولدت ميتة ولكن رغم ذلك تبقى هناك قضية تاريخية لا شك فيها ، هي أن هذا الفكر حمل وحده في تاريخ الصراع الاجتماعي داخل المجتمع العربي الأسلامي علامة الانتفاض والتمرد على الأيديولوجية الرسمية اللاهوتية التي لم يستطع الفكر الفلسفي العقلاني أن ينتفض عليها ويتمرد إلا جزئياً وبطريقة ملتوية شديدة الحذر لأنه بقي مشدوداً الى اللاهوتية بعدد من الخيوط الظاهرة والخفية ، غير أن ذلك لم يدفع عنه • ولا مرة أذى الأرهاب والاضطهاد من حماة اللاهوتية هذه •

من خلال ما أوردناه من آراء وتصورات حول ظواهر التصوف المتغيرة والمتطورة لم يستطع أن يثبت وجوده بحيث يكون هو الفاعل وانما كانت كل فاعلياته حلقات من التجارب المختلفة باءت كلها بالفشل فلم يستطع التصوف أن يكون علماً ثابتاً ولا حركة سياسية منتصرة ولا طريقة روحية ذات شأن لاهوتي كبير ولا مذهباً فقهياً اخذ طريقه بين المذاهب ، وانما بقي أثرا يتحدث عنه الكتاب والمؤرخون ويحارون في اسبابه ومقاصده وشؤونه .

أغاليط صُوفيّة .. أم تصَوّف حَقيقي !!

أغاليط صُوفيّة.. أم تصَوّف حَقيقي !!

فيما مرّ من صفحات هذا الكتاب ، وقفنا على آراء متباينة بين مؤلف ومؤلف ، وكاتب وكاتب ، وقد بالغ أصحاب هذه الآراء فيها وتوسعوا ، وتعمقوا ، وأكثروا من التخريجات والتمحلات حتى أصبح الوقوف على الملتمسات الصحيحة فيها من الأمور الصعبة والمحاولات المبذولة للكشف عن أسرارها وحقائقها زادتها غموضاً والانصراف إلى حلها زادها تعقيداً ..

حاول الباحثون أن يجدوا لها في أغوار التاريخ جذوراً ولكنهم باؤوا بما يشبه الفشل ، وحاولوا ربطها بعقائد قديمة ولكنهم لم يفلحوا ..

وإذا كان ، حتى معتنقوها ، غم عليهم أمرها ، فمن أين لنا أن نستجليه عند غيرهم ، وكيف نطلب معرفتها عن غير طريقهم !!

التصوف ، هذا الاسم لم يكن معروفاً قبل الاسلام كما يزعم بعضهم ، ولكن المؤرخين الذين وجدوا في مريديه ، وفي بعض مريديه ، ظواهر ، تشبه الى حد ما ، ما كان معروفاً عند فقراء الهند ، فقالوا: انه مستمد من هناك ، ورأوا في تفكيرهم وسلوكياتهم ما يتقارب مع تفكير وسلوكيات (بوذا) وأشياعه فقالوا : فارسي المنتمى ، ورأوا فيه ما يشبه زهد الرهبان فقالوا : مسيحي المأخذ ..

وهو على ما أرى ، وبعد أن تابعت العديد من الآراء بقي ينفرد بذاتيته الخاصة ، لم يلتحق بأي نسب غريب ولا صلة له بمن قبله ، فهو ابن ذاته ، وابن ظروفه ، وقد تمخض به رجاله في ظل الشريعة الاسلامية ، وفي حقبة معينة من الزمن ، قبلها لم نجد له في التاريخ اسماً ولا رسماً .. هذه الحقبة من الزمن هي التي تبدأ مع بداية القرن الثاني الهجري ، والتصوف ظهر بأشخاصه الأوائل ، ولكن بمنطقة معينة من العالم هي منطقة العراقين العربي والعجمي ، وبدأ بصفات معينة هي الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، مما أوجد شبهاً بين نزعتها الاسلامية وبين نزعات قائمة في أساس العقائد السابقة ..

وعندما أصبح التصوف حالة مقبولة عند الناس ، قال بعضهم: هو التشبه بأحوال الرسول والصحابة ، وذلك حتى لا يختلف به الناس ..

وبقي التصوف فترة من الزمن ، لا يرتبط بفكر ولا بفلسفة ، وهو تصرف قائم على اختيار شخصي لنمط معين من الحياة ، لا يجد مادحين ، ولا قادحين ، ولكنه عندما لجأ إليه رجال يفلسفونه ، ويحببون مزاياه ، تنبه إليه الناس ، فانصرفوا اليه ..

وهنا لا بد من القول : إن انقسام المسلمين ، إلى معسكرين . سني وشيعي ، جعل الفريق الأول السني يرضى بنسبته الى الرسول (ص) والصحابة رضي الله عنهم ، وجعل الفريق الثاني يحصر نسبته بعلي الرضا وعلي بن أبي طالب عليهما السلام ، ومع هذا الخلاف ، ذهب كل فريق إلى ما يرضيه ، لا إلى ما يرضي الحقيقة ..

ومن هذا المنطلق ، نلاحظ : أن التصوف السني ، أخذ بمتابعة الشريعة ، وهو التصوف الذي امتدحه صاحب الرسالة القشيرية ..

وإن التصوف الشيعي ، هو الذي يرى ، أن خلف الشريعة معاني ينبغي معرفتها ، والبحث عنها ، وهو التصوف الذي هاجمه صاحب الرسالة القشيرية .

ونلاحظ أن الاقبال على التصوف عند الشيعة ، خفف من الاقبال عليه عند غيرهم .. وعندما أصبح التصوف زهداً وتعبداً عند فريق من المسلمين ، صار فلسفة وعرفاناً عند فريق آخر منهم ..

وهكذا أصبح التصوف تتحكم به رغبات متحيزة ، أكثر مما تتحكم به أصول علمية ومبادىء قواعدية ، وانصرف الناس عن كونه علماً وفلسفة أو طريقة ذات خصائص مثالية ، إلى جعله حركة سياسية ، وإلا فماذا يعني اعراض الصفويين عنه ، ولجوء القزلباش إليه ، وعزل الأدمغة عنه ، وشد البطون إليه ..

وقد أجمع كثير من المؤرخين ، على أن العصور التي حكم فيها المماليك والعثمانيون ، قد اقتصر اهتمامها بالنسبة إلى الصوفية على عمارة المساجد والمدارس والتكايا لتكون ملاجىء جماعية لا مؤسسات لهيئة اجتماعية ..

وكانت العلوم التي تدرس في هذه الأمكنة ، والفكر الذي كانت تعمل على نشره مثقلاً بالجمود الفقهي والشعوذة والخرافات ..

وانتشرت تكايا التصوف ، وخوانقه وطرقه ، وتقاطر اليها الناس على حين انحسر التصوف الفلسفي ، ليفسح المجال لصوفية التكايا من أرباب الطرق المستحدثة ، وهم طائفة من الحمقى والمغلفين الذين لا يعرفون شيئاً عن تصفية الروح وتبرئة النفس من علائقها المادية ، والذين ليس لديهم أي استعداد لتلقي الفيض الآلهي .

* * *

التصوّف قديمه وحديثه
اسمٌ واحِد لمعَانٍ مختلفة

التصوّف قديمه وحديثه
اسمٌ واحدٌ لمعانٍ مختلفة

مما نقلناه ، وأثبتناه في هذا الكتاب من مقولات قديمة وحديثة، لوحظ أن جميع الذين كتبوا عن التصوف ، قد اتفقوا عليه لفظاً ، واختلفوا فيه معنى ، وشاء بعضهم أن يذهب بعيداً وشاء الآخر أن يذهب قريباً ، ولكن (صنعاء) التصوف بقيت عصية على المسافرين ولو أطالوا السفر ..

لا أجدني مخطئاً إذا قلت : إن الذي شوش على الباحثين في الصوفية ، دخول الآراء الأجنبية فيها ، لا سيما آراء المستشرقين والمهتمين بالتاريخ الاسلامي من غير العرب المسلمين ..

وليس القول ، بارجاع التصوف إلى الهند ، أو إلى فارس ، أو الى اليونان ، إلا من قبيل تمويه التاريخ بما أوحته فرضيات أو انعكاسات أوجه التشابه بين تطبيقات وممارسات طقوسية في عبادات قدامى الهنود (الفقراء) وبين رجال الحركة الصوفية في بدايتها عند المسلمين الذين يدعون بـ (الزهاد) ..

وحين أخذت الصوفية ، وجهاً عرفانياً ، يعمل به الفكر غوصاً الى ما وراء الدلالة اللفظية الظاهرة .. أوحت به أوجه التشابه بين المدارك الفلسفية عند اليونان ، قيل بمصدريتها اليونانية وقالوا :

مشتقة من (سوفيا) أو (سوفيتس) كي يرجعوا حتى بتسميتها الى اليونان ، ولو كانت هذه الألفاظ مجهولة عند قدماء الصوفيين من المسلمين العرب ..

وحين أخذت معنى تجريدياً ، أوحت به أوجه التشابه بين (النرفانا) والصفاء الروحي الخالص ، قالوا : فارسية المصدر ، واعتمدوا في ذلك على ما بين الفرس والعرب من صلات ثقافية واجتماعية ودينية ..

والذي لا ريب فيه ، أن كل هذه الفرضيات ليس لها ما يجعلها شيئاً مقنعاً عند أهل التمحيص .. وحتى أن الذين يردونها إلى مصادر عربية جاهلية ، أو اسلامية قبل القرن الثاني للهجرة فهم أيضاً في تصورات خيالهم يسبحون .

ليس للصوفية معنى غير ما أراده ابراهيم بن الأدهم لنفسه حين صادف حالة تكاد تكون شاذة ، واختار في تلك الحالة حياة راضية مرضية ، ولم يكن يحلم أو يتصور ، أن حالته هذه ، ستتحول إلى مدرسة أو الى حركة ، أو إلى طريقة ، أو إلى علم يؤخذ به ، ولكن عندما كثر المتشبهون به ، أعطيت اسم حركة صوفية ، تقوم على الزهد والعبادة والتنسك ، وحتى لا تكون خالية من الجذور الاسلامية ، جعلوا لها سبباً يتصل بالرسول (ص) والصحابة ، فهم أزهد الناس ، وأعبد الناس ، وهذا السبب ضاعف من اقبال الناس عليها ، لأن الذين يريدون أن يتشبهوا بالرسول والصحابة كثيرون ، والذين تغريهم متارف الحياة الأخرى يعرضون بأنفسهم عن شوائب اللذة والشهوات في هذه الدنيا ... ولكن ماذا نقول برابعة العدوية التي لم تطمع بغير لذة العشق في الحياة ، عشقاً مجرداً ، لا حباً في الجنة ، ولا خوفاً من النار وقد أخذ بعضهم على الصوفية لفظة (العشق)

لأنها تعني الحنين الى الملامسة الحسية ، وهذا مرغوب عند ذوات الأبدان فقط ..

وحين أصبح للتصوف معنى روحياً ومعنى فكرياً معاً ، أخذت تتجاذبه الأطراف الاسلامية ، فالذين يردونه للرسول والصحابة لا يمرون به على غيرهم ، وهنا يبطل دور أئمة الشيعة ، فظهر من يقول بنسبته الى الامام علي الرضا الامام الثامن ..

وإذا صحت هذه النسبة إلى الرضا ، فمعناه أن آباءه وأجداده كانوا صوفيين ، لأن الرضا لا يؤسس شيئاً ليس له أساس عند آبائه وأجداده وهم الذين يتشبثون بتراث جدهم الرسول (ص) ، وبهذا فان التصوف يستقطب جمهور الشيعة.. ولكن غير الشيعة قالوا أولاً بنسبة التصوف إلى الرسول والصحابة والتابعين ، دون تحديد أو تعيين شخص ، فاختلفت الأمور ، وتضاربت الأقوال، وتشعبت الآراء. ومن هنا رأينا القشيري يعرض بالتصوف المتشيع ورأينا ابن خلدون يقذف بالأئمة ، ورأينا ابن الجوزي يهاجم الصوفية بعنف ويعتبر ذلك فيهم من تلبيسات ابليس، وقد تابعه فيما بعد قطب الدين الشيرازي..

وانشطر الصوفيون ، فانشطر التصوف ، وتحول من العبادة والنسك والزهد ، إلى العلم ، والفكر ، والتأمل ، ثم الى معارضة الفقه والفلسفة ، ثم إلى طرائق مختلفة الصور والأشكال في الممارسات التصوفية ، حتى خرجت في بعضها الى الشذوذ في الأقوال والأفعال.

وهوجمت الصوفية من أبنائها ، ومن غير أبنائها ، وتصدى لها الفقهاء ، وحوكم الكثير من أبنائها على أيديهم ، واتهم الكثير منهم بالزندقة ، ولكن كل هذا لم يحل دون بقائها بشكل أو بآخر ..

وما رأيت ولا قرأت سخرية بالصوفية والتصوف ابلغ من سخرية الدكتور زكي مبارك ، الذي رأى ، حتى بالشعراء العاطفيين عشاق

الجنس ، متصوفة ، وحتى برجال الأحزاب عند موسوليني وهتلر متصوفة وهذا من أغرب وأطرف ما قرأت في هذا الموضوع ..

يقولون ، إن الشيعة أعرضت عن التصوف لأن المتصوفة من غيرهم ، لا يقولون بنسبتها الى أئمتهم ، ولأنها لا تقول بعصمة الأئمة، ولأنها تتجاوزهم الى العلاقة بالله مباشرة بدون واسطة وهذا معناه ، انكار أنهم أصحاب شفاعة ، وفتوى ابن تيمية ضد التشفع بالأنبياء والأولياء غايتها التحول عن احترام الأئمة وعن اعتبارهم أصحاب شفاعة أو عصمة ، وهذا يختلف بطبيعته مع القائلين بالانقطاع الى الله للقرب منه بدون واسطة ويختلف أيضاً مع الذين يقولون بوحدة الوجود ، أو الحلول أو الاتحاد ..

وجاء ابن عربي والغزالي ، وكل منهما استعان بما عنده من قوة فكر وحجة منطقية ، واستطاعا أن يحدثا نافذة يطل منها النور على التصوف ، إلا أنهما لم يسلما من طعن الطاعنين وزرايات الزارين ، ولم يغن عنهما ما في فصوص الحكم ، واحياء علوم الدين من حجج وعلوم وبراهين ..

ونلاحظ أن مفكري العصر المتأخر ، حملوا على التصوف واعتبروه سبباً في تأخر أحوال المسلمين ، لأنه يدعو إلى الكسل والتواكل وصرف الطاقة بغير محلها ، خلافاً لما يدعو إليه الكتاب ، وتدعو إليه السنّة وهو رأي يؤمن به كل من عنده تقدير لعواقب الأمور ، وينبغي أن ينظر إليه أنه يشكل نوعاً من التآمر على الشريعة الاسلامية ، ولهذا نلاحظ أنه عندما تحول إلى منظمات ، كان يرمي ، إما إلى حماية السلطة أو إلى انتزاع السلطة ، ويكفي للدلالة على ذلك حركة القزلباش ومنظمتها التي كانت تتلاعب بالعرش العثماني..

ولم نعلم أن التصوف في كل ظروفه وأحواله ، كان في تعاليمه

يهدف إلى بناء مجتمع متطور اجتماعياً ، أو كان أداة للتصدي ضد أعداء الأمة الخارجيين ، فلم نعلم أنهم هبوا لمقاومة الصليبيين عندما كانوا يحتلون بيت المقدس ، ولم نعلم أنهم دعوا إلى مقاومة الروم يوم كانت مطامعهم تبتلع الدنيا العربية والاسلامية ..

وليس غريباً أن يكون المستشرقون ، قد صرفوا اهتماماتهم لاثارة موضوع الصوفية ، وربطها بعقائد أخرى ، لتكون هذه الاهتمامات بها صارفة أيضاً للكثير من مفكري العرب والمسلمين عن قضاياهم الأخرى ، وهو أسلوب من الأساليب التي تجعل الشعوب تتلهى بتوافه الأمور عن عظمائها ..

وربما يجد القارىء أني أكثرت من الأخذ في هذا الكتاب من الكتب الصادرة بهذا الموضوع والأبحاث التي تناولته ، وكان كل ذلك ليقف القارىء على ما يعتور هذا الموضوع الشائك من خلافات جذرية في الرأي والتأويل والتفسير الاستنتاجي ، الأمر الذي يؤدي في نتائجه الى رفض التصوف كحركة منتجة ذات فعالية مؤثرة في المجتمع الاسلامي والعربي ، وهذا ما جعل القاضي أحمد بن عيسى المرشدي يصف الصوفيين في عهده ، أنهم صوفية الأكل والشرب والطرب ..

وجعل أبا بكر الطرطوشي يقول : مذهب الصوفية ، بطالة ، وجهالة ، وقد وافقه الدميري صاحب حياة الحيوان ، فقال : بطالة ، وجهالة .. وزاد عليه فقال : وضلالة ..

ولكن قطب الدين الشيرازي ، فقد أخرجهم من الاسلام ، اخراجاً تاماً بقوله : أنهم ــ أي الصوفية ــ يخالفون رسول الله في جميع الوظائف الايمانية ، وقد شبههم بالتيوس اللحيانية ، فكم في هذا القول من تحقير واستصغار ..

وهنا لا بد لنا من القول : أن كل حركة تنتشر بين الناس ، وتصبح مهوى ولو لبعض أفئدتهم .. لا بد لها من جماعة يستغلونها ، ويعملون على توجيهها الوجهة التي يرتضونها هم لخدمة مآربهم وأغراضهم في الحياة العامة ، في حين نرى أن الصوفية كانت في بدايتها فردية ولم تكن جماهيرية ، وكانت نزعة شخصية ، ليس لها مبشرين ولا دعاة ، ولا غاية ولا غرض لها إلا التخلص من أغراض الحياة ..

ولهذا نجد أن الفرس عندما وجدوا فيها الفكر المعطل ، حاولوا استغلالها في المجالات العرفانية ، لتكون حركة ذات صبغة فكرية ، فاختلفوا مع غيرهم الذين أرادوها عملاً انقطاعياً ، لا علاقة له بأمور الحياة والعلم ، بل هي هواجس نفسية تتشفى من كل رغبات الجسد وملذاته ، واغفال كل معطيات الفكر والعقل ... وهذا الضياع عن مقتضيات التأمل بحقائق الوجود ، ورسالته المبدعة ، هو نوع من التعطيل الذي يؤدي بالنتيجة الى التردي في الهوة التي ينسحق بها كل أثر فعال .

وبين هذا وذاك ، جاءت فكرة اللهو والعبث ، والانصراف الى التمتع بالشهوات والطيبات ، فكانت على النقيض تماماً من الحركة الأولى ، ورغم ذلك بقيت الحركة تحمل اسم صوفية ولو أفرغوها من مضمونها ولكنها بهذا النوع الأخير تحولت إلى حركة جماهيرية، تستهوي الكثيرين وتستميل العدد الأكبر من عشاق الحياة المهتمة بالبطون والفروج ، وهؤلاء هم الغالبية الغالبة في كل الأحوال والظروف ، وكان من الطبيعي أن يقبل عليها الناس ، وأن يرفضوا الحركة الأولى ، حركة الزهد والعبادة والتنسك ...

وإذا كانت كل حركة في التصوف تقوم على نقيض الأخرى فلم يبق من التصوف إلا الاسم ، ومن آثاره إلا الرسم ...

وجاءت الآراء المطروحة على السنة وأقلام المؤرخين ، وأهل البحث ... وجاء الخلاف على التسمية وبقي خلافاً مستمراً ، وأوغلوا في التدقيق بما يجب أن يكون عليه المتصوف ، فأدخلوا كلمة (أدب) على مزايا المتصوف ولا يقصدون بهذه الكلمة الأدب المعروف عند جمهرة المفكرين ، فوضعوا أدباً للوقت ، وأدباً للحالة ، وأدباً للمقام، فقد قال بعضهم : لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات ، بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول ..

وإذا رجعنا إلى بداية عهد التصوف ، لم نعثر على شيء مما وضع له مؤخراً ...

والذي يمكن أن نلاحظه في هذا المجال .. هو أن الخلاف على مشتقات التسمية ، أو اشتقاقها من مصادر مختلفة ، لم يكن حرصاً على معرفة كنه التصوف ، وجوهره ، وحقيقته ، ولكن لتشويش المفاهيم والاعتبارات . حتى لا يقال : هي اسلامية المصدر والمنشأ ، وحتى يبطل بواسطتها الاحتجاج على مظاهر الترف والجاه والسلطان ...

ويأتي آخرون ، فلا يجدون أن حياة الزهد ، قامت لوجه الزهد في متاع الحياة وحسب ، وانما قالوا فيها : انها تفضي الى غاية أبعد، غير ظاهرة الاحتجاج على مظاهر الترف واستغلال الانسان للانسان، وانما ترمي إلى توجيه الروح العاشقة الى خالقها المعشوق ، فنتج عن ذلك (العشق الآلهي) كالذي دعت اليه رابعة العدوية .. والذي فسره شيخ الأزهر بتصفية الروح وتبرئة النفس من علائقها المادية ، لتصبح صالحة لتلقي الفيض الآلهي على مذهب السهروردي ..

ومن هنا ... من هذا المنطلق بدأت لغة الرموز والشطح

عند الصوفيين ، والتي اعتبرها ابن عطاء علماً شرفه الله بهم ، فهم يضنون به على غير الصوفيين ، ولتكون لهم لغة خاصة غير لغة الناس ولكن ماذا تعني هذه اللغة الخاصة أليست حجاباً تستتر وراءها اشاراتهم وأغراضهم الصوفية ... ولكن (النِفري) يرى أن اللغة جميعها لغو" ، وهي حجاب مانع بين الانسان وبين الحقيقة ...

ولا أجد (النفري) شاطحاً في هذا الرأي ، لأن للحقيقة وجهاً واحداً في تصوير الباحث ، ولكن اللغة تجعل لها وجوهاً ، ومن هنا تصبح اللغة حجاباً مانعاً بين الانسان والحقيقة ، ومن هنا كانت (الحيرة) التي أشار اليها (الجنيد) وصاحب كتاب (التنبيه) .

وانك عندما تمر على لغة الشطح، يأخذك العجب من هذاالاصطلاح الغريب الذي انفرد به الرجال الصوفيون ، فقد كان سبباً لتعريضهم الى تهم مشبوهة ، والى انزلاقهم في مزالق خطيرة ...

ولهم تعابير أشبه بتعابير العشاق المجاذيب ، والا فماذا ، يعني (شراب الأنس) الذي أعطي لداود الطائي ، فابتهج به وانشرح . ان عبارة (شراب الأنس) أليق ما تكون بالشعر منها في التعبير عن مواجيد صوفية ...

وماذا يعني قول (رابعة) : (سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته) ولماذا يكون ، أو كان الشراب والسكر محور كلامهم ، والشراب والسكر ممنوعان في الشريعة ..

وماذا يعني قول البسطامي ، ليحيى بن معاذ : (غيري شرب بحور السموات والأرض ، وما روي بعد ، ولسانه خارج" ، ويقول : هل من مزيد) .. فماذا يعني بهذا النهم بالشراب ، وهذا التعريض بغيره الذي لم ترووه بحور السموات والأرض ، ولا يزال لسانه يطلب المزيد ، وهو أي (البسطامي) روي من القليل من هذا الشراب ..

إن هذه الأقوال ، ليس لها ما تعنيه ، إلا تحويل اتجاه المخلوق نحو الخالق بالكلية ، بعد اعطائه صفة المعشوق ، هذه الصفة التي يتعامل بها الانسان على الأرض مع انسان الأرض ، وهو أمر" يبعد الانسان عن غاية الحياة ورسالتها ، وبالنتيجة يفضي الى تعطيل حكمة الحياة والوجود ..

ورأينا أن نثبت هنا ، ما شاء أن يثبته الدكتور أبو العلا عفيفي عن التصوف ، وروحانية الاسلام فيه ، خلافاً لمن يرى فيه روحانية غير اسلامية ، قال :

ولما كان التصوف في نظري ، أروع صفحة ، تتجلى فيها روحانية الاسلام ، وتفسيراً عميقاً لهذا الدين ، فيه اشباع للعاطفة ، وتغذية للقلب ، في مقابلة التفسير العقلي الجاف ، الذي وضعه الفلاسفة والمتكلمون ، والتفسير الصوري القاصر الذي وضعه الفقهاء ، كتبت هذه الصفحات ، لأبرز فيها ، بعض معالم الصورة ، التي يتلخص فيها موقف الصوفية من الدين ، والله ، والعالم ، ذلك الموقف الذي رضيه الصوفية ، واطمأنوا إليه ، وطالبوا به أنفسهم ، ولم يطالبوا به غيرهم ، وسميتُ هذا الموقف (الثورة الروحية في الاسلام) ، لأن التصوف كان انقلاباً عارماً على الأوضاع والمفاهيم الاسلامية ، كما حددها الفقهاء والمتكلمون ، والفلاسفة ، وهو الذي بث في تعاليم الاسلام روحاً جديدة أدرك مغزاها من ادركه ، وأساء فهمه من أساء... ثم قال : ولست أدعي في هذه الصفحات : أنني عالجت التصوف برمته من ناحية موضوعاته أو تاريخه ، فانني لم أتجاوز في العرض متصوفة القرن السابع الا قليلا ، ولم أذكر شيئاً عن الطرق الصوفية ومشايخها ، وكان معظمهم من كبار الروحانيين وذلك لأني ، لا أرى في تصوفهم الكثير مما زاد فيه على الصوفية السابقين عليهم ، ولم أعرض

للنواحي التاريخية المتصلة بترجمات الصوفية الا في أضيق الحدود، أما تفاصيل سيرهم فقد أغفلتها اغفالا تاماً •

من هذا القول ، ومن حصره الدراسة في متصوفة جيل معين ، ندرك أنه أخذ جانباً واحداً من الصوفية ، هو الجانب الذي ارتضاه الغزالي وابن عربي والسهروردي ، وغيرهم ممن عملوا فيه على اشباع العاطفة وتغذية القلب في مسالك التصوف ومقاماته ، وانصرافاً عن الفلسفة وعلم الكلام حتى يبطل الاحتجاج والمناقشة الجدلية ••

كما يبدو أنه تخطى في دراسته هذه نظرية ابن حزم ، والضالعين معه ، وأقر باطنية الشرع ودلالاته الروحانية ، والتأويل المفضي الى معرفة فوق ما يعرفه الناس ••

والايمان بباطنية الشرع ، هو الذي أوجد هذا الشرخ بين علماء المسلمين وأدى الى تكفير الصوفية بفتوى عالم كبير كابن تيمية ••

بقي علينا أن نعرف لماذا اختار تسمية هذه الدراسة بـ (الثورة الروحية في الاسلام) وأن نعرف ما هو مدى تأثير هذه الثورة ، وهي تعالج نوعاً معيناً ، وتفكيراً معيناً في مرحلة معينة من مراحل التصوف وخلال حقبة من الزمن ، لا صلة لها بما قبلها ، ولا صلة لها بما بعدها، فقد كان التصوف في بدايته ، زهداً وتنسكاً ، وطرحاً لكل مغريات الحياة ، وهذا المظهر التصوفي كاد أن ينقرض لولا متصوفي القرن السادس والسابع الهجري ، وبتأثير هؤلاء صار علماً وفلسفة وهي المرحلة الوسطى التي يعنيها أبو العلا عفيفي في دراسته ، فهي وان كانت مشبعة بفكر جديد خلاق ، لم تسلم ممن يشكك بها ، ويتعرض لها بالنقد والتجريح ، وسوء القصد ، لأنها تخدم الفكرة الباطنية ، وتعتبرها رفضاً للشريعة وتعطيلا لها ، وأكثرهم تعرضاً لتجريحات هؤلاء هو أبو حامد الغزالي ••

وليس نظرة أبي العلا عفيفي إلى التصوف بأنه أروع صفحة تتجلى فيها روحانية الاسلام ، وانه تفسير عميق لهذا الدين وان هذا التفسير فيه اشباع للعاطفة ، وتغذية للقلب ، لم يكن كل هذا الاعجاب بالصوفية ، إلا بتأثير أولئك العلماء الذين قصر دراسته على عصرهم، وهو بالنسبة اليه يعتبر من قبيل التسليم بالتأويل الباطني المعمول به عند صوفية الحقبة التي تقيد بعلمائها وعصرها ..

كما أن نظرته الى التفسير العقلي الجاف الذي وضعه الفلاسفة والمتكلمون والتفسير الصوري الذي وضعه الفقهاء ، ما هو إلا من قبيل الرفض الصارخ لهذا المنهج الفقهي الذي كان يتصدى للصوفية سخرية وانكاراً ، وهو تسليم كلي لنظرية أبي حامد ومتابعيه فيها ، وكأن أبا العلا عفيفي جاء في القرن العشرين لينتصر لنظرية وآراء أبي حامد وابن عربي وغيرهما في كتبهم المعروفة في القرن السابع الهجري.

ومما لا يخرج عن موضوعنا هذا ، ما قرأته في أحد أعداد قديمة من مجلة الهلال المصرية ، عن أساليب التصوف عند الآخرين وعن مدى الاندماج الروحي والعاطفي به ، وهو ما يلي :

يقال : ان الهند هي أصل التنسك ، فمنها انتشر في العالم ، ودخل مصر وسورية ، ولا يزال للآن في أوربا .. ولكن نسك الأوروبيين أو المسيحيين في الشرق الأدنى هو الترف بعينه ، إذا قيس بنسك الهنود الآن ، فان أقصى ما سمعنا من الانكار في النسك في أوربا هو : أن أحد الأديار في فرنسا ، يقيم فيه الرهبان ، فلا يتكلمون طوال مدة اقامتهم فيه ..

وقد كان النسك قديماً بين المسيحيين ، غاية في التقشف وانكار النفس ، ومكابدة صنوف العذاب العديدة ، فمن ذلك أن الناسك

يلبس المسوح الخشنة من الصوف ، ويقضي حياته فوق عمود(١) لا يكاد يسعه إذا انطرح عليه ، ولا ينزل عنه ، وكان المحسنون يأتون بطعامه وشرابه كل يوم .. وكان من النساك في مصر الأقباط ، من لا تزال صوامعهم منقورة في صخور الجبال .

ولكن هذا كله سهل هين إذا قرن الى نسك الهنود الآن أو في الزمن القديم ، فقد روت الصحف حديثاً أن الحكومة الانجليزية منعت نساك الهنود من تعذيب أنفسهم بواسطة الحبل والشص (الصنارة) وقد ارتاح الناس لهذا الخبر ، فقد كان الهندي يعذب نفسه بهذه الطريقة على أسلوب تشمئز منه النفس ، ويقشعر منه البدن وذلك أنه كان يأتي بعمود من الخشب يربط في طرفه حبلا ، ثم يضع في طرف الحبل (شصاً) كالذي يصاد به السمك ، وذلك الذي يعلق منه اللحم عند الجزار ، ثم تفرز حجنة الشص المعقوفة تحت لوح الناسك في ظهره ، حتى إذا نشبت وثبتت رفع في الهواء ، فيتأرجح ذات اليمين ، وذات اليسار ، كأنه سمكة ، وهذا لكي تتطهر روحه ..

وقد روت الهلال أمثلة كثيرة مشابهة من هذا النوع ، علقت عليها قائلة : لو كان أحد هؤلاء النساك يعذب نفسه في سبيل خدمة غيره لكان للعذاب وجه وعذر" ، أي لو كان هذا الذي يرغب في تعذيب نفسه ، يذهب إلى أحد المستشفيات ، ويسهر الليالي الطوال

---

(١) ورد في تاريخ المطران الدبس : أن سمعان العمود عاش اربعين سنة على عمود منقطعا عن البشر غربي حلب ، وكان الناس يأتون اليه بالطعام وهو مقيم على عموده حتى وافاه اجله (ولا أعرف لماذا أتردد في قبول هذه الرواية من المطران الدبس ، لأن اربعين عاما على عمود في منطقة معرضة لتقلبات طقسية قاسية أمر مستحيل) .

في خدمة المرضى ، أو تنظيف غرف المستشفى ، أو تهيئة طعامهم لما كان هناك من يعترض على هذا النسك ،ولكن للهنود فلسفة قد لا ندركها نحن بعقولنا الحديثة ..

وإذا كان هذا الذي نشرته الهلال أسلوباً صوفياً فهل يتلاقى هذا الأسلوب مع أساليب الصوفية المتأخرة ولا سيما التي نشأت في ظل الاسلام وبين رجالاته ، وماذا يقول أبو العلى عفيفي وزكي مبارك في صوفية هؤلاء ..

وبمقتضى هذه الأقوال ، وما يرافقها من صور عن أحوال عشاق أرواحهم ، نستطيع أن نقول : ان الصوفية بما تنضحه من أساليب مختلفة غيبت عنا وجهها الصحيح ، وطريقتها الحقة ، وعلمها الدقيق وشغلتنا بما هو خارج عنها ، وضيعت أذهاننا عن ملاحقة تفسيرها وفهم غوامضها ، فقد حملناها في مختلف تفسيراتنا وآرائنا ، ما لم تكن تحتمل ، وحملناها في كثير من مواقفنا على مواضيع لم تكن محمولة عليها ، فقد أخرجناها من البساطة الى التعقيد ، ومن الوضوح الى الأبهام ... ولا بد من الاشارة الى الاشكالات والتناقضات بين نظريتي زكي مبارك ، وأبي العلا عفيفي ، فالأول يحشر الصوفية في كل شيء ، حتى في السياسة ، والعشق المادي ، والنزعات الحزبية والثاني يحصرها في جيل يحمل ثورة روحية في الاسلام ضد الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ، وقد أعرض عن غير هذا المنحى وأغفل ما له علاقة بالطرق والسلوك والمريدين ..

وكما استخرج الدكتور زكي مبارك من التصوف أصولا لكل ما له علاقة في توتر الحياة العاطفية والسياسية والاجتماعية ، فكذلك استخرج الأستاذ علي عقله عرسان من حلقات الصوفية ، الراقصة والسماعية أصولا مسرحية قبل أن يكون المسرح والتمثيل ، وذلك في كتابه الظواهر المسرحية عند العرب ...

إن علي عقله عرسان الذي انضم الى هذه الحلقات في بعض مناسباتها فقد وصف لنا مشاهداته لتلك الحلقات وصفاً دقيقاً في كتابه المذكور وبيَّن نوع اللباس الخاص ، وغطاء الرأس الذي يرتديه المريدون والشيوخ في أثناء الاحتفالات مما يشبه تماماً أحوال المسرحيين عند قيامهم بتمثيل الأدوار ، وقد اعتبر ذلك أساساً للظواهر المسرحية عند العرب[1] .

ولما كان أبو العلا عفيفي لم يذكر شيئاً عن الطرق الصوفية ومشايخها ورأينا أن الأستاذ عرسان قد عرَّج على هذا الذي أغفله أبو العلا عفيفي واستعرض طرق الصوفية ومشايخها وتاريخ تأسيس كل طريقة ، فرأينا أنه يقتضينا الأمر أن نأخذ أسماء أبرز الطرق الصوفية نقلا عن كتابه اتماماً للفائدة وتسهيلا لمن يهمه معرفة هذه الطرق .. قال :

أبرز الطرق الصوفية في القرن الخامس ، والسادس ، والسابع الهجري هي :

١ ــ الطريقة القادرية ، مؤسسها ، الشيخ عبد القادر الجيلاني سنة ٤٧٠ هجرية .

٢ ــ الطريقة الرفاعية ، مؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هجرية .

٣ ــ الطريقة السهروردية ، مؤسسها أبو النجيب السهروردي سنة ٥٦٣ هجرية .

٤ ــ الطريقة الشاذلية ، مؤسسها أبو الحسن الشاذلي التونسي الأصل سنة ٥٩٣ هجرية .

---

(١) يبدو لنا من كتاب الظواهر المسرحية عند العرب أن مؤلفه الأستاذ عرسان يعد مرتدا عن الصوفية مثل زميله الدكتور (زكي مبارك) .

٥ ـ الطريقة الأحمدية ، مؤسسها السيد أحمد البدوي سنة ٥٩٦ هجرية .

٦ ـ الطريقة (البرهامية) ، مؤسسها الشيخ ابراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٦ هجرية .

٧ ـ الطريقة المولوية ، مؤسسها جلال الدين الرومي سنة ٦٠٤ هجرية .

٨ ـ الطريقة الكبراوية ، مؤسسها نجم الدين كبري سنة ٥٤٠ هجرية .

٩ ـ الطريقة البسوية ، مؤسسها أحمد البسوي المتوفى سنة سنة ٦٥٢ هجرية .

١٠ ـ الطريقة الششتية ، مؤسسها حسن ششتي سنة ٥٤٧ هجرية .

١١ ـ الطريقة الحريرية ، مؤسسها علي بن علي بن مسعود الحريري سنة ٥٥٥ هجرية .

١٢ ـ الطريقة النقشبندية ، مؤسسها بهاء نقشبند البخاري سنة ٧١٧ هجرية .

١٣ ـ الطريقة البكتاشية ، مؤسسها حاج بكتاش المتوفى سنة ٧٣٨ هجرية(١) .

---

(١) من كلمات أصحاب هذه الطريقة : (الحقيقة ، الباطن ، الاقطاب ، الأوتاد ، المرشد ، الدادا ، الشبلي ، الرهبر ، القوال) (راجع كتاب البوذيــة للزعبي وزيعور) .

١٤ ــ الطريقة اليونسية ، مؤسسها يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني توفي سنة ٥١٨ هجرية .

هذه هي الطرق التي أشار إليها صاحب كتاب الظواهر المسرحية عند العرب وهناك طرقاً كثيرة أغفلها لعدم أهميتها .. ولكن عندما ننظر الى هذه الطرق ، نجد أن كل واحدة منها تنتسب الى شيخ معين هو مؤسسها ولكننا لا نستطيع معرفة مدى صلة هذه الطرق بأساس التصوف الذي شغل الباحثين والمؤرخين كل هذه الفترة الطويلة من الزمن فما هي هذه الطرق، وما هي غايتها، ولماذا لم تجتمع كلها في طريقة واحدة ما دامت غاية هذه الطرق جميعها روحية .. بقي علينا أن نتساءل من الذين يزعمون ان التصوف علم ومن بينهم ابن خلدون، أين هو العلم في هذه الطرق ، ونتساءل من الذين يزعمون أن في التصوف فلسفة ، أين هي الفلسفة في هذه الطرق ، ومن الذين يزعمون أن في التصوف عرفاناً ، أين هو العرفان المزعوم فيه ..

وإذا كان التصوف هو سبيل لانقاذ الروح من أدران الجسد لماذا لم يقم على الصورة التي رسمها له متقدمو الصوفية بصرف النظر عن تعدد هذه الطرق وما يتخللها من أوراد وأذكار ...

ولماذا في أواسط القرن السابع الهجري وهو القرن الذي أرخ له أبو العلى عفيفي ، استصدر بعض مناهضي التصوف في ذلك العصر فتوى من علماء المسلمين على الأربعة مذاهب ضد أولئك المتصوفين في عصرهم وهم الذين وصفهم بأنهم اذا وردوا الى بلد يقصدون الى المسجد ويشرعون بالتصفيق والغناء والرقص ، تارة بالكف وتارة بالدف والشبابة ، وجاءت الفتوى بعدم جواز الاتصال بهم أو مخالطتهم .

إن هذه الفتوى ، أو هذا الاستفتاء لا يدل على اقرار هذه

النزعات الصوفية ، ولا يدل على التسليم بهذه المظاهر التصوفية وانما تستصدر ممن بيدهم الأمر اجازة محاربتها من قبل جماعة أهل السنة، كما حوربت من قبل جماعة الشيعة في عهد الصفويين في ايران ..

ومن هنا ندرك : ان الشيعة والسنّة قد اتفقا على رفض التصوف بعد أن تعددت مظاهره وأشكاله وتحول الى شرازم غير مأمونة الجانب ، وقد تجلى ذلك في موقف نصير الدين الطوسي من جماعة الشيعة ، وابن تيمية من جماعة أهل السنة ، منه على الرغم من فلسفة الغزالي ، وابن الطفيل ومحي الدين العربي ، وغيرهم من عمالقة الفكر الصوفي ، والفلسفة الصوفية ..

وهكذا بقيت الصوفية ، تتنقل بين الأقلام بهوية مجهولة عبر التاريخ وظلت بين مؤيديها ومعارضيها ، خلال عشرة قرون غير واضحة المعالم ، وككرة اللعب ، يتقاذفها فريق من هنا ، وفريق من هناك ، دون أن يربح أحد منهما الشوط ..

ومن غرائب الأمور في هذا الموضوع أن يتهم أبو حامد في (احيائه) كثيراً من جماعات الصوفية بالغرور ، وزعم أن فيهم ادعياء اغترو بالزي والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة ، والجلوس على السجادات مع اطراق الرأس وادخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث الى غير ذلك من الشمائل والهيئات ، وهم لم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية بل اكتفوا بهذه المظاهر الشبيهة دون أن يقطعوا أي منزلة من منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز أن يعدوا أنفسهم في الصوفية ، كيف

ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون في الرغيف والفلس ، ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض ..

ثم انتقل الى غرور المتشبهين بالصوفية ، وبعد أن وصفهم بما وصفهم به قال : فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ..

ثم انتقل الى غرور مدعي الوصول ، وبعد أن وصفهم بما وصفهم به من الغرور قال عن مدعي الوصول[1] ويدعي لنفسه أنه الواصل الى الحق وأنه من المقربين وهو عند الله من الفجار والمنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين .

ثم انتقل الى غرور الأباحيين من مدعي التصوف وبعد أن عدد من أوصافهم ما شاءت له معرفته بهم قال : وأضاف غرور أهل الأباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم ..

ثم تحدث عن مدعي الزهد والتوكل من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها ..

وتابع حديثه عن غرور طالبي الحلال في شأن واحد وعن غرور مدعي التواضع ، وغرور المتعمقين في البحث عن عيوب النفس مما لا تتسع له صفحات هذا الكتاب ..

إن أبا حامد في أقواله هذه لم يترك مقاماً للصوفية الا اعتبر سالكيه من أهل الغرور والنفاق والاستغلال ، وهو مع كل هذا حجة الاسلام ومرسخ قواعد الصوفية .

---

(١) وهل ينال مقام الواصلين به حب ، ولم يفن منه اليأس والطمع (المكزون)

مشاهير الشّيوخ الصّوفيّين
وبعض أقوالهم

مشاهير الشّيوخ الصّوفيّين
وبعض أقوالهم

رأينا اتماماً للفائدة أن نذكر مشاهير الشيوخ الصوفيين في آخر هذا الكتاب ، وبعضاً من أقوالهم ، ونماذج من شطحاتهم مما يحتاج إليه القارىء الكريم الراغب في معرفة هؤلاء المشاهير ، وها نحن نذكرهم كما يلي :

١ ـ أبو اسحاق ، ابراهيم بن أدهم بن منصور ، من كورة بلخ كان من أبناء الملوك، كان من دعائه : اللهم انقلني من ذلة معصيتك، إلى عز طاعتك ... دخل الشام ، ومات بها ، عاش قبل المائتين من الهجرة ..

٢ ـ أبو الفيض ذو النون المصري ، واسمه ثوبان بن ابراهيم توفي سنة ٢٤٥ هجرية ودفن بالقرافة الصغرى بمصر ..

٣ ـ أبو علي ، الفضيل بن عياض ، خراساني من ناحية مرو توفي بمكة سنة ١٨٧ هجرية ... كان الفضيل قاطع طريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته ، أنه عشق جارية ، فسمع ـ وهو يتسلق اليها الجدار (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) ..

٤ ـ أبو محفوظ ، معروف ، بن فيروز الكرخي ، من المشايخ الكبار ، مجاب الدعوة ، يستشفى بقبره ، يقول البغداديون :

قبر معروف ترياق مجرّب ، وهو من موالي علي بن موسى الرضا ..

٥ ـ أبو الحسن ، سري بن المغلس السقطي ، خال الجنيد وأستاذه، وكان تلميذ معروف الكرخي، ومعروف" هذا هو الذي كرّه التجارة إلى سري ، فتركها وانصرف للزهد ، كان الجنيد يقول : ما رأيت أعبد من السري ، أتت عليه ثمانية وتسعون سنة ، ما رُئي مضطجعاً الا في علة الموت.. كان السري يقول: التصوف اسم لثلاثة معان : وهو الذي لا يطفىء نور معرفته، نور ورعه ولا يتكلم بباطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنّة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله، مات السري سنة ٢٥٧ هجرية وكان به ادمه (أي سواد) .

٦ ـ أبو نصر ، بشر بن الحرث الحافي ، أصله من مرو ، وسكن بغداد ومات بها ، وهو ابن أخت علي بن خشرم ، مات سنة ٢٢٧ هجرية كان كبير الشأن ، سبب توبته ، أنه رفع ورقة عن الأرض ، مكتوب عليها اسم الله ، وطيبّها ، ووضعها في جدار ، كان يقول بشر : لا يجد حلاوة الأخرى رجل يحب أن يعرفه الناس ..

٧ ـ أبو عبد الله ، الحرث بن أسد المحاسبي ، كان عديم النظير في زمانه علماً وورعاً ، بصريّ الأصل ، مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ، رفض سبعين ألف درهم من ورثة أبيه ، لأنه كان يقول بالقدر.

٨ ـ أبو سليمان ، داود بن نصير الطائي ، كان كبير الشأن ، سبب زهده أنه مر ببغداد يوماً ، فنحاه المطرقون بين يدي حميد الطوسي ، وقيل سمع ببغداد نائحة تنوح ، وتقول :

بأي خديك تبدّى البلى وأي عينيك أتت رسالا

وقيل : كان سبب زهده ، مجلس له مع أبي حنيفة ..

٩ ــ أبو علي ، شقيق بن ابراهيم البلخي ، من مشايخ خراسان ، لتوبته سبب ، كان يقول : تعرف تقوى الرجال ، في ثلاثة أشياء ، في أخذهم ، ومنعهم ، وكلامهم ، ولم يذكر تاريخ وفاته .

١٠ ــ أبو يزيد ، طيفور بن عيسى البسطامي ، كان جده مجوسياً، قيل : مات سنة ٢٦١ هجرية ، وقيل ٢٣٤ هجرية ، قال : اختلاف العلماء رحمة ، الا في تجريد التوحيد ..

١١ ــ أبو محمد ، سهل بن عبد الله التستري ، توفي ٢٨٣ هجرية وقيل ٢٧٣ هجرية .

١٢ ــ أبو سليمان ، عطية ، بل عبد الرحمن بن عطية الداراني ، داران قرية من قرى دمشق توفي سنة ٢١٥ هجرية .

١٣ ــ أبو عبد الرحمن ، حاتم بن علوان ، ويقال : حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان ..

١٤ ــ أبو زكريا ، يحيى بن معاذ الرازي ، الواعظ ، مات في نيسابور سنة ٢٥٨ هجرية ، كان يقول : من خان الله بالسر ، هتك الله سره بالعلانية .

١٥ ــ أبو حامد ، أحمد بن خضرويه البلخي ، من كبار مشايخ خراسان ، توفي سنة ٢٤٠ هجرية ، عندما توفي دمعت عيناه ، وقال : باب" كنت أدقه منذ خمس وتسعين سنة ، وهذا هو يفتح لي الساعة لا أدري ، أبالسعادة يفتح ؟! أم بالشقاوة؟!.

١٦ ــ أبو الحسين ، أحمد بن الحواري ، من أهل دمشق ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره ، مات سنة ٢٣٠ هجرية ، كان

الجنيد يقول : أحمد بن الحواري ريحانة الشام ، كان يقول: من نظر إلى الدنيا نظر ارادةٍ وحب لها ، أخرج نور اليقين والزهد من قلبه ..

١٧ ـ أبو حفص ، عمر بن مسلمة الحداد ، من قرية يقال لها : كورداباذ على باب مدينة نيسابور ، على طريق بخارى ، أحد الأئمة والسادة ، مات سنة نيف وستين ومايتين ، كان يقول : المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت ، وكان يقول : اذا رأيت المريد يحب السماع ، فاعلم أن فيه بقية من البطالة ، وكان يقول : حسن أدب الظاهر ، عنوان حسن أدب الباطن ..

١٨ ـ أبو تراب ، عسكر بن حصين النخشبي ، صحب حاتم الأصم، وأبا حاتم العطار المصري ، مات سنة ٢٤٥ هجرية ، قيل مات بالبادية ، نهشته السباع ، وقال ابن الجلاء : صحبت ستماية شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة .. أولهم أبو تراب النخشبي، كان يقول : الفقير قوته ما وجده، ولباسه ما ستره، ومسكنه حيث نزل ، وكان يقول : إذا صدق العبد في العمل ، وجد حلاوته ، قبل أن يعمله فاذا أخلص فيه ، وجد حلاوته ولذته، وقت مباشرة الفعل ..

١٩ ـ أبو محمد ، عبد الله بن خبيق ، من زهاد المتصوفة ، صحب يوسف بن اسقاط ، كان كوفي الأصل ، ولكنه سكن انطاكية، كان يقول : أربع" لا غير ، عينك ، ولسانك ، وقلبك ، وهواك ، عينك ، لا تنظر بها الى ما لا يحل ، ولسانك ، لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك ، وقلبك لا يكن فيه غل ، ولا حقد على أحد من المسلمين ، وهواك ، لا تهوى

به شيئاً من الشر ، فاذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال، فاجعل الرماد على رأسك ، فقد شقيت ..

٢٠ ـ أبو علي : أحمد بن عاصم الأنطاكي ، من أقران بشر بن الحرث والسري السقطي ، والحارث المحاسبي ، وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب ، لحدة فراسته ، وكان يقول : اذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك .

٢١ ـ أبو السري ، منصور بن عمار ، من أهل مرو ، من قرية يقال لها (دندانقان) ، وقيل : انه من (بوشيخ) أقام بالبصرة، وكان من الواعظين الأكابر ، كان يقول : من جزع من مصائب الدنيا ، تحولت مصيبته في دينه ، وكان يقول : أحسن لباس العبد التواضع والانكسار وأحسن لباس العارفين ، التقوى.

٢٢ ـ أبو صالح ، حمدون بن أحمد بن عمارة القصار ، نيسابوري، منه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور، صحب سلمان الباروسي، وأبا تراب النخشبي ، مات سنة ٢٧١ هجرية ، كان يقول : مذ علمت أن للسلطان فراسة في الأشرار ما خرج خوف السلطان من قلبي ، وكان يقول : ان استطعت أن لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل ...

٢٣ ـ أبو القاسم : الجنيد بن محمد ، سيد هذه الطائفة (الصوفية) وامامهم أصله من (نهاوند) ، ومنشأه ومولده بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج ، فلذلك يقال له (القواريري) ، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور ، وكان يفتي في حلقته بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة ، صحب خاله السري ، والحرث المحاسبي ، ومحمد بن علي القصاب ، مات سنة

٢٩٧ هجرية كان يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات ، والمستحسنات ، وكان قال لمن يقول : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب الى الله عز وجل إن هذا قول قوم ، تكلموا باسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني ، أحسن حالا من الذي يقول هذا ، فان العارفين بالله تعالى ، أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، واليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام ، لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال دونها ، وكان يقول: الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا من اقتفى أثر الرسول (ص) .

٢٤ ـ أبو عثمان ، سعيد بن اسماعيل الحيري ، المقيم بنيسابور ، وكان من الري ، صحب شاه الكرماني ، ويحيى بن معاذ الرازي ، ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني ، على أبي حفص الحداد ، مات سنة ٢٩٨ هجرية ، كان يقول : لا يكمل ايمان الرجل ، حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء : المنع والاعطاء، والعز والذل ..

٢٥ ـ أبو الحسين ، أحمد بن محمد النوري ، بغدادي المولد والمنشأ بغوي الأصل ، صحب السري السقطي ، وابن أبي الحواري ، وكان من أقران الجنيد ، رحمه الله ، مات سنة ٢٩٥ هجرية ، وكان كبير الشأن حسن المعاملة واللسان ، كان يقول : التصوف ترك كل حظ للنفس ، وكان يقول : أعز الأشياء في زماننا شيئان ، عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة ، وكان يقول : من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي ، فلا تقربن منه ، قال فيه

الجنيد ، منذ مات النوري ، لم يخبر عن حقيقة الصدق أحـــد ..

٢٦ ــ أبو عبد الله ، أحمد بن يحيى الجلاء ، بغدادي الأصل ، أقام بالرملة ودمشق ، من أكابر مشايخ الشام ، صحب أبا تراب ، وذا النون ، وأبا عبيد البسري ، وأباه ، يحيى الجلاء ، كان يقول : من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها ، فهو عابد ، ومـــن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل ، فهو موحد لا يرى إلا واحدا .

٢٧ ــ أبو محمد ، رويم بن أحمد ، بغدادي من أجلة المشايخ مات سنة ٣٠٣ هجرية كان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود ، كـــان يقول : ما هذا الأمر إلا ببذل الروح ، فان أمكنك الدخـــول فيه مع هذا ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية ، وكان يقول: قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية، فان كل الخلق قعدوا على الرسوم ، وقعدت هذه الطائفـــة على الحقائق ، وطالب الخلق كلهم بظواهر الشرع ، وطالب هؤلاء أنفسهم بحقيقة الورع ، ومداومة الصدق ، فمن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به ، نزع الله نـــور الايمان من قلبه ..

٢٨ ــ أبو عبد الله ، محمد بن الفضل البلخي ، ساكن سمرقند ، بلخي الأصل أخرج منها فدخل سمرقند ، ومات بها ، وصحب أحمد بن خضرويه وغيره وكان أبو عثمان الحيري يميـــل إليه جدا ، مات سنة ٣١٩ هجرية ، سئل فقال : علامة الشقاء ثلاثة أشياء ، يرزق العلم ، ويحرم العمل ، ويرزق العمل ، ويحرم الاخلاص ، ويرزق صحبة الصالحين ، ولا يحترم لهم،

وقال عنه أبو عثمان الحيري : محمد بن الفضل سمسار الرجال ، وكان يقول : ذهاب الاسلام من أربعة ، لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ، ويمنعون الناس من التعلم ..

٢٩ ـ أبو بكر ، أحمد بن نصر الزقاق الكبير ، كان من أقران الجنيد ، من أكابر مصر ، وكان يقول : من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام المحض .

٣٠ ـ أبو عبد الله ، عمر بن عثمان المكي ، لقي أبا عبد الله النباجي، وصحب أبا سعيد الخراز وغيره ، شيخ القوم ، وامام الطائفة في الأصول والطريقة مات ببغداد سنة ٢٩١ هجرية ، كان يقول : كل ما توهمه قلبك ، أو رسخ في مجاري فكرتك أو خطر في معارضات قلبك ، من حسن ، أو بهاء ، أو أنس، أو جمال ، أو ضياء ، أو شبح ، أو نور ، أو شخص ، أو خيال، فالله بعيد من ذلك ، ألا تسمع الى قوله تعالى ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، وقال : لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

٣١ ـ سمنون بن حمزة ، وكنيته أبو الحسن ، ويقال : أبو القاسم، صحب السري ، وأبا أحمد القلانسي ، ومحمد بن علي القصاب ، وغيرهم ، كان ظريف الخلق ، أكثر كلامه في المحبة ، وكان كبير الشأن ، مات قبل الجنيد كما قيل ..

٢٣ ـ أبو عبد الله البسري ، من قدماء المشايخ ، صحب أبا تراب النخشبي ، قال ابن الجلاء : لقيت ستماية شيخ ، فما رأيت مثل أربعة ، ذي النون المصري ، وأبي، وأبي تراب النخشبي، وأبي عبيد البسري ..

٣٣ ـ أبو الفوارس ، شاه بن شجاع الكرماني ، كان من أولاد الملوك ، صحب أبا تراب النخشبي ، وأبا عبيد البسري ، وأولئك الطبقة ، وكان أحد الفتيان ، كبير الشأن ، مات قبل الثلاثماية ، كان يقول : علامة التقوى الورع، وعلامة الورع، الوقوف عند الشبهات ، وكان يقول لأصحابه : اجتنبوا الكذب والخيانة والغيبة ، ثم اصنعوا ما بدا لكم ، وكان يقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهر اتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال ، لم تخطىء له فراسة ..

٣٤ ـ يوسف بن الحسين ، شيخ الرقي والجبال في وقته ، وكان نسيج وحده في اسقاط التصنع ، وكان عالماً أديباً ، صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي ، ورافق أبا سعيد الخراز ، مات سنة ٣٠٤ هجرية ، وكان يقول : رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث ، ومعاشرة الأضداد ، ورفقة النسوان .

٣٥ ـ أبو عبد الله ، محمد بن علي الترمذي ، من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم ، صحب أبا تراب النخشبي ، وأحمد بن خضرويه وابن الجلاء وغيرهم ، سئل عن صفة الخلق ، فقال : ضعف" وظاهر ودعوى عريضة ..

٣٦ ـ أبو بكر ، محمد بن عمر الوراق الترمذي ، أقام ببلخ ، وصحب أحمد بن خضرويه ، وغيره ، وله تصانيف في الرياضة ، كان يقول : لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال : الشك في المقدور ، ولو قيل : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ، ولو قيل : ما غايتك ؟ قال : الحرمان ، وكان يقول : مفتاح

كل بركة الصبر في موضع ارادتك الى أن تصح لك الارادة، فاذا صحت لك الارادة ، فقد ظهرت عليك أوائل البركة ..

٣٧ ـ أبو سعيد : أحمد بن عيسى الخراز ، من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصري ، والنباجي ، وأبا عبيد البسري ، والسري، والبشري وغيرهم ، مات سنة ٢٦٧ هجرية ، كان يقول : كل باطن يخالفه ظاهر ، فهو باطل ، وكان يقول : صحبت الصوفية ما صحبت ، فما وقع بيني وبينهم خلاف ، قالوا : لم ؟ قال : لأني كنت معهم على نفسي ...

٣٨ ـ أبو عبد الله ، محمد بن اسماعيل المغربي ، أستاذ ابراهيم بن شيبان وتلميذ علي بن زين ، عاش سنة ١٢٠هـ ومات ٢٩٩ هـ كان عجيب الشأن ، لم يأكل مما وصلت اليه يد بني آدم سنين كثيرة ، وكان يتناول من أصول الحشيش أشياء تعود أكلها ، وكان يقول : أفضل الأعمال ، عمارة الأوقات بالموافقات ، وقال : أعظم الناس ذلا ، فقير داهن غنياً ، أو تواضع له ، وأعظم الخلق عزاً غني" تذلل للفقراء ، وحفظ كرامتهم .

٣٩ ـ أبو العباس ، أحمد بن محمد بن مسروق ، من أهل طوس ، سكن بغداد وصحب الحرث المحاسبي ، والسري السقطي ، توفي ببغداد سنة تسع وقيل سنة ثمان وتسعين ومايتين ، كان يقول : من راقب الله تعالى في خطرات قلبه ، عصمه الله في محركات جوارحه ، وقال : تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى ، وبه يصل العبد الى محل حقيقة التقوى ، وقال : شجرة المعرفة ، تسقى بماء الفكر ، وشجرة الغفلة ، تسقى بماء الجهل ، وشجرة التوبة ، تسقى بماء الندامة ، وشجرة المحبة ، تسقى بماء الاتفاق والموافقة،

وقال : متى طمعت في المعرفة ، ولم تحكم قبلها مدارج الارادة فأنت في جهل ، ومتى طلبت الارادة ، قبل تصحيح مقام التوبة ، فأنت في غفلة عما تطلب ...

٤٠ ـ أبو الحسن ، علي بن سهل الأصبهاني ، من أقران الجنيد ، قصده عمر بن عثمان المكي في دين ركبه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم ، لقي أبا ترات النخشبي والطبقة ، كان يقول : المبادرة الى الطاعات من علامات التوفيق .. والتقاعد عن المخالفات ، من علامات حسن الرعاية ، ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ ، واظهار الدعاوى من رعونات البشرية .

٤١ ـ أبو محمد ، أحمد بن محمد بن الحسين الجريري ، من كبار أصحاب الجنيد وصحب سهل بن عبد الله ، أقعد بعد الجنيد في مكانه ، وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة ، كبير الحال ، مات سنة ٣١١ هجرية ، يقول أحمد بن عطاء الروذباري : مات سنة الهبير (التي كان فيها هلاك الناس) كان يقول : من استولت عليه النفس ، صار أسيراً في حكم الشهوات ، محصورا في سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ بكلام الحق تعالى ، ولا يستحليه ، وان كثر ترداده على لسانه ...

٤٢ ـ أبو العباس ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي ، من كبار مشايخ الصوفية ، وعلمائهم ، كان الخراز يعظم شأنه وهو من أقران الجنيد ، وصحب ابراهيم المارساني مات سنة ٣٠٩ هجرية كان يقول : من ألزم نفسه آداب الشريعة ، نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الرسول (ص) في أوامره ، وأفعاله ، وأخلاقه ، وكان يقول:

أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربه ، وغفلته عن أوامره ونواهيه، وغفلته عن آداب معاملته ، وكان يقول : كل ما سألت عنه ، فاطلبه في مفازة العلم ، فان لم تجده ففي ميدان الحكمة ، فان لم تجده فزنه بالتوحيد ، فان لم تجده في هذه المواضع الثلاثة ، فاضرب به وجه الشيطان ...

٤٣ ـ أبو اسحاق ، ابراهيم بن أحمد الخواص ، من أقران الجنيد والنوري ، وله في التوكل والرياضات حظ كبير ، مات بالري سنة ٢٩١ هجرية ، كان يقول : ليس العالم بكثرة الرواية ، انما العالم من اتبع العلم ، واستعمله ، واقتدى بالسنن ، وان كان قليل العلم ، وكان يقول : دواء القلب خمسة أشياء ، قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين ..

٤٤ ـ أبو محمد ، عبد الله بن محمد الخراز ، من أهل الري ، جاور بمكة وصحب أبا حفص ، وأبا عمران الكبير ، وكان من المتورعين ، مات قبل العشرة والثلاثماية ، كان يقول الجوع طعام الزاهدين ، والذكر طعام العارفين ..

٤٥ ـ أبو الحسن ، بنان بن محمد الحمال ، واسطي الأصل ، أقام بمصر ، ومات فيها سنة ٣١٦ هجرية ، كبير الشأن ، صاحب الكرامات ، سئل عن أجل أحوال الصوفية ، فقال : الثقة بالمضمون ، والقيام بالأوامر ، ومراعاة السر ، والتخلي عن الكونين ..

٤٦ ـ أبو حمزة البغدادي البزاز ، مات قبل الجنيد ، وكان من أقرانه صحب السري ، والحسن المسوحي ، وكان عالماً بالقراءات ، فقيهاً ، وكان من أولاده عيسى بن ابان ، وكان

أحمد بن حنبل يقول له في المسائل : ما تقول فيها يا صوفي ؟؟ قيل : كان يتكلم في مجلسه يوم جمعة ، فتغير عليه الحال ، فسقط عن كرسيه ، ومات في الجمعة الثانية وقيل : مات سنة ٢٨٩ هجرية كان يقول : من علم طريق الحق سبحانه ، سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق الى الله تعالى إلا متابعة الرسول (ص) في أحواله وأفعاله وأقواله وكان يقول: من رزق ثلاثة أشياء ، فقد نجا من الآفات ، بطن" خال مع قلب قانع ، وفقر دائم ، معه زهد حاضر ، وصبر كامل معه ذكر دائم ..

٤٧ ــ أبو بكر ، محمد بن موسى الواسطي ، خراساني الأصل، من فرغانة ، صحب الجنيد ، والنوري ، عالم كبير الشأن، أقام بمرو ومات بعد سنة ٣٢٠ هجرية كان يقول : الخوف والرجاء ، زمامان من سوء الأدب ، وقال : مطالعة الأعواض على الطاعات ، من نسيان الفضل ، وقال ــ وهو يعني فئة من المتصوفة ــ اذا أراد الله بعبد هوانا ، ألقاه الى هؤلاء الأنتان والجيف ، يريد به صحبة الأحداث، جعلوا سوء أدبهم اخلاصاً ، وشرة نفوسهم انبساطاً ، ودناءة الهمم جلادة . فعموا على الطريق ، وسلكوا فيه المضيق فلا حياة تنمو في شواهدهم ، ولا عبادة تزكو في محاضرتهم ، إن نطقوا فبالغضب ، وان خاطبوا فبالكبر ، توثب أنفسهم ينبىء عن ضمائرهم ، وشرههم في المأكول، يظهر مافي سويداء أسرارهم قاتلهم الله أنى يؤفكون .

٤٨ ــ أبو الحسن ابن الصائغ ، واسمه علي بن محمد بن سهل الدينوري أقام بمصر ، ومات فيها ، من كبار المشايخ ، قال أبو عثمان المغربي ما رأيت من المشايخ ، أنور من أبي يعقوب

النهرجوري ، ولا أكثر هيبة ، من أبي الحسن الصائغ ، مات سنة ٣٣٠ هجرية ، سئل عن الاستدلال بالشاهد على الغائب، فقال : كيف يستدل بصفات من له مثل ونظير ، على من لا مثل له ولا نظير ، وقال : الأحوال كالبرق ، فاذا ثبتت فهو حديث النفس وملازمة الطبع ..

٤٩ ـ أبو اسحاق ، ابراهيم بن داود الرقي ، من كبار مشايخ الشام من أقران الجنيد ، وابن الجلاء ، وقد عمر وعاش الى سنة ٣٢٦ هجرية وكان يقول : المعرفة اثبات الحق على ما هو ، خارجاً عن كل ما هو موهوم ، وكان يقول : القدرة ظاهرة ، والأعين مفتوحة ، ولكن أنوار البصائر قد ضعفت ، وقال : أضعف الخلق ، من ضعف عن رد شهواته وأقوى الخلق من قوي على ردها ، وقال : علامة محبة الله ايثار طاعته ، ومتابعة نبيه (ص) .

٥٠ ـ ممشاد الدينوري ، من كبار مشايخهم ، مات سنة ٢٩٩ هـ ، كان يقول : أدب المريد في التزام حرمات المشايخ ، وخدمة الاخوان والخروج عن الأسباب وحفظ آداب الشرع على نفسه ..

٥١ ـ خير النسّاج ، صحب أبا حمزة البغدادي ، ولقي السري وكان من أقران أبي الحسن النوري، إلا أنه عمر عمرا طويلا وعاش كما قيل /١٢٠/ مئة وعشرين سنة ، وناب في مجلسه الشبلي والخواص وكان أستاذ الجماعة ، وقيل : كان اسمه محمد بن اسماعيل ، من سامرة ، وانما سمي خير النساج ، لأنه خرج الى الحج فأخذه رجل على باب الكوفة ، وقال له : أنت عبدي ، واسمك (خير) وكان أسود ، فلم يخالفه ،

واستعمله الرجل في نسج الخز ، فكان يقول له : يا خير ، فيقول له : لبيك ، ثم قال له الرجل بعد سنين ، غلطت لا أنت عبدي ، ولا اسمك خير ، فمضى وتركه ، وقال : لا أغير اسما سماني به رجل مسلم ، وكان يقول : الخوف سوط الله ، يقوم به نفساً قد تعودت سوء الأدب ..

٥٢ ـ أبو حمزة الخراساني بنيسابور ، أصله من محلة ملقاباذ ، من أقران الجنيد والخراز ، وأبي تراب النخشبي ، وكان ورعاً ديناً ، كان يقول : من استشعر ذكر الموت حبب الله إليه كل فان ، وقال : العارف يدافع عيشه يوماً بيوم ، ويأخذ عيشه يوماً ليوم ، وقال له رجل : أوصيني فقال : هيىء زادك للسفر الذي بين يديك ، توفي سنة ٢٩٠ هجرية .

٥٣ ـ أبو بكر ، دُلف بن جحدر الشبلي ، بغدادي المولد والمنشأ، واصلة من (اسروشنه) صحب الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالا وظرفاً ، وعلماً ، مالكي المذهب، عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة ٣٣٤ هجرية وقبره ببغداد ، ولما تاب الشبلي في مجلس خير النساج ، أتى (دوماند) وقال : كنت والي بلدكم ، فاجعلوني في حلٍ ، وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد ..

٥٤ ـ أبو محمد ، عبد الله بن محمد المرتعش ، نيسابوري ، من محلة الحيرة وقيل من (ملقاباذ) صحب أبا حفص ، وأبا عثمان ، ولقي الجنيد ، وكان كبير الشأن ، وكان يقيم في مسجد (الشونيزية) مات ببغداد سنة ٣٢٨ هجرية كان يقول: الارادة حبس النفس عن مراداتها ، والاقبال على أوامر الله تعالى ، والرضا بموارد القضاء عليه ، وقيل له : إن فلاناً

يمشي على الماء فقال : عندي أن من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشي في الهواء ..

٥٥ ــ أبو علي : أحمد بن محمد الروذباري ، بغدادي أقام بمصر ، ومات بها سنة ٣٢٢ هجرية صحب الجنيد ، والنوري ، وابن الجلاء ، والطبقة ، أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة ، سئل عمن يسمع الملاهي ويقول : هي لي حلال ، لأني وصلت الى درجة ، لا تؤثر في اختلاف الأحوال ، فقال : نعم ، قد وصل ولكن الى سقر ، وسئل عن التصوف ؟ فقال : هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل ، وقال : كان أستاذي في التصوف الجنيد ، وفي الفقه أبو العباس بن سريج ، وفي الأدب ، ثعلب ، وفي الحديث ابراهيم الحربي .

٥٦ ــ أبو محمد ، عبد الله بن منازل (شيخ الملامتية) أوحد وقته، صحب حمدون القصار ، وكان عالماً ، وكتب الحديث الكثير مات بنيسابور سنة ٣٣٠ هجرية ، كان يقول : لم يضع أحد" فريضة من الفرائض ، إلا ابتلاه الله بتضييع السنن ، ولم يبل أحد بتضييع السنن ، إلا أوشك أن يبتلى بالبدع ، وكان يقول : أفضل اوقاتك وقت تسلم فيه من هواجس نفسك ، ووقت تسلم فيه من سوء ظنك ..

٥٧ ــ أبو علي ، محمد بن عبد الوهاب الثقفي ، امام الوقت ، صحب أبا حفص ، وحمدون القصار ، وبه ظهر التصوف بنيسابور مات سنة ٣٢٨ هجرية كان يقول : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ أو امام ، أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله ، ورعونا من نفسه

لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات ، وقال : يأتي على هذه الأمة زمان لا تطيب المعيشة فيه لمؤمن إلا بعد استناده على منافق .

٥٨ ـ أبو الخير الأقطع ، مغربي الأصل ، سكن (تينات) وله كرامات ، وفراسة حادة ، كان كبير الشأن مات سنة ٣٤٠ هـ كان يقول : ما بلغ أحد الى حالة شريفة ، إلا بملازمة الموافقة ومعانقة الأدب ، واداء الفرائض ، وصحبة الصالحين ..

٥٩ ـ أبو بكر ، محمد بن علي الكتاني ، بغدادي الأصل ، صحب الجنيد والخراز ، والنوري ، وجاور بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢ هجرية ، كان يقول الشهوة زمام الشيطان ، من أخذ بزمامه كان عبده ..

٦٠ ـ أبو يعقوب ، اسحاق بن محمد النهرجوري ، صحب أبا عمرو المكي ، وأبا يعقوب السرسي ، والجنيد ، وغيرهم ، مات بمكة مجاورا بها سنة ٣٣٠ هجرية ، كان يقول : الدنيا بحر ، والآخرة ساحل والمركب التقوى ، والناس سفر ، وكان يقول : أفضل الأحوال ما قارن العلم .

٦١ ـ أبو الحسن ، علي بن محمد المزين ، من أهل بغداد ، من أصحاب سهل بن عبد الله ، والجنيد ، والطبقة ، مات بمكة مجاورا سنة ٣٢٨ هجرية ، وكان ورعاً كبيرا ، كان يقول : الذنب بعد الذنوب عقوبة الذنب اقول ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة الأولى ، وسئل عن التوحيد ، فقال: أن تعلم أن أوصافه تعالى بائنة لأوصاف خلقه ، باينهم بصفاته قدماً ، كما باينوه بصفاتهم حدثاً ، وقال : من لم يستغن بالله أحوجه الى الخلق ومن استغنى بالله أحوج الله إليه الخلق ..

٦٢ ــ أبو علي ابن الكاتب ، واسمه الحسن بن أحمد ، صحب أبا علي الروذباري وأبا بكر المصري ، وغيرهما ، كان كبيرا في حاله ، مات سنة ٣٤٠ هجرية كان يقول : إذا سكن الخوف في القلب ، لم ينطق اللسان الا بما يعنيه ، وقال : المعتزلة نزهوا الله تعالى من حيث العقل ، فأخطأوا ، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا ..

٦٣ ــ مظفر القرمسيني ، من أشياخ الجبل ، صحب عبد الله الخراز وغيره كان يقول : الصوم على ثلاثة أوجه ، صوم الروح بقصر الأمل ، وصوم العقل بخلاف الهوى ، وصوم النفس بالامساك عن الطعام والمحارم وقال : أخس الأرفاق ارفاق النسوان ، على أي وجه كان ، وقال : الجوع إذا ساعدته القناعة ، فهو مزرعة الفكر ، وينبوع الحكمة ، وحياة الفطنة ومصباح القلب ...

٦٤ ــ أبو بكر ، عبد الله بن طاهر الأبهري ، من أقران الشبلي من مشايخ الجبل ، عالم ورع ، صحب يوسف بن الحسين وغيره ، مات سنة ٣٣٠ هجرية ، كان يقول : من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة ، فان كان ولا بد ، فلا تجاوز رغبته كفايته ، يعني المحتاج إليه ، واذا أحببت أخاً في الله ، فأقال مخالطته في الدنيا ..

٦٥ ــ أبو الحسين بن بنان ، ينتمي الى أبي سعيد الخراز ، من كبار مشايخ مصر ، قال : كل صوفي كان هم الرزق قائماً في قلبه فلزوم العمل أقرب اليه ، وعلامة سكون القلب الى الله ، أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، وقال : اجتنبوا دناءة الأخلاق ، كما تجتنبون الحرام ..

٦٦ ــ أبو اسحاق ، ابراهيم بن شيبان القرمسيني ، شيخ وقته ، صحب أبا عبد الله المغربي ، والخواص ، وغيرهما ، كان يقول : من أراد ان يتعطل أو يتبطل فليلزم الرخص ، وقال: علم الفناء ، والبقاء يدور على اخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة ، وقال: **السفلة من يعصي الله ..**

٦٧ ــ أبو بكر ، الحسين بن علي بن بزدانيار ، من ارمينية ، له طريقة يختص بها في التصوف ، وكان عالماً ورعاً ، وكان ينكر على بعض العارفين في اطلاقات وألفاظ لهم[1] ، وكان يقول: إياك أن تطمع في الأنس بالله ، وأنت تحب الأنس بالناس ، واياك أن تطمع في حب الله ، وأنت تحب الفضول ، واياك أن تطمع في المنزلة عند الله ، وأنت تحب المنزلة عند الناس..

٦٨ ــ أبو سعيد ابن الاعرابي ، واسمه أحمد بن محمد بن زياد البصري ، جاور الحرم ، ومات سنة ٣٤١ هجرية ، صحب الجنيد ، وعمر بن عثمان المكي ، والنوري ، وغيرهم ، كان يقول : أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعمالهم ، وبارز بالقبيح من هو أقرب اليه من حبل الوريد ..

٦٩ ــ أبو عمر ، محمد بن ابراهيم الزجاجي النيسابوري ، جاور بمكة سنين كثيرة ، ومات بها ، صحب الجنيد ، وأبا عثمان، والنوري ، والخواص ، ورويماً ، مات سنة ٣٤٨ هجرية ، كان يقول : من تكلم عن حال لم يصل اليها كان كلامه فتنة لمن يسمعه ، ودعوى تتولد في قلبه ، وحرمه الله الوصول **إلى تلك الحال ..**

---

(١) يبدو انه كان يستنكر الشطح الصوفي .

٧٠ ـ أبو محمد ، جعفر بن محمد بن نصير ، بغدادي المنشأ والمولد صحب الجنيد ، وانتمى إليه ، وصحب النووي ، ورويماً ، وسمنون والطبقة ، مات ببغداد سنة ٣٤٨ هجرية ، كان يقول: لا يجد العبد لذة المعاملة مع الله مع لذة النفس ، لأن أهل الحقائق ، قطعوا العلايق التي تقطعهم عن الحق قبل أن تقطعهم العلائق •• وكان يقول : انما بين العبيد ، وبين الوجود أن تسكن التقوى قلبه ، فاذا سكنت التقوى قلبه ، نزلت عليه بركات العلم ، وزالت عنه رغبة الدنيا •••

٧١ ـ أبو العباس السياري (نسبة إلى سيار جده) ، واسمه القاسم بن القاسم من مرو ، صحب الواسطي ، وانتمى اليه في علوم هذه الطائفة مات سنة ٣٤٢ هجرية ، سئل : بماذا يروض المريد نفسه ؟ فقال : بالصبر على فعل الأوامر ، واجتناب النواهي ، وصحبة الصالحين ، وخدمة الفقراء ، وقال : ما التذ عاقل بمشاهدة الحق قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة ••

٧٢ ـ أبو بكر ، محمد بن داود الدينوري ، المعروف بالرقي ، أقام بالشام وعاش أكثر من مئة سنة بدمشق ، بعد الخمسين والثلاثماية ، صحب ابن الجلاء والزقاق وكان يقول : المعدة موضع يجمع الأطعمة ، فاذا طرحت فيها الحلال ، صدرت الأعضاء بالأعمال الصالحة ، واذا طرحت فيها الشبهة ، اشتبه عليك الطريق الى الله ، واذا طرحت فيها التبعات كان بينك وبين أمر الله حجاب ••

٧٣ ـ أبو محمد ، عبد الله بن محمد الرازي ، مولده ومنشأه بنيسابور صحب أبا عثمان الخيري ، والجنيد ، ويوسف

بن الحسين ، ورويما ، وسمنوناً وغيرهم ، مات سنة ٣٥٣ هجرية ، سئل : ما بال الناس يعرفون عيوبهم ، ولا يرجعون إلى الصواب ؟ فقال : لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ، ولم يشتغلوا باستعماله، واشتغلوا بالظواهر، ولم يشتغلوا بآداب البواطن ، فأعمى الله قلوبهم ، وقيد جوارحهم عن العبادات.

٧٤ ـ أبو عمر ، اسماعيل بن نجيد ، صحب أبا عثمان ، ولقي الجنيد وكان كبير الشأن ، آخر من مات من أصحاب أبي عثمان توفي بمكة سنة ٣٦٦ هـ ، كان يقول : كل حال لا يكون عن نتيجة علم ، فان ضرره على صاحبه أكثر من نفعه ، وكان يقول : من ضيع في وقت من أوقاته ، فريضة افترضها الله عليه ، حرم لذة تلك الفريضة ، ولو بعد حين ، وسئل عن التصوف ، فقال : الصبر تحت الأمر والنهي ، وقال : آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه ..

٧٥ ـ أبو الحسن ، علي بن أحمد بن سهل البوشنجي ، أحد فتيان خراسان لقي أبا عثمان ، وابن عطاء ، والحريري ، وأبا عمر الدمشقي ، مات سنة ٣٤٨ هجرية سئل عن المروءة ، فقال : هي ترك استعمال ما هو محرم عليك مع الكرام الكاتبين ، وقال له انسان : ادع الله لي ، فقال : أعاذك الله من فتنتك ، وقال : أول الايمان منوط بآخره ..

٧٦ ـ أبو عبد الله بن خفيف الشيرازي، صحب رويماً، والحريري، وابن عطاء ، وغيرهم ، مات سنة ٣٩١ هجرية ، شيخ الشيوخ، وأوحد وقته كان يقول : الارادة استدامة الكد ، وترك الراحة ، وقال : ليس شيء أضر على المريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات ، وسئل عن

القرب ، فقال : قربك منه تعالى بملازمة الموافقات ، وقربه منك بدوام التوفيق ، قال له أحدهم : بي وسوسة ، فقال: عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخر منهم ..

٧٧ ـ أبو الحسين ، بندار بن الحسين الشيرازي ، كان عالماً بالأصول كبيرا في الحال ، صحب الشبلي ، مات بأوجان سنة ٣٥٣ هجرية ، كان يقول : لا تخاصم لنفسك ، فانها ليست لك ، دعها لمالكها يفعل بها ما يريد ، وقال : صحبة أهل البدع تورث الأعراض عن الحق ، وقال : اترك ما تهوى لما تأمل ..

٧٩ ـ أبو بكر الطمستاني ، صحب ابراهيم الدباغ ، وغيره ، وكان أوحد وقته علماً ، وحالا ، مات بنيسابور بعد سنة ٣٤٠ هـ ، كان يقول : النعمة العظمى الخروج من النفس ، والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله ، وقال : اذا هم القلب عوقب في الوقت ، وقال : الطريق أوضح ، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم الى الهجرة ، ولصحبتهم ، فمن صحب منا الكتاب والسنّة ، وتغرب عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه الى الله فهو الصادق المصيب .

٧٩ ـ أبو العباس ، أحمد بن محمد الدينوري ، صحب يوسف بن الحسين وابن عطاء ، والحريري ، وكان عالماً فاضلا ، ورد بنسابور ، وأقام بها مدة ، وكان يعظ الناس ، ويتكلم على لسان المعرفة ، ثم ذهب الى سمرقند ومات بها بعد سنة ٣٤٠ هـ ، كان يقول : أدنى الذكر ، أن تنسى ما دونه ونهاية الذكر ، أن تغيب الذاكر في الذكر عن الذكر ، وقال:

لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن ، وقال : نقضوا أركان التصوف ، وهدموا سبيلها وغيروا معانيها بأسامي أحدثوها، سموا الطمع زيادة ، وسوء الأدب اخلاصاً والخروج عن الحق شطحاً ، والتلذذ بالمذموم طيبة ، واتباع الهوى ابتلاء والرجوع الى الدنيا وصلا ، وسوء الخلق صولة ، والبخل جلادة ، والسؤال عملا ، وبذاءة اللسان ملامة ، وما هذا كان طريق القوم ..

٨٠ ــ أبو عثمان ، سعيد بن سلام المغربي ، واحد عصره ، لم يوصف مثله قبله ، صحب ابن الكاتب ، وحبيباً المغربي ، وأبا عمرو الزجاجي ، ولقي النهرجوري ، وابن الصائغ ، وغيرهم ، مات بنيسابور سنة ٣٧٣ هجرية وأوصى بأن يصلي عليه الامام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى ، كان يقول : التقوى : هي الوقوف مع الحدود ، لا يقصر فيها ، ولا يتعداها ، وقال : من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب .

٨١ ــ أبو القاسم ، ابراهيم بن محمد النصرباذي ، شيخ خراسان في وقته ، صحب الشبلي ، وأبا علي الروذباري ، والمرتعش، جاور بمكة حرسها الله تعالى سنة ٣٦٦ هـ ومات بها سنة ٣٦٩ هـ ، وكان عالماً بالحديث كثير الرواية ، وكان يقول : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات..

٨٢ ــ أبو الحسن ، علي بن ابراهيم الحصري البصري ، سكن بغداد ، عجيب الحال ، واللسان ، شيخ وقته ، ينتمي الى

الشبلي ، مات ببغداد سنة ٣٧١ هجرية، قال: الناس يقولون:
الحصري لا يقول بالنوافل ، وعلى أوراد من حال الشباب لو تركت ركعة لعوتبت ، وقال : من ادعى في شيء من الحقيقة ، كذبته شواهد كشف البراهين .

٨٣ ــ أبو عبد الله ، أحمد بن عطاء الروذباري ، ابن أخت الشيخ أبي علي الروذباري ، شيخ الشام في وقته ، مات بصور سنة ٣٦٩ هجرية ، وكان يقول : أقبح من كل قبيح ، صوفي شحيح ..

إن ذكر هذه الجماعة من شيوخ الصوفية للتنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ، متصفون بسلوك طرق الرياضة، مقيمون على متابعة السنة ، غير مخلين بشيء من آداب الديانة متفقون على أن من خلال المعاملات والمجاهدات ، ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه ..

ومن الذي يجب ان ينتبه اليه القارىء الكريم حصر محبي هؤلاء الشيوخ في فترات متقاربة وفي صحبة بعضهم لبعضهم وفي تلاقي وتجانس آرائهم في الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المتصوف ، ويتبين اكثر فاكثر اجماع المتصوفة على مركز الجنيد بينهم وتفوقه عليهم والاعتداد الكبير على رأيه(١) ولكن يلوح مما ورد على السنة هؤلاء الشيوخ ان الانتساب الى الصوفية غير متعلق بسلسلة كما زعم بعضهم بل هي سلوك طريق الرياضة ومتابعة السنة ، وعدم الاخلال بآداب الديانة

---

(١) قال صاحب كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني الدكتور حسن ابراهيم حسن: ان الجنيد البغدادي هو الذي شرح نظريات التصوف وبوبها ، وان الشبلي دعا اليها فوق المنابر .

وان التصوف مبني على الورع والتقوى ، وليس على معلومات وقواعد ثابتة . ويلاحظ القارىء ان هؤلاء الشيوخ تنحصر فترة وجودهم ما بين سنة ١٦٠ هجرية ، حتى سنة ٣٩٨ هجرية وهي الفترة التي صار فيها للتصوف شيوخ كبار وشأن عظيم ، وأبرز من عبر عن صعوبة السلوك في الصوفية هو رويم ابن أحمد الذي قال : قعودك مع كل طبقة من الناس ، أسلم من قعودك مع الصوفية ، فان كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق ، وقول احمد الروذباري : التصوف مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل ، وقول ابي الحسين النوري : ليس التصوف رسوما ، ولا علوما ، ولكنه اخلاق ، وقول مجد الدين البغدادي في تحفة البررة : ان على الصوفي أن لا يميل الى مذهب بعنيه من مذاهب الاسلام .

* * *

نماذج مِن الشطح الصّوفي

نماذج من الشطح الصّوفي

أبو بكر الشبلي كان يقول :

أنا معكم حيثما كنتم ، أنتم في رعايتي وكلايتي ، إن نفسي هذه تطلب مني كسرة خبز ، ولو التفت سري إلى العرش والكرسي لاحترق (السر هو باطن العقل) ، إن مر بخاطرك ذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام أشركت (قالها للحصري) ، أنا أقول وأنا أسمع ، فهل في الدارين غيري .. أنا النقطة تحت الباء .

والحلاج كان يقول :

أنا الحق ، أنا الله ، ما في الجبة إلا الله ..

وابن عربي كان يقول : :

اذا عرفت الله ، فما عرفت سواك .. أانت ؟ أم انا ؟ هذي العين في العين ، حاشاي ، حاشاي ، من اثبات اثنين ، لا فرق بيني ، وبين ربي الا أنني تقدمت بالعبودية ، انا أصغر من ربي بسنتين .

وأبو يزيد البسطامي كان يقول :

سبحاني ما أعظم شأني ، بطشي به ، أشد من بطشه بي (إن بطش ربك لشديد) ، كنت أطوف حول البيت ، فلما وصلت رأيت البيت يطوف حولي ، كنت لي مرآة ، فصرت أنا المرآة ، انسلخت

من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ، ثم نظرت الى نفسي ، فاذا أنا هو من رآني لا تحرقه النار ، طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك، أنا اللوح المحفوظ .

وأبو طالب المكي كان يقول :

ليس على المخلوق أضر من الخالق .

تعليقاً على هذه الشطحات قال بعض الكتاب[1] : لقد وضع بعضهم تأويلات لهذه الأقوال ، ولكن هذه التأويلات أشبه بالحيل الفقهية المعروفة عند الحنفية الذين اشتهروا بايجاد المخارج الشرعية.

* * *

(١) المقال للاستاذ نهاد خياطة منشور في العدد (٢٧) تاريخ ٣ ذي القعدة سنة ١٤٠٥ هجرية الموافق ٧ تموز سنة ١٩٨٥ من مجلة الثقافة الاسبوعية الصادرة في دمشق .

صلَة التصَوّف الإسلامي
بالتصَوّف المسيحي وَأثره

صلة التصوف الإسلامي بالتصوف المسيحي وأثره

مهد (ول ديورانت)[1] في فصل التصوف هذا للعوامل التي أدت الى ظهور التصوف بين فئة من المسيحيين احتضنتهم الكنيسة مرة وعملت على حمايتهم ، ثم رفضتهم وحاربتهم ، وأشار الى الأسباب التي كانت ذات أثر فعال في تعميم هذه النزعة وانشداد الناس إليها في كل عصر وفي كل دين وفي كل أرض ، حتى امتلأت بهم المسيحية اليونانية على رغم ما يزخر به تراثها العقلي ..

وأشار الى أن الاحساس بالألوهة ، عند أولئك القديسات من النساء الصالحات ، وتأثرهن بما كان للألفاظ والصور والتماثيل والحفلات من قوة ، جعل الرؤى غير الحسية تتوارد سراعاً الى أخيلتهن ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة الى ما فوق الطبيعة مما جعلها ترجع بكل مدارك العقل الجزئي وسلطانه الغامض الخفي الى العقل الكلي الذي يسيّر مادة العالم ويكمن فيها ، مستبينة من ذلك أن بمقدور ذروة العقل ، أن تمس أسفل عرش الله[2] مما جعل الاتجاه نحو الله مقروناً بالصلوات والذكر الدائم

(١) (ول ديورانت) مؤلف موسوعة قصة الحضارة وقد تكلم عن التصوف في الفصل السادس من الجزء السادس عشر .

(٢) ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى

والاعراض عن مادية الحياة التي هي مشكلة الانسان الأولى في هـذه الحياة ، وهي المشكلة التي يواجهها الجانحون الى التصوف فيسعون لتطهير أنفسهم منها ، حيث يتسنى لها ــ اذا تم لها ذلك ــ أن ترى بقوة البصر الواضحة المجردة من رغائب الجسم ، معالم الكون والخلود والألوهة وكأنها عادت من نفي طويل المدى الى الوحدة مع الله الذي افترقت عنه عقاباً لها ، ايماناً منها برؤية الله الممكنة التي وعد بها السيد المسيح أهل القلوب الطاهرة .

وعند (ديورانت) أن القديس أوغسطين كان ينبوع التصوف الذي نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة الى الله ، وانه لم يتحدث انسان الى الذات العلية بأطول مما تحدث إليها ..

وكانت النزعة العقلية التي نادى بها فريق من المفكرين كادت أن تطغى على الحياة الفكرية في ذلك العصر بما تقوم به من حجة ومنطق وبرهان ، فلجأ بعضهم الى اقامة قواعد الدين على غير الحجة والبرهان ، واقامتها على الاحساس الصوفي بالحضرة الآلهية ، ومن أولئك البعض متصوف يدعى (هيو) المتوفى سنة ١١٤١ م فانه يرى في كل صورة من صور الخلق رمزاً قدسياً كما كان يرى المتصوف المسلم محي الدين بن عربي تماماً ، ومنهم متصوف آخر يدعى (وتشرد) المتوفي عام ١١٧٣ م فانه كان يرفض المنطق والعلم ويؤثر القلب تماماً كما هي نظرية أبي حامد الغزالي ويصف بمنطق الغالم القدير السمو الصوفي للروح الى مقام الذات العالية ..

هذه النظريات تتلاقى في شكلها ومضمونها مع نظريات بعض الفلاسفة من المسلمين كما أسلفنا ، وتتخذ نفس المدار في هذا الفلك الصوفي الواسع ..

ويتجلى في هذه المظاهر الصوفية من الرجالات الصوفيين مسلمين كانوا أو مسيحيين عشق الروح عشقاً ينسحق الجسد في سبيله ، وكأن الأجساد عدوة الآلهة فلا يتقرب العبد الصالح من ربه الحق الا بمعاداة جسده الدرن وتخلصه منه ، ولا أعلم سبباً لهذا العداء المقيت بين الله والأجسام ، وهو الذي خلقها فسواها وجعلها أوعية لحفظ الأرواح التي هي فيض" منه ...

وتكاد سيرة (يواقيم الفلورائي) الذي صرف حاشيته وهو في طريقه الى فلسطين وواصل سيره إليها ذليلا خاشعاً ، تكاد تشبه سيرة ابراهيم ابن الأدهم الذي تخلى عن أدوات صيده وسلمها للراعي وانطلق هائماً في البادية ، ولكن يواقيم هذا الذي تاقت نفسه الى الزهد ، وانصرف اليه يختلف في النتيجة عن ابن الأدهم ، انه أبقى صلة بينه وبين رجالات عصره فكتب اليهم وأرسل اليهم طائفة من مؤلفاته التي ادّعى أنه كتبها بوحي من الله ، واتخذ أساساً لكتاباته النظرية الأوغسطينية التي كانت ذات تأثير قوي عند المتمسكين بالدين القويم ، وقد آمن بهذا الرجل عدد كبير من الناس المسيحيين ومنهم رجال ذوو مناصب ، وأخذوا يتطلعون الى الميلاد الثاني الذي بشر به وحدد توقيتاً له عام /١٢٦٠ م/ ولكن الكنيسة حكمت عليه وعلى مريديه أنهم خارجون على القانون ، وحرمت قراءة كتابه الانجيل الخالد الذي هاجم به أحد البابوات الملوثين ببيع المناصب الكهنوتية على أنه سيكون خاتمة العهد الثاني وان الحاجة الى العشاء الرباني والى القساوسة تنتهي الى العهد الثالث حين يسود الحب العالمي ..

وكان ترقب حلول مملكة السماء باعثاً الى مظاهر جماهيرية ذات صفة جنونية أعلن فيها الندم والتوبة وطلب الرحمة من الله ، وقد انضم الى هؤلاء الجماهير المرابون واللصوص وأخذوا بمحاسبة أنفسهم وردوا جميع ما أخذوه بغير حلة ..

إن هذه الظاهرة كانت ذات أثر طيب بالرجوع الى الأخلاق والى الايمان بالحق ، وطائفة النادمين هؤلاء تشبه طريقة (الملامتية) عند بعض أصحاب الطرق إلا أن النادمين هؤلاء دعوا للرجوع الى الأخلاق والحق واتباع الطريقة (الملامتية)دعوا الى الأباحة والشذوذ ، ولكن حركة المتهتهين التي جاءت عقب حركة النادمين كانت شبيهة بحركة (الملامتية) في التصوف الاسلامي .

وفي عام /١٢٦٢/ ظهرت حركة (اخوان الروح)[١] وهي شبيهة بحركة (اخوان الصفا) ، وكانت هذه الحركة وحركة المتهتهين من الحركات التي أعفت نفسها من سيطرة الكهنوت والدولة فعملا على قمعها ..

ومثل ما كانت (رابعة العدوية) المتصوفة المسلمة التي ذاع اسمها وصيتها وشغلت حيزاً في التاريخ الصوفي كذلك كانت (هلدجارد) البنجية في ألمانيا من / ١٠٩٩ ـ ١١٧٩ / فقد عاشت (٨٢) عاماً منها عامان راهبة بندكية والبقية رئيسة دير للنساء، ويقول مؤرخوها كانت مزيجاً غير مألوف من حسن الادارة والرؤى الخيالية، تقية ومتطرفة ، وقد نشرت عدة كتب في الرؤى الدينية ، ادعت فيها معاونة الذات العلية، ومن أقوالها: إن للعدالة الآلهية ساعتها المحدودة، وان أحكام الله لتوشك أن تنفذ ، وستنهار الامبراطورية والبابوية معاً بعد أن تترويا في هوة الألحاد ، ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضها وستضم الوثنيين واليهود وعبّاد الدنيا والكفرة جميعاً ، وسيسود العالم ربيع الدهر والسلام بعد مولده الجديد ويعود الملائكة وهم واثقون الى السكنى بين الآدميين ..

---

(١) بعد مئتي عام ونيف على ظهور بجماعة اخوان الصفا الاسلامية ظهرت حركة اخوان الروح المسيحية ، وهذا يعني ان هذه تأثرت بتلك .

وبعد مئة عام ظهرت امرأة أخرى اسمها اليصابات النورنجيائية (١٢٠٧ ــ ١٢٣١) التي تزوجت بأمير ألماني وترملت منه والتي لجأت الى حياة الورع والتجوال وهي في ربيع حياتها ووهبت حياتها للفقراء فقد كانت تخدم المرضى والمصابين ، وكانت هي الأخرى مثل زميلتها (هلدجارد) تتراءى لها رؤى سماوية ولكنها كانت تخفيها ولا تذيعها، وأصبحت فيما بعد جارية لعضو محاكم التحقيق الذي افتتنت به لشدته في اخلاصه للدين ، ويروي مؤرخوها أن هذا كان قاسياً عليها وكان يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد ضرباً شديدا وكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، توفيت وهي في الرابعة والعشرين من عمرها ، ومن أطرف ما يروى عن جنازتها ، أن الذين كانوا يسيرون بها من أتباعها المخلصين لشدة افتتانهم بها ، قصوا شعرها ، وقطعوا أذنيها ، وحلمتي ثدييها ، ليتخذوها مخلفات مقدسة ، وهذا تقدير لم يحصل لرابعة بعد كل زهدها وتقشفها وعشقها الخالص للذات العلية ..

ولم تكن الكنيسة تجري مع هؤلاء المتصوفين إلا بقدر ما يتقيدون به بقوانين الكنيسة ، إلا أن بعض ذوي المناصب الدينية كانوا يستمعون الى ناقديهم ويعترفون بما في الكنيسة من عيوب ..

سقنا هذه المعلومات التي أوجزناها قدر الامكان ليعلم القارىء وشائج القربى بين التصوف عند المسلمين وعند المسيحيين وأين تتلاقى وأين تفترق ..

أما الشيء الذي ينبغي الاشارة إليه هو أن فترة الخصب هذه بالتصوف المسيحي هي نفسها فترة الخصب بالتصوف الاسلامي وهي تنحصر ما بين / ٥٠٠ هجرية الى ٧٢٧ هجرية / بمقابلتها مع التاريخ الميلادي فبماذا يفسر الناس هذا التوافق ..

ويلاحظ في استكناه المعنى الأعمق للصوفية ، أن كل اتجاه نحو

الله فهو في نظر الباحثين في هذا الموضوع هو تصوف ، لأن التصوف بمقتضى هذا المفهوم ، هو الارتباط الكلي بالله روحياً ، والتخلي عن الارتباط بالجسد وقد اعتبر بعضهم ، أن عدم القدرة على بلوغ السكينة الروحية ، يرجع بصفة جوهرية الى القلق الأفاني في الجسد ، والى المبالغة في قيمته ، وان غالبية الناس لا يستخدمونها إلا للانتفاع بها ، بحيث تكون الروح مغمورة في هذا الاستخدام .

إن (تشو ــ هي) أعلى مفكري الصين الكبار ، كان يعترف بتفوق الروح ، فلقد كان يمتدح سلطانها بالنسبة لقيود الجسد ..

يقول صاحب (المذاهب الكبرى في التاريخ) : ان هذا المفكر الكبير قد تأثر بالكونفوشية المحدثة المؤسسة على مفهوم (المطلق الأعظم) الذي لا يمكن تغيير التناسق فيه ، معتبرا أن ما يظهر في الطبيعة ، وفي مجتمع البشر ، ينجم عن علاقة صوفية (بالمطلق الأعظم) .

وكونفوشيوس هو الحكيم الصيني المعروف (٤٩٧ ق.م) واضع النظام الأخلاقي والسياسي من أجل العدالة والسلم العالمي والاصلاح الاجتماعي ..

ويقول المفكر الصيني (لين يوتانغ) متحدثاً عن الصيني الوثني: إن للصيني الوثني من الاخلاص ما يكفيه ليدع لخالق الأشياء هالة السر التي تتوجه ، فيتوجه نحوها مدفوعاً بورع خاشع وهلوع ، وهذا الشعور يكفيه ..

أما اعلان مظهر التصوف ، واضمار ما يخالفه كما فعل حافظ الشيرازي فليس له ما يفسر به الا استغلال المظاهر الصوفية لمآرب الجسد ورغباته المكبوتة ايهاماً للناس ، وهو نوع من الغش السافر ، ينطوي على نفسية تميل الى خداع الناس بالمظاهر الكاذبة ..

وقد فسر متتبعو سيرة حافظ الشيرازي ، قوله : (أيها المتحمس لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ، فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكافر ، إلا الغرور) فسروا ذلك أنه متفاعل مع الزندقة ، إلا أن هذا التفسير خرجوا به عن تقصي الدلالة اللفظية ، فالشيرازي يرى أنه لا فرق بين هذين المعبدين الا في غرور اتباع كل منهما إذ كل فريق منهما يعتبر أنه هو الفريق الناجي .

* * *

الصوفية

عند المفكر الفرنسي (برجسون) ت ١٨٥٩ – ١٩٤١م

الصّوفيّة

عند المفكر الفرنسي (برجسون) ت ١٨٥٩ - ١٩٤١م

الدكتور عبد المنعم الجفني ، صاحب الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية تحدث في كتابه هذا عن الصوفية عند الفيلسوف الفرنسي (برجسون) فقال : انه قال بوجود دين ساكن ، أو (استاتيكي) ، ودين متحرك ، أو (ديناميكي) والأول يحمل الفرد على التشبث بالحياة ، والاخلاص للجماعة، والثاني ، تجربة روحية، منبعها الحدس، لا الغريزة ، وغايتها الاتصال بالوثبة الحيوية التي تكمن وراء شتى مظاهر الوجود ، ووسيلتها الانفصال عن كل شيء ، لا التعلق بأهداف الحياة ، وهو شيء لا نلقاه إلا لدى الصوفية ، والصوفي هو تلك الشخصية النادرة التي تستطيع ، أن تتجاوز الحدود التي عينتها للنوع البشري ماديته ، وبالتالي تستطيع أن تواصل الفعل الآلهي نفسه ..

والمسيح في نظر (برجسون) هو أكبر شخصية صوفية عرفها التاريخ بحيث يمكن القول : انه كل المتصوفة اتباع" له ..

والصوفي المسيحي يشعر بأن الحب يستنفد وجوده كله وهو ليس حب انسان لله ، ولكنه حب الانسان من خلال الله وبواسطته.

ثم يعرّف برجسون إله الصوفية ، بأنه حياة ومحبة ، تعبر عنها تلك الوثبة الحيوية التي تصدر عنها دياناتهم ، وهم وحدهم الذين

يتلقون عن تلك الطاقة الخلاقة التي هي الأصل في رؤاهم وكشوفهم وعلى عاتقهم تقع مسؤولية توجيه الانسانية الى حياة مستقرة مليئة بالمحبة والتعاطف ..

ورغم هذه النغمة الروحية العالية ، التي نوهنا عنها ، والتي وصفها بملكة خاصة ، أرجع إليها الاعتقاد الديني ، وأطلق عليها اسم الوظيفة الأسطورية وهو لم يستخرج من تجارب الصوفية إلا ما يخدم نظريته في التطور الخالق وفلسفته الحيوية ، وإلا لما قال : ان التصوف انفعال صرف ، يجهل الصوفي مصدره ، وهذا ما حدا بالكثيرين الى القول : بأنه لم يفهم التصوف على حقيقته ، وكيف يفهمه ، وهو ما زال متعلقاً بمقولاته البيولوجية وتجريبيته المادية ، وحتى لو قال عنها: إنها تجربة صوفية ..

إن برجسون لم يعرف التصوف من خلال تجربته الروحية ، ولكنه عرفه من خلال محبته للسيد المسيح هذه المحبة التي استنفدت وجوده ..

وهناك متصوفة افرنسية ، تدعى (سيمون فيل) (١٩٠٩ — ١٩٤٣ م) هجرت تدريس الفلسفة الى التصوف ، وعاشت بين العمال حتى قيل فيها: إنها ماتت من الجوع، ولها شطحات، كادعائها مشاهدة المسيح ، وحلوله فيها ، ولكنها لم تتحول الى المسيحية ، بدعوى أن تاريخ الكنيسة لا يشرف المسيحية ، ومع ذلك لم تبق على يهوديتها بحجة ، أن اليهود أقسى شعوب الأرض ، تعرف ذلك من التوراة ومن التلمود ، وهما كتابان ينضحان بالعنصرية ..

من هنا يتبين لنا : أن التصوف شيء مزاجي ، أسبابه كامنة في نفس المتصوف ، وهو الذي يختاره ويميل اليه ، وليس هو من العلوم التي تغذي الفكر، ولا من العلوم التي تستفاد بواسطتها الدنيا،

وانما هو نوع من سيطرة الخواطر والهواجس ، تمليه الحيرة ، أو الخيبة ..

ماذا نقول عن هذه المرأة التي تركت التدريس الذي هو مورد حياتها واختارت التصوف ، لتموت جوعاً ــ كما قيل ــ لا ريب أن في هذا شيء من الشذوذ العقلي الصريح ..

ويروي المؤرخون : أن بولس الرسول ، كان من ألد أعداء الكنيسة ثم تحول الى أكبر مناصريها ، والمجاهدين في سبيلها ، وذلك لما عاتبه السيد المسيح على ذلك بالرؤيا ، فماذا نقول بمثل هذا التحول من النقيض الى النقيض عند هذا الانسان[1] .

(سيمون فيل) وبولس الرسول : يهوديان ، الأولى تجلى لها المسيح ، وحل فيها ــ كما هي الرواية عنها ــ فتصوفت ، ولم تتحول الى مسيحية ، كما أنها لم تبق على يهوديتها .. والثاني بولس ، رأى المسيح في رؤياه الخيالية، فترك يهوديته، وتحول الى مسيحي متطرف، ولكنه لم يتصوف ..

هذه أمور لم يعد العقل هو الذي يقرر فيها ، وانما هناك أحوال لا يثبت أمامها العقل ، فهل نستطيع أن نسمي الحالة التي مر فيها بولس بناحيتها السلبية والايجابية ، وبما صدر عن حالتيها ، العدائية والرضائية ، هل نستطيع أن نسميها عقلا ، واذا كان الرجوع الى المسيح لمجرد رؤيا خيالية ، كما يقول المؤرخون ، اعتبرناه عقلا ، فأين كان عقل بولس يوم كان عدواً للمسيح وللكنيسة ..

---

(١) هناك تشابه كبير بين ما حدث لبولس الرسول في المسيحية ، وبين ما حدث لعمر بن الخطاب في الاسلام كلاهما كان معادياً للدعوة في بدايتها ، ثم تحول الى دعامة قوية لها .. فبولس تعززت المسيحية، وبعمر تعزز الاسلام.

واذا اعتبرنا أن تصوف (سيمون فيل) كان عقلا ، فماذا نسمي تركها تدريس الفلسفة ، وانضمامها الى طبقة الفقراء والاستسلام للموت جوعاً ..

يقتضينا القول في هذا المجال : ان التصوف في بعض رجاله حالة من مرض النفس ، تتيح للتصورات الذهنية أن تتجه بصاحبها الى غير المعقول .. وكما هو الحال عند متصوفي المسيحية ، كذلك هو الحال عند متصوفي المسلمين ..

ويحضرني في هذه المناسبة خبر" قرأته في بعض الكتب المخطوطة، موضوعه : أن الباقر أبا جعفر ، سئل عن العقل ، فقال : العقل عقلان، عقل" كامن في القلب كمون النار في الحديد ، وعقل موهوب من الرب الى المربوب ، فبوجود العقل ، يجد واجده معرفة الرب .

وسئل أبو عبد الله الصادق ، ابن محمد الباقر ، عن العقل ، فقال : العقل ما عبد به الرحمن ، واكتسب به الجنان ، قال السائل : والذي كان مع معاوية ، قال :هو المكر والشيطنة ..

في هذا الخبر يتفق الباقر وابنه الصادق على أن العقل طريق المعرفة بالله ، ويختلفان في تقسيمه الى عقلين ، فالصادق لم يقل إلا بعقل واحد ، ويعتبر ذكاء معاوية ودهاءه مكرا وشيطنة ، لا عقلا ، فهل العقل عقلان !! أم عقل واحد ، وهل للعقل صفتان ، احداهما سلبية وأخرى ايجابية ، وبمقتضى حكم العقل هذا أمر مستحيل ، قال شاعرنا المكزون :

(العقل في جوهره واحد"
وعنه يبدو النفع والضر)

(مثل شعاع الشمس في بدرها
برد" ومنه في الثرى الحر)

أما السؤال الذي يطرح نفسه ، هو : لماذا أخذ التصوف هذا المفعول عند المسلمين ، وارتتع هانئاً في ظل الاسلام ، أكثر مما هو عند المسيحيين ونلاحظ أن الكنيسة حاربت التصوف إلا ما كان من أجلها ، وان فقهاء المسلمين حاربوا التصوف ، إلا ما كان من أجل الشرع ..

ونتساءل عن تاريخ التصوف .. متى بدأ ؟ ومن أي شعب من شعوب البشرية انطلق ، وما هي دوافعه وبواعثه عند الآخرين إذا سلمنا بقول القائل : انه كان عند المسلمين احتجاجاً على ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية ..

وهل كانت انطلاقته فعلا من الهند كما مر معنا على لسان أحد الكتّاب في مجلة الهلال ، أم من فارس ؟ أم من بلاد العرب وانه كان معروفاً عندهم حتى في الجاهلية ؟ ولماذا لم تظهر له هذه التسمية ؟ ولم يظهر به كل هذا الاهتمام الا بعد أن قال به رجال من المسلمين . ولماذا اختلفت فيه التفسيرات والأقوال والاجتهادات وكل الظواهر العملية ، وبقي الاتفاق عليه لجهة التسمية فقط ، وكأنه الشعر الحديث في هذا العصر ..

وإذا كان كل المتصوفين أتباعاً للمسيح كما يقول برجسون ، فمن هم ؟ وأين هم أتباع كونفوشيوس ، وبرهما ، وبوذا والفواريري والكرخي وغيرهم ، وعلى أي اعتبار تجاوز صاحب (قصة الحضارة) السيد المسيح ، الى القديس أوغسطين ، وقال عنه : انه ينبوع التصوف الذي نهل منه الغرب ، في حين أن السيد المسيح يقول : احتفظوا من العلماء الكذبة الذين عليهم ثياب الصوف .

برجسون يرى : أن المسيح هو ينبوع التصوف في الغرب ، وديورانت يرى : ان القديس أوغسطين هو مفجر هذا الينبوع ..

أما المسلمون ، فيعرضون عن هذا وذاك وردوه إلى مصادرهم الاسلامية وحسب ، فبعضهم رده الى الرسول والصحابة ، والبعض الآخر رده إلى الأئمة المعصومين ، وغيرهم الى السلف ، والله أعلم .

وربما كانت أحدث كتابة عن التصوف ، وأحدث تلخيص له : ما جاء في الموسوعة الفلسفية الموضوعة من قبل لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين الصادرة عن دار الطليعة في بيروت طبعة ثانية سنة ١٩٨١ ص ١٢٨ تحت عنوان (التصوف) :

نظرة دينية مثالية للعالم ، ويرجع أصل التصوف إلى الطقوس السرية (الأسرار) التي كانت تؤديها الجمعيات الدينية في الشرق والغرب قديماً ، والصفة المتضمنة في هذه الطقوس هي الاتصال بين الانسان والله ، والاتحاد بالله مفروض فيه أن يتحقق بالوجد أو الكشف ، وعناصر التصوف من الخصائص الموجودة في عديد من العقائد الفلسفية الدينية القديمة مثل الكونفوشية ، والبراهماتية ، والأورفية ، والفيثاغورية ، والأفلاطونية ، والأفلاطونية الجديدة . وقد تطورت الفلسفة التصوفية في العصور الوسطى على أيدي برنارد أوف كليرفو سنة ١٠٩١ ــ ١١٥٣ ، و ج. ايكهارت ١٢٦٠ ــ ١٣٢٧ و ج. تولر ١٣٠٠ ــ ١٣٦١ وغيرهم ، والمتصوفون المتأخرون هم يوهمه وسويدنبرغ ، ومهما كان الأمر فان التصوف من الناحية العملية صفة في جميع الفلسفات المثالية في الأزمنة الجديدة وبصفة خاصة في الشخصانية وبعض أشكال الوجودية ، وقد تطورت في روسيا الفلسفة الدينية التصوفية على أيدي أصحاب النزعة السلافية، سولوفييف ومريديه برديائيف وتروبنسكوي وغيرهم ، ويعتبر الفلاسفة المتصوفون الكشف وهو نوع من الحدس الصوفي أسمى شكل للمعرفة فيه يتم ادراك الشخص للوجود بشكل مباشر ..

وعن التصوف الاشراقي ، قالت الموسوعة : تعاليم صوفية تذهب إلى أن الله يمكن أن يعرف عن طريق رابطة مباشرة مع العالم الآخر ، ويعتمد التصوف الاشراقي على البوذية والبراهماتية ، وغيرهما من الفلسفات الشرقية ، ويذهب الى أن النفس تغير غيابها وحضورها على الأرض مرات عديدة الى أن تكفر عن الخطيئة ، وتتحد بالله ، وقد نشأت جمعيات التصوف الاشراقي في الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من البلاد الرأسمالية منذ نهاية القرن التاسع عشر ..

هذا كل ما جاء في الموسوعة الفلسفية المذكورة حول موضوع التصوف ولجنة العلماء واضعة هذه الموسوعة لم تطرح رأياً في الموضوع ولم تناقش به ، أما الشيء الذي ينبغي أن أشير إليه هو أن هذه الموسوعة لم تقل عن التصوف أنه علم أو حركة أو طريقة أو مذهب وانما أسمته (نظرية مثالية) وهي لم تعرّج على متصوفي المسلمين ، وانما تحدثت عن غيرهم في الشرق والغرب قديماً وحديثاً، إلا أن التصوف لم يكن له جمعيات سرية عند المسلمين ولم يقل التاريخ شيئاً من ذلك إلا في العصور المتأخرة ، والذي نراه أن جدلية البحث به غير قابلة للحسم والطريق إلى حسمها شائك إذا لم يكن مسدوداً ..

* * *

اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق

حسن ، أحمد علي ، التصوف جدلية وانتماء ، دراسة ،
الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٠ ، ٤١٦ ص
قطع ١٧٫٥ × ٢٥

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

٢٠٠٠ ــ ١٢ ــ ١٩٩٠

هـذا الكتـاب

ما هو التصوف ؟ هل هـو علم ؟ ومتى واين نشا ؟ وكيف تطور ؟ وهل الصوفيـة بدعة ؟ هذه الاسئلة التي تتفرع عنها اسئلة مماثلة وحول الموضوع نفسه بذل المؤلف جهدا ملحوظا في محاولة الاجابة عنها ، وفي دراسة التصوف والصوفية قديما وحديثا وذلك من خلال الكتابة عن اصول التصوف ومعارفه وفنونـه ، ومشاهير الشيوخ الصوفيين وبعض اقوالهم ، وتقديم نماذج من الشطح الصوفي ، وعبر اسلوب يتسم بالتحليل العلمي الرصين، والجدية والاحاطة بكل مكونات وجوانب موضوعه .

مطبعـة اتحاد الكتـاب العرب

دمشق ۱۹۹۰

ثمن النسخة ۱٥۰ ل.س داخل القطر

١٦٥ ل.س في اقطار الوطن العربي